nesemat.com

نسمات

دراسات حول مشروع **الخدمة**

التعددية، المشاركة والآثار في حركة الخدمة
محمد شتين

محوريــة الأخــلاق فــي البناء الحضاري عند مالك بن نبي وفتح الله كولن
محمد باباعمي

مكانة السنَّة في مشروع الأستاذ كولن
سليمان عشراتي

دار النيل
DAR AL NILE

نسمات
دراسات حول مشروع الخدمة
إصدارة علمية بحثية متخصصة
تصدر عن دار النيل للنشر
www.nesemat.com

محتويات

مقالات

صناعة الأجيال
رافعة الانبعاث الحضاري / عبد المجيد بوشبكة ٢

مكانة السنَّة
في مشروع الأستاذ كولن / سليمان عشراتي..... ١٦

حوارات

الخدمة تفجر
ينابيع الخير الكامنة في الإنسان / سعيد بويزري - محمد إقبال عروي ٢٩

مقالات

محورية الأخلاق في البناء الحضاري
عند مالك بن نبي وفتح الله كولن / محمد باباعمي..... ٤٥

مقارنة بين حكمة فتح الله كولن وحقيقة باركر بالمر
التعليم المستنير مفتاحًا للتحول العالمي / باربرا س. بويد ٦٠

التعددية، المشاركة والآثار
في حركة الخدمة / محمد شتين ٧٢

رحلات وثائقية

الرحلة الثرية
للحاق بالمقامات السنية.. بلابل الخدمة (٢) / محمد جكيب ٨٨

مقالات

الأسس الفاعلة
في الانبعاث الحضاري / سعاد الناصر..... ١٠٤

المسار التعليمي لأحد شباب حركة الخدمة
دراسة للمباحث التربوية البارزة / صامويل د. هنري..... ١١٢

facebook.com/nesematstudies
twitter.com/nesemat_com

Copyright©2015 Dar al-Nile
جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد وإشراف
صابر المشرفي

تحرير وتصحيح
هيئة النشر لدار النيل

اللجنة الاستشارية العلمية
د. محمد إقبال عروي
د. محمد جكيب
د. سعيد بويزري
د. محمد باباعمي
د. هدى درويش
د. سليمان الدقور
د. باسم عيتاني
د. جمال السفرتي
د. فؤاد البنا
د. عبد الله الدعجاني

تصميم فني
أحمد شحاتة

غلاف
ياووز يالمز

البريد الإلكتروني
nesemat@yahoo.com

التوزيع
دار النيل للطباعة والنشر، مصر
Tel. : 002 02 26134402-5
Mobile: 002 01023201002
E-mail: info@daralnile.com
www.daralnile.com

الترقيم الدولي
978-977-801-039-8

رقم الإيداع
2017/7166

رقم النشر
1059

القاهرة - مصر

الحفر الدقيق

في هذا العدد يتواصل الحفر الدقيق للبحث عن سر الظاهرة الحضارية من داخلها، جماعةٌ علميةٌ فائقةٌ، مشاربُهم متنوعة، يكادون يُجمعون على أن فكر الخدمة شمولي تجديدي، ومن ثمَّ راحوا يرصدون تجلياتها الفكرية، ويوثقون تحدياتها التطبيقية، ويكشفون عن روافدها الفكرية الإلهامية.

فحاجة العالم إلى مشروع جديد مجدِّد، بات أمرًا ملحًّا تفرضه ضرورات الواقع الذي يعاني من أزمات متعاقبة، هذا المشروع يضع نصب عينيه الجيل الجديد، يلبي أشواقه الروحية، ويفرغ طاقاته الكامنة في مجالات تعود على الإنسانية جمعاء بالنفع والعطاء والمحبة والتضحية. إن توخي غاية إنسانية نبيلة كهذه، يتوافق مع المنهاج النبوي حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، فالراصدون لمكانة السنة في فكر "الخدمة" عمومًا، ولدى الأستاذ كولن خصوصًا، قد عبروا عن هذه الحقيقة بجلاء، فالأستاذ يوقن أن محاولة تطبيق مناهج أخرى غير المنهاج النبوي في بناء النهضة، لا يضمن النصر ولا يكفل النجاعة والفاعلية.

وقد لاقت نشاطات الخدمة وفاعلياتها المختلفة في مختلف بلدان العالم استحسانًا عريضًا، خاصة في مناطق التوتر والاضطرابات، فقد نجحت إلى حد معقول -بحسب الرصد الذي قدمه الراصدون الميدانيون في هذا العدد- في تقليص حجم القبح الذي نشأ جراء ضخّ ثقافة الإقصاء والتهميش والحقد والكراهية، وإحلال ثقافة التسامح والتعايش والوفاق والأمن المجتمعي محلَّها.

وفي رصد فكري آخر تكشَّف الدور المحوري للأخلاق في البناء الحضاري مع الإيماء، إلى دورها الحساس في تمكين أيَّ فكرة ومخطَّط ومشروع ورؤيا ورسالة من التمثُّل الشفَّاف على خطِّ الزمن.

إن إدراك الأستاذ كولن لجوهرية التعليم في المنهاج الإصلاحي، ودعوته لإصلاح التعليم وإخراج فلسفته من ضيق المنطق الوظيفي الميت إلى سعة العمل الإنساني النبيل، المتمثل في بناء الإنسان بكل أبعاده، وتجسيده هو وملايين من محبيه لهذه الأفكار على أرض الواقع، جذب كثيرًا من الباحثين إلى دراسة هذا النموذج عن قرب، واستجلاء العناصر التي أكسبته النجاح والازدهار، والقدرة على إحداث التغيير والتحول الإيجابي في الفرد والمجتمع، سواء بصورة أفقية في شكل دراسات مقارنة، أو بصورة رأسية من خلال الاستعانة بتجارب تعليمية واقعية حية لبعض الطلاب في المشروع التعليمي للخدمة، تستند إلى استقصاءات وسرديات موثقة ببيانات.

ومما لفت نظرَ الباحثين أيضًا، تعدديةُ انتماءات المشاركين في حركة كولن -باعتبارها إحدى السمات البارزة لهذه الحركة- وذلك من خلال رصد طريقة عمل المجموعات الخدمية فيها، وآثار هذا الحراك التشاركي الجمعي في اكتساب مزيد من فرص اكتشاف الذات والترقي، وتفريغ الطاقات الحيوية المتجددة في مجالات فاعلة.

إن "نسمات" في تناولها لما سبق من محاور فكرية وتربوية وأخلاقية وحضارية وروحية، تحاول أن توثق هذا الرصد الأمين، وتقدمه خدمة للباحثين، ووثيقة للمؤرخين، وشهادة للمعاصرين؛ عسى الأجيال القادمة أن تأخذه بقوة يستحقها، وتلتمس لسلفها العذر فيما فرط من بين أيديها بلا عمد. والله وحده المستعان وهو ولي التوفيق. ■

صناعة الأجيال
رافعة الانبعاث الحضاري

عبد المجيد بوشبكة

أ.د. عبد المجيد أبو شبكة، أستاذ التعليم العالي، ونائب رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة -المغرب، وعضو فريق دكتوراه: "فكر الإصلاح والتغيير في المغرب والعالم الإسلامي"، ومستشار بجهة الدار البيضاء سطات. له عديد من الأعمال العلمية ومنها: "دور العمل الاجتماعي في التنمية": مشروع تكويني... "فلسفة جديدة لفهم القرآن الكريم" كتاب مطبوع وهو من وحي كتاب أضواء قرآنية للأستاذ فتح الله كولن. نُشر له عدد من المقالات في عديد من الصحف والمجلات.

تتناول الدراسة الانبعاث الحضاري في مشروع "الخدمة" من زاوية رؤية كولن لدور الأجيال وكيفية صناعتها من أجل إنجاز هذا المشروع. وقد بينت الدراسة أنه رغم تناول العديد من سلف وخلف المفكرين والباحثين هذا الموضوع إلى حد الإسهاب، بيد أن حديث الأستاذ "فتح الله" كان مختلفًا كل الاختلاف عن المشاريع السابقة شكلاً ومضمونًا. ويُعزى ذلك -بحسب الدراسة- إلى تنزيل الأستاذ كولن لرؤيته الثاقبة إلى واقع حي يدب بين الناس، ويذيب حواجز الثقة التي كانت تمنع غيره من الوصول إلى القلوب، وكأنه شاهد عيان على صدق ما آمن به.

وقد قَدَّرت الدراسة أن هذا منهج جديد يروم جعل هذا الجيل رافعة لانبعاث حضاري عالمي، مما حدا بصاحبها أن يقف وقفة يَسْتَكْنِهُ فيها بعضًا من ملامح هذه الرؤية من خلال ستة محاور رئيسية وهي: فشل المشاريع العالمية، الحاجة إلى مشروع جديد، صناعة جيل المشروع الجديد، مصنع جيل المشروع؛ التعليم، صفات الجيل المشروع، صناعة الأجيال رافعة الانبعاث الحضاري.

لمَّا تأملت ما خطه الأستاذ "فتح الله كولن" بكتابه القيم "ونحن نبني حضارتنا" بمناسبة كلامه عن رسالة الإحياء، عنَّ لي الحديث حول الانبعاث الحضاري في مشروع الأستاذ "كولن"، وذلك من زاوية رؤية هذا الرجل لدور الأجيال في صناعة الحضارة، فهو القائل: "إن إحياءنا "بالانبعاث بعد الموت" مرة أخرى، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأطقم عديدة من الأبطال، البالغين أنوار الحقيقة بعد اجتيازهم آفاق العلم، والمتحكمين في ضبط الرغبات والمتطلبات البدنية ضمن إطار الضرورات، والسامعين بوجدانهم دومًا أناشيد الماورائية تناديهم إلى الله، المعبرين عنه تعالى ببيان بلا حرف ولا لفظ ولا صوت في هيجانهم ونشيجهم، المتنفسين أنفاس أنسه شهيقًا وزفيرًا"[١]. ولأن هذا الرجل خبير بأهمية الحضارات وأنظمتها، وبالتاريخ وسننه، وبالأمراض التي تئن تحت وطأتها أمتنا، فلا يرى بديلاً عن التعويل في هذا البعث المنشود على ثقافتنا الذاتية ورؤيتنا الحضارية، وقد عبر عن ذلك في مناسبات عدة وبشتى الأساليب، ومن ذلك قوله: "ونحن اليوم بحاجة ماسة -قبل كل شيء- إلى غاية مأمولة سامية بعيدة المرام، هي انبعاثنا برؤيتنا الحضارية وبثقافتنا الذاتية"[٢].

وبعدما أثارني ذلك، حاولت الوقوف عند هذا الموضوع بشكل أقرب، حينها قدّرت مدى حاجة الأمة إلى انبعاث جديد بعد فشل كثير من المحاولات. ومن خلال التعويل على صناعة جيل مثالي، تَوضَّح لي أن هذا منهج جديد يروم جعل هذا الجيل رافعة لانبعاث حضاري عالمي. وقد أسفرت هذه الوقفة العجلى عن البوح بأسراره من خلال هذه المحاور:

نسمات nesemat.com

حركة الخدمة ظاهرة يجب الوقوف عندها وتأملها بشكل جدّي، لنفهم كيف قررت فئة قليلة ملَك الحبُّ قلبَها، أن تنطلق لنيل رضى الله إلى أرجاء الأرض، ملؤها العزم والثقة في انبعاث جديد.

١- فشل المشاريع العالمية.
٢- الحاجة إلى مشروع جديد.
٣- صناعة جيل المشروع الجديد.
٤- مصنع جيل المشروع؛ التعليم.
٥- صفات الجيل المشروع.
٦- صناعة الأجيال رافعة الانبعاث الحضاري.

١- فشل المشاريع العالمية

بعدما فشلت كل الأيديولوجيات في جمع الأمم تحت سقف واحد، فقدَ الناس الثقة في كل المشاريع العالمية، فعمت الشكوك كل الأنظمة المعروضة عليهم. واليوم فإن الشعوب في تشرذم وخيبة أمل غير مسبوقة، حتى بات البحث عن مخرج للأزمة مطلبًا ملحًّا، وأصبح الحديث ساريًا عن أهداف سامية تجنب الناس الخيبة التي عاشوها أملاً في تجاوز الهفوات وطمعًا في واقع حضاري جديد. هذا ما خلص إليه الأستاذ كولن حين قال: "لم نعرف حتى اليوم أيديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنًا طويلاً، بل لم نعرف أيديولوجية اكتشفت كل الضرورات اللازمة التي يتطلبها جمع البشر تحت سقف واحد. ومع الادعاءات الباهرة، لم تستطع الدول الغربية التي هيمنت على قسم واسع من الأرض في التاريخ القريب أن تحقق الأمان والحبور الدائم للعالم، ولا الشعوب الاشتراكية والشيوعية في الشرق، ولا "المحايدون" الذين سواء وجودهم وعدم وجودهم"[٣].

من أجل ذلك يرى الأستاذ "فتح الله" ضرورة توجه المسلمين نحو أنفسهم والبحث في ذواتهم عن حل للمأزق الإنساني الحاضر، ويرى أن التعويل على أسلوب ذاتي هو المخرج من التخبط الذي نعيش فيه، وذلك اعتمادًا على إحياء إمكاناتنا المعطلة من إيمان وعقل وهمم أصيلة، مع بقائنا مسلحين بإرادة عالية وصبر كبير وأمل عريض.

٢- الحاجة إلى مشروع جديد

قد تكون لعنة الفشل المتكرر الذي صاحبنا في محاولات عديدة، سببًا في دفعنا دفعًا إلى البحث عن مشاريع منقِذة نحو الشرق حينًا واتجاه الغرب أحيانًا. لكن وفي غفلة منا عن التاريخ وحقائقه، والكون وسننه، لم ننتبه بأن لنا سابقة في هذا المضمار كنا فيها أبطالاً. وسجل التاريخ أن أسلافنا استطاعوا فهم سنن الكون والعمل بها، حتى أصبحوا للعالم سادة ولأهله في زمنهم معلّمين وقادة. نعم، لقد أُنسينا أننا قادرون على النهوض من جديد وبالاعتماد على قدراتنا الذاتية.

وأنا أتأمل الكلام الدقيق لهذا الرجل والفكر العميق، لن أتردد في دعوة كل قارئ إلى إطالة التأمل في هذا القول: "لنضعْ جانبًا بلبلة التكوينات الجديدة في العالم، نحن لا نصدّق بولادة شيء جديد من الهندام الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراتها الاشتراكية، أو هجينها الديمقراطية الاجتماعية، أو خِرَق الليبرالية البالية، الحقيقة هي أنه إن كان ثَمّ عالَمٌ مشرّعُ الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالمنا نحن، وقد يتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن"[٤].

لقد تسبب ضياع إرث الأمة المجيد في اعتداءات شنيعة على حقوق الأمة ومكتسباتها، وقد نتج عن ضياع ذلك الإرث تثاقل وخمول غير مسبوق في تاريخ أمتنا. نتج عن كل ذلك طمع القاصي والداني فينا، حتى غطت جراحنا كل شاشتهم وعم دمارُنا جُلَّ موائد مشاوراتهم. والحال أننا -وكما كنا- نملك كل أسباب النهوض، بل القوة والريادة حالاً واستقبالاً، وهذا ما عبر عنه الأستاذ بعباراته المشفرة والتي تضمر في طياتها أكثر مما تبدي، وذلك من خلال كلامه: "تعرض الإسلام منذ حرماننا من إرث الأرض، إلى معاملة يتفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم... ويبدو واضحًا أن إزالة واقعة الانحراف هذه، المزمنة والمستقرة، لن يتحقق بافتتاح بضع مدارس، أو عقد بضع مؤتمرات وندوات. إن إزالة هذا الانحراف الهرِم، بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وإلى جهد متواصل وهمّة أصيلة... لا مناص من بعث حضاري والاقتراب من فهم الوجود بنظر إسلامي، وتقييم الأشياء كلها بالمنطق نفسه. ويلزم لذلك أولاً: الاستشعار فالتعقّل بالكائنات والإنسان والحياة بمعلومات، كأنها نغم مسبوك. ثانيًا: أن يحمل الإنسان العقل والفكر إلى تفهم المناسبات بكلية وجمعية بمعانٍ ومحتويات وحكم لا تحصى، ككتاب لمنظومة حِكم غير متناهية"[٥].

الأستاذ فتح الله يرى أن المسلمين إن وفقوا في بعث هذا الواقع من جديد فسوف تجتمع كل الجماهير الغاضبة من حولهم. لذا وجب علينا تحديد تلك الأهداف السامية، وتكون قيمنا الذاتية أساسًا ومحورًا لصياغة مشاريع تستوعب تلك الأهداف[٦].

ومن عجيب منهج هذا الرجل أنه بقدر ما يحمل في جنباته من هموم لا تطاق، تجده يحمل أملاً عارمًا وتفاؤلاً غير محدود تجاه المستقبل؛ "إن عالمنا هذا ما

زال قادرًا على تحقيق تكوين في الحاضر من جديد؛ لكن عليه أن يستعمل بشكل صحيح وسليم مرة أخرى المحركات التاريخية التي تُعدّ دمَ هذا الماضي العظيم العريق ولحمَه، استعمالاً صحيحًا"[٧].

إنك تراه في الظاهر مسرعًا نحو هدفه المنشود، لكن بيقين راسخ في إمكانات الأمة ومحركاتها الذاتية، بل وبعزة على باقي الأنظمة التي سُوقت لنا داخليًّا أو هي في الطريق، لا لشيء سوى أنها أثبتت فشلها غير ما مرة، فضلاً عن تعارضها مع منطلقاتنا وأهدافنا السامية، وذلك حين قال: "فنحن لسنا بحاجة إلى حسنات ونُظُم فكرية تُستجدَى من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا الماسة هي إلى أطباء روح وفكر يحفّزون في كافة أبناء أمتنا حس المسؤولية وشعور الهمّ المقدس... أطباء روح وفكر يُمَكّنون أرواحنا من الانفتاح إلى أعماق الماوراء وآفاق الغيوب بدلاً عن وعود السعادة المؤقتة الزائلة، ويرفعوننا بخطوة واحدة إلى مراتب نرى فيها المبدأ والمنتهى معًا"[٨].

في ظل هذه الظرفية المريرة الحبلى بالمفاجِئات، واستحضارًا لكل الفرص والإكراهات، وتعويلاً على أصالة الأمة وما تحمله في ذاتها من إمكانات، لم يتردد فتح الله كولن في الانخراط بمشروعه من أجل بعث حضاري جديد، رافعته جيل مثالي فريد. ودفعًا لكل شبهة، وردًّا لكل تأويل فاسد، أكد الأستاذ "نوزاد صواش" أن تجربة فتح الله كولن: "ليست بديلاً عن أحد وليست بديلاً لأحد، إنما تستفيد من الخبرة أينما كانت وتحاول أن تفيد الجميع وتتقاسم خبرتها مع الجميع". وذلك في لمحة منه إلى بعض الجهات التي تحاول شيطنة هذا المشروع النموذجي، أو تشويه صورته الحضارية الرائعة.

نحن لسنا بحاجة إلى حسنات ونُظُم فكرية تُستجدَى من الخارج أو الداخل، بل نحن بحاجة إلى أطباء روح وفكر يحفّزون في كافة أبناء أمتنا حس المسؤولية وشعور الهمّ المقدس.

nesemat.com نسمات nesemat.com

٣- صناعة جيل المشروع الجديد

• **الفلسفة أولاً:** من أجل انبعاث صحيح، يرى الأستاذ "فتح الله" ضرورة صناعة جيل مثالي وتخريج نماذج فريدة تكون أساس المشروع ورافعة لهذا الانبعاث الحضاري قادرة على إنشاء أمة، والعمل على زرع فسائل المشروع الجديد في كل أرجائها من أجل المستقبل. هذا الجيل سيحج أفواجًا إلى أوطان جديدة رغم كل العوائق، من أجل معارك التغيير، سلاحهم العلم والعرفان والعشق لهدفهم السامي؛ "قد يبدو لأول وهلة أن النظام أثر من آثار الإرادة البديهة والعقل المجرد، لكن عقلاً لم يَدْخُل في طاعة الروح، ولم يجتث جذورَ الالتفات إلى الشر، ولم يُعْلِ ميول الخير فيه إلى عنان السماء، كثيرًا ما ينحرف إلى الفوضى... ولا بد أن تكون التربية التي تسمو به من درجة إنسان "بالقوة" إلى إنسان "بالفعل"، ذات أفقٍ رباني ومحورٍ وهبي... وينبغي أن يتحقق العقد الاجتماعي في أرفع درجة حسب ظروف العصر... تعاقد الوجدان المتيقظ إزاء القيم الإنسانية على عقد مرتبط ومحدّد باحترام مفاهيم الحق والحرية وحب الحقيقة"[٩].

هكذا تفنن فتح الله كولن في تحديد فلسفة مشروعه الحضاري الكبير، عبر جعل الإنسان -وكما جعل الله تعالى- محور كل نهضة وتحضر، إنسان يغرق عقله في عالم الملك بقدر ما ترفرف روحه في عالم الملكوت، ويستمر في التقلب بين عوالم لا تنتهي، روحها

عشق التقرب إلى حضرة مالك الملك والملكوت. بذلك فقط يعمل على صياغة عقد اجتماعي يتجاوز ما غرق فيه "جون جاك روسو" ويتعالى به عن مدينة أفلاطون.

• **من الفلسفة إلى التنزيل:** لقد ذكرتني كلمات الأستاذ كولن بنص للدكتور عبد المجيد النجار كنت أشرحه لطلبة الماجستير بجامعتنا يقول فيه: "وأحسب أن فقه التدين، بما هو منتج لتنزيل الدين على الواقع، ينبغي أن يتأسس على محاور ثلاثة رئيسة، هي الفهم، والصياغة، والإنجاز. أما الفهم، فهو فهم الدين باعتباره تعاليم هادية إلى الحق، وفهم الواقع الإسلامي الذي يراد إصلاحه... وأما الصياغة، فعلى إعداد التعاليم الدينية في هديها المطلق لنُكوِّن مشروعًا مقدرًا على قدر الواقع الزمني الذي يراد إصلاحه... وأما الإنجاز، فهو التنزيل الفعلي للمشروع الذي وقعت صياغته من حيث الكيفية التي يكون عليها ذلك التنزيل، والوسائل التي يتم بها، والمسالك التي ينبغي أن يَلِجها، والآداب التي تضمن حسن الأداء، وتفضي بالتالي إلى أن يؤتي المشروع أُكله في اندراج السلوك الفردي والاجتماعي في الهدي الديني"[١٠].

نعم، هكذا يرى علماء الأمة فلسفة البناء وفقه التنزيل، إلا أنهم وإن اشتركوا في فلسفة البناء، كان حضور الأستاذ كولن عبر فقه التنزيل شامخًا، بل إن الفلسفة في مشروع هذا الرجل تزوجت بالتنزيل في غفلة من الناس، حيث العديد منهم يجهل هذه الحقيقة في مشروع الأستاذ كولن. فتأمل هذا القول: "ولذلك، نؤمن -في هذا الوقت الذي نرجو فيه أن نكون أمة عظيمة-بضرورة منهج ومشروع بعقلية محترفة ومتخصصة، بل قبل ذلك بضرورة إعداد أجيال مثالية تحلم وتستهدف لإنشاء أمة عظيمة. إنَّ تحقيق هذا الفكر بدرجة معينة، وإنْ كان في دائرة صغيرة، وظهورَ نماذجه في آلاف الأبطال الذين تركوا دُورهم وأوطانهم مهاجرين كأمواج البحر إلى أرجاء الأرض المختلفة... هي أمثلة شاخصة ومهمة، تُرينا ما يمكن أن تفعله الأجيال التي تعلق قلبها بفكر سامٍ إلى حد العشق"[١١].

نعم إنه الفقه الدقيق لمتطلبات المرحلة، فقه يستحضر اكتساح عالم الاقتصاد وتمكنه من القلوب قبل العقول، وتمرد العلوم وتغولها، وحضور شبح الفنون حتى سكنت كل الفضاءات. فبدا له هوس الناس بها، وشدة حاجتهم إليها، إلا أنه لا لجام قادر على ضبطها غير لجام الدين والخُلُق، حينها وضع يده على مكمن الداء. فالناس اليوم بين عبيد للمادة وأسرى للروح، وكلاهما منهجان متطرفان أثبت التاريخ -كما الجغرافيا- عجزهما عن إرجاع حق الأمة المغصوب فضلاً عن تحقيق الانبعاث المطلوب. وذلك حين قال: "لقد آن الأوان، بل يكاد يفوت، لكي نتحمل مسؤولياتنا إزاء مؤسساتنا في كل مجال مثل الدين والعلم والفن، والأخلاق والاقتصاد والأسرة، ونسمو بها إلى مواقعها الحقيقية في مسيرة التاريخ، ونحن -كأمة- ننتظر ونترقب طريق أبطال العزيمة والإرادة والجهد، الذين يحملون هذه المسؤولية"[١٢].

٤- مصنع جيل المشروع؛ التعليم

إن تمكن الأستاذ فتح الله كولن من علوم الشريعة وسعة اطلاعه على ثقافة العصر، مكَّناه من السباحة في بحر الفلسفات القديمة والحديثة، والإحاطة بعميق أمواجها التي كانت تقدم على شكل مشاريع مُغرية للبشرية عبر العصور. فلم يجد خيرًا من موجة التعليم مركبًا لتجاوز كل تلك الأمواج، ثم إن الريح

العاتية التي عصفت بحضارة الأمة، لم تجد أمامها ركائز متينة تصدها، ولا جبالاً عاتية تصمد في وجهها، ثم إن العلم والتعلم بَصَم حياة الإنسان منذ وجوده على هذه البسيطة، حيث علّم الله تعالى سيدنا آدم الأسماء كلها، وبعد ردح من الزمن كان من أوائل ما أنزله على سيدنا محمد ﷺ سورة "اقرأ"، وهي دعوة مباركة إلى التعلّم والتعليم. وبعد خاتم المرسلين ورث سره في مهمة العلم والتعليم، العلماء المبجلون، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة:٢). لقد اختار الأستاذ كولن لصناعة جيل الرسالة الحضارية مصنعًا مباركًا وضع أسسه المتينة نبيّنا الكريم ﷺ، هذه الأسس حيرت المصلحين قديمًا وحديثًا؛ فقد كانوا جميعًا من خطابها، إلا أنها تمنعت عن الكثيرين منهم إلا من رحم الله. هذه الأسس الذهبية هي التي بنيت عليها حضارة الجيل المحمدي الأول؛ إنها وكما بيّنها لنا ربنا ﷻ: التلاوة والتزكية والتعليم. إنه سر من الأسرار التي تلمسها الأستاذ كولن بمنهجه الدقيق وإيمانه العميق، والذي تفطن إليه وأخلص القصد في تحقيقه، فقدمه على طبق من ذهب إلى جيل جديد؛ بغية حمل المشعل مرة أخرى لقيادة انبعاث حضاري أصيل. نعم، بالتلاوة والتزكية والتعليم استطاع الأستاذ رتق ما انفتق في عالمنا المعاصر، فاحتضن العوالم بقلبه قبل كلماته التي سحرت الآلاف، بل الملايين من شباب هذا الجيل المتعطش لانبعاث حضاري جديد. إنه سحر التلاوة، وعبق التزكية وعبقرية التعليم. إنها نفحة المدرسة المحمدية: "لقد تكرر الكلام كثيرًا عن دعاوى البناء من جديد في عهود وأزمان متعددة

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية.

وبقاع متنوعة من الأرض وبعناوين مختلفة، ولكن يبقى صدق هذه الدعاوى قابلاً للأخذ والرد، ومفتوحًا للنقاش في كل وقت. إلا أن هنالك عالَمًا يوفي عملية البناء حقها... بتناول واحتضان الوجود وما وراء ستار الوجود، والإنسان والحياة جميعًا... عالَمًا حرًّا وطليقًا من كل القيود المذكورة آنفًا. ولا ريب أن هذا العالم، وباعتبار الأمد الطويل خاصة، هو عالمنا ودنيانا نحن"[١٣].

هكذا جعل الأستاذ فتح الله من مشروع التعليم هدفًا "مقدسًا" لانبعاث حضاري جديد، يجنب البشرية خيبة كل المشاريع، ويصنع عبره الجيل الجديد. فكان هذا المشروع فسيلة غرسها في عقول وقلوب كوكبة من الذين عانقتهم الأقدار ليصبحوا رسلاً ومعلمين جددًا، لتخريج أجيال رافعة لراية الانبعاث الحضاري الجديد. انبعاث بدت ملامحه عيانًا للجميع، تنادي الجميع هيا بنا إلى عالم جديد ملؤه التعاون والمحبة والسلام. وكأني بالأستاذ كولن وهو يتحدث عن المستقبل، يكتب تقريرًا للواقع الذي صنعه، وكله ثقة فيما يقول، وكله أمل فيما وعد به الله عباده الصالحين، فتأمل هذا الكلام: "إنني على يقين بأنه بعد أن تم تجاوز العراقيل الموجودة بين القارات بفضل القرآن وتحقق حوار مستند إلى الحب وإلى التوقير، تأسست وستتأسس أرضية لتفاهم جديد بفضل هؤلاء الربانيين. لقد عرفت الإنسانية في الماضي أمتنا بأنها أمة مستبشِرة

قد ضحك لها حظها، فما المانع أن تكون اليوم أيضًا كما كان الحال من قبل؟ بينما نرى أن شلالاً من الحب بدأ يهدر فعلاً بين الناس في كل مكان وصل إليه هؤلاء المهاجرون في سبيل غايتهم. ففي كل مكان، وفي كل موضع يهب نسيم من الطمأنينة والسكينة يشعر به الجميع. والأكثر من هذا، فقد تكونت في كل ناحية وجانب ما نطلق عليه وصف "جزر السلام والمحبة" على أسس مستقرة ومتينة"[١٤].

نعم وبلغة الأستاذ كولن "من البذرة إلى الثمرة"، من التلاوة والتزكية والتعليم إلى جُزر قريبة وبعيدة، لا يعرف طريقها إلا المخلصون في نياتهم، والصادقون في أعمالهم، والقاصدون في سبلهم. ذلكم أن أبوابها وإن كانت مشرعة أمام كل وافد، إلا أن لها "شفرة" خاصة بها مكونة من أرقام ذهبية:

الرقم الأول للشفرة السحرية "الأكاديمية"[١٥]:

في زيارة علمية لأكاديمية الدراسات والبحوث جلسنا إلى ثلة من خريجي مدارس الخدمة، ضمنهم الأستاذ اللبيب نوزاد صواش والأستاذ الرباني جمال ترك، حينها تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك، من واحد من أرقام الشفرة السحرية في سر صناعة جيل الانبعاث، وذلك عن طريق الشحن الأكاديمي المتواصل. وفي المناسبة نفسها حضرت أول جلسة علمية روحية بامتياز، استمعت فيها إلى جانب من فلسفة مدارس "الخدمة" ومنهج الأستاذ كولن الفريد في صناعة التلاميذ والطلبة، وإيقاظ هممهم وشحذ عزائمهم... حينها فقط علمت جانبًا ونوعًا من أهم معادن صناعة الرجال في مشروع مدارس الأستاذ كولن، خاصة حينما كشف لنا بعضُ أعمدة هذا الصرح عن أمهات المصادر والكتب التي ينهلون من ينابيعها، ويغترفون من عذب فراتها علمًا زكيًّا بدأت أنواره تسطع في كل فج عميق. كل ذلك من خلال المنهج الحقاني للرجل الرباني فتح الله كولن، الذي جمع بين مصادر تنوير العقول وتزكية القلوب من جهة، ومصادر العلوم اللغوية والعصرية من جهة أخرى... الشيء الذي تفرد به عن كثير من علماء العصر وفقهائه، بل تجاوزهم في المساهمة المباشرة في تحقيق التنمية الشاملة، وخاصة رتق الفتق الذي وقع بين الأفكار والأخلاق. وقد ضمت هذه المصادر من التفاسير أهمها، ومن الفقه أجوده، ومن الحديث أعذبه، ومن التصوف أرقه. وحين علقنا على بعض المؤلفات المقررة، وما يوجه لها من انتقادات، أجابنا محدثُنا: "ما نقرأه لا يزيدنا إلا شوقًا في طلبه، لأن أستاذنا كولن وضح لنا كيف نتخذ من قواعد أصول الدين ميزانًا ومصفاة لكل ما نقرأه ونتعلمه". وقال الأستاذ جمال: "كان أستاذنا يقول لنا: "على من يدخل هذا الباب -الأكاديمية- أن يغلق كل الأبواب إلا باب العلم"، وكان يأمرنا بقراءة ورد من الكتب لا يقل عن ٢٠٠ صفحة يوميًّا مع تقديم ملخص لكل مقروء لا يتجاوز عشرة بالمائة".

وأضاف الأستاذ جمال: "ومما يشدنا إليه أنه كان يربط دروسه دومًا باليومي من حياة الناس، وحين يتحدث ترى التاريخ والتراث ينبعث من فمه كأنه جديد، وهو حين ينتقد لا يسمي أحدًا، وكان يقول: "نحن محتاجون لكل الناس". ورغم حالة الأستاذ الصحية، إلا أنه وإضافة إلى ما يعانيه من أمراض السكر والدم وغيرها، كان وعاء لكل هموم الأمة والناس... فكان يحدثنا عن هموم التاريخ وتألمه من ضياع الحكمة وسيادة القوة في عالم اليوم... يجول بنا وكله أماني يقول دائمًا: لو أني فعلت كذا... لو فعلنا كذا... ومن أغلى

وصاياه لنا ذات مرة، وهو في فراشه مريض، ونحن متحلقون حوله: "لو كان لي عليكم حق لأوصيتكم ألا تتركوا التعليم ولو طالبًا واحدًا، فهذه أمانتي عندكم". يقول الأستاذ جمال: "وما علمناه إلى اليوم ضيَّع حصة من دروسه أو غاب عنها إلا بعذر قاهر، وغالبًا ما يكون المرض الذي يقعده في الفراش". ثم يضيف الأستاذ جمال: "فهل استفدنا شيئًا؟ لست أدري!" فأقول له وإن كنتُ غير مؤهل لنصح وتوجيه هؤلاء الرجال: نعم ورب الكعبة؛ لقد استفدتم وأفدتم، وكنتم أجود ثمرة لأطيب شجرة تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.

الرقم الثاني للشفرة السحرية "جمعية مَبأَد"[١٦]:

في لقاء عشاء مع مجموعة من أعضاء هذه الجمعية "جمعية مبأد" قال أحد أصنافها[١٧] متحدثًا عن مشروع الأستاذ فتح الله كولن: "حين اجتمعنا حول الأستاذ كولن أول مرة، بدأت الأعباء تزداد سنة بعد أخرى، ولكن حين يحدثنا عن المدارس وعن التلاميذ والطلبة ونرى ثمار ذلك، كنا نزداد حماسًا ونقول: هذا الأمر لا ينبغي أن نتركه، بل سنواصل. ثم يضيف: أحيانًا أسأل إخواني: لو أن أحدًا جاءكم بمشروع فيه نجاة كل أمة محمد، بماذا ستسهمون؟ يقولون: نساهم بنصف أموالنا".

هذه طلائع جيل الانبعاث الحضاري. وكأني بهذا الجيل الفريد جزء من قوم الأنصار حين تقاسموا مع إخوانهم المهاجرين كل ما يملكون. ثم يقول الرجل مضيفًا: "فهذا الجيل الذي ينشأ بفضل هذه الخدمات، يكبر يومًا بعد يوم كما يكبر الطفل في بطن أمه. إن تجربتنا قد أكدت لنا أن قضيتنا قضية ثقة، وهذه الأمة إذا رأت رجالاً من صنف "الأستاذ كولن" ستعطيهم كل ثقتها. لو لم نتعرف على الأستاذ كولن لالتجأنا إلى العنف والقوة لحل مشاكلنا، لكن الأستاذ علّمنا

استطاع كولن ترويض تلاميذه بالتحلية والتخلية، إذ تجد الواحد منهم لينًا هينًا ينحني لكل ريح في ابتسامة، ولكن تجدهم في مواقف الجد كالجبال، كلهم إصرار على النجاح أينما حلوا وارتحلوا.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الحلم والرفق، وكان دائمًا ينصحنا بقوله: "ألا يمكن أن نذيب هذه الصخور من المشاكل والشحناء بالإحسان والسخاء؟"، ثم يضيف هذا الرجل: "وآخر شيء سمعته من الأستاذ قوله: "لا ينبغي أن ننتظر الناس حتى يأتوا إلينا، ولكن يجب الذهاب إلى أبوابهم"[١٨].

"إن الذي كان يدفعنا للإنفاق في الحقيقة، هو حال الأستاذ وسلوكه. فلو كان يملك شيئًا من أمور الدنيا، أو كان يفعل غير الذي يقول لنا، لما أنفقنا شيئًا من أموالنا. واليوم فنحن نبني وننفق وننسى، ونتسابق على ذلك، لأن الله يعوض لنا ما ننفقه كما شرح لنا الأستاذ. ونحن قد لاحظنا ذلك مرارًا؛ نحن ننفق والله يخلف لنا ما أنفقنا"... فأي كلام هذا الذي نسمع؟ وأي ثقة في الله من خلال هذه الشهادات؟ بل أي جيل هذا الذي صنعه الأستاذ كولن؟ فلله درُّه.

رقم الشفرة الثالث "جنود الخفاء المبجلون":

المثير والمفرح في نفس الآن ليس تكوين وصناعة هذا الجيل الجديد، بل العظيم هو أن يستمر خريجو هذه المدارس وفي شتى المجالات، حرّاسًا للمشروع؛ يعملون ليل نهار مثل خلايا نحل لا يهدأ لها بال... وتتنوع عطاءاتهم كتنوع الرحيق الذي يمتصونه من توجيهات أستاذهم المتدفقة، ثم تنساب لتذوب في القلوب كانسياب أفكار وكلمات الأستاذ كولن في صمت طويل مجلجل. يقول الأستاذ مصطفى أوزجان[١٩]: "إن التربية والتعليم "لغة عالمية" يستطيع

أن يعبِّر الإنسان من خلالهما عن مبادئ سامية، وقد قدم المجتمع التركي خلال العقدين الأخيرين نموذجًا مثاليًّا في التعامل المشترك بين الدولة والشعب، وقدم نموذجًا تربويًّا يركز على القيم الإنسانية إلى جوار التعليم بأحدث الأساليب العصرية".

نعم، هكذا فهم الكبار قيمة التربية والتعليم، ولكن هل استطاع الذين غررت بهم الدنيا فهم ذلك؟ وإن فهموا فإلى أي حد هم قادرون على استيعابها وتنميتها والحفاظ عليها؟ لست أدري.

ويقول الأستاذ نوزاد صواش المدير العام لمجلة حراء وواحد من أروع ثمار هذه المدارس الذين تعرفت عليهم: "هذه المدارس سماها الأستاذ فتح الله "جزر السلام"، فما هي طموحات الأستاذ من خلال هذه المدارس؟ كيف يقرأها المسلمون؟ وما هي إضافاتها؟ إنها تجربة أطلقها المسلمون وهي ملكهم اليوم".

إنه الشموخ التربوي الذي رضعه هؤلاء من ثدي أفكار أستاذهم، شموخ الواثق من سيره في مسيره نحو أهدافه السامية التي ربط فيها مصيره بمصير كل إخوانه في الإنسانية فضلاً عن بني أمته.

وفي لقاء حضَرتُه في يوليو ٢٠١١ مع بعض الخيّرين من الأساتذة، خريجي هذه المدارس قال الأستاذ نوزاد: "بعد ما أسسنا مجلة "سيزنتي" أُسِّس وقف المُدرسين الذي قام بعدها بإنتاج أشرطة للتوعية، ثم إنتاج المقررات الدراسية لكل المستويات التعليمية، والآن نفكر في إنتاج الكتب الرقمية. جمهورنا الأول طلابنا وتلامذتنا وغيرهم من المحبين بباقي المدارس. ولدينا أزيد من عشرين دارًا للنشر؛ نشرنا في كل المجالات واللغات وفرحنا بتجاوزنا ٤٦ لغة، لكن الأستاذ قال لنا: هذا غير كاف، ونصحنا بأن نتجاوز المائة. ثم أسسنا دورًا للنشر في عدد كبير من الدول".

وحول الاجتهاد في تأسيس المدارس قال الأستاذ نوزاد: "لقد سمعنا أستاذنا يحث الناس على بناء المدارس، فلما وجد الناسَ حريصين على بناء المساجد كان يقول لهم: "ابنوا المساجد من خلال بناء المدارس، فإن أنتم أفلحتم في بناء المدارس، فسيعمل خريجوها على بناء المساجد". ولطالما عانى الأستاذ -يضيف نوزاد- من انتقاد عدد من الناس بسبب هذا الرأي، لكن منتقديه بالأمس هم الذين يعملون اليوم على تنفيذ ما كانوا يرفضونه وهم يتحسرون".

الرقم الرابع للشفرة السحرية "عقود المرجان":

لقد تساءل كثير من المتتبعين والمهتمين عن سر سحر حركة الخدمة، وهذا أمر فعلاً يستحق التساؤل، إلا أن الجواب عندي ليس في المتناول، بل قد سألت عنه عددًا من أبناء الخدمة أنفسهم، فاستغربت حين وجدتهم عاجزين بل غير مهتمين لمعرفة ذلك، إلا تسليمهم بأن يد القدر لها في كل شؤون الناس قدر. لكني أزعم أن المنهج الدقيق الذي سلكه الأستاذ "كولن" الذي طالما وصفه من يعرفونه بفارس النهار وراهب الليل، لا شك في أن لذلك المنهج أثرًا بالغًا فيما وصلت إليه حركة الخدمة من نتائج. فالرجل لا يتوقف عن الحفر ليل نهار لتحقيق كل ما يدور بخاطره من أسباب استعادة الإرث الحضاري للأمة... ولعله وجد ضالته في سَحَر الليل الذي لا تنتهي محاوراته ومشاوراته حول عوالمه معللاً صنيعه أنه الركيزة الأولى لكل نجاح. كما أنه لا يفتأ يقارع الأفكار والفلسفات والقيم لينحت سبيلاً جديدًا في نهاره، يسابق فيه أهل الدنيا، متأسيًا فيه بنوابغ الجيل المحمدي وعلى رأسهم محمد ﷺ.

لقد حضرت بمدينة إسطنبول لقاء سمعت فيه من وصايا الأستاذ "فتح الله كولن" ما جعلني هائمًا في فكر هذا الرجل العظيم؛ كان ذلك حين أجابني أحد تلاميذ الأستاذ حين سألته عن دور الأستاذ في تحركاتهم خارج تركيا فقال: "نحن نؤمن بدعاء وبركة هذا الرجل؛ هو دائمًا يقول لنا: لا تتعجلوا... ويضع أمامنا مشروع مائة عام. الأستاذ وحده يأتي بعشرات المشاريع وهو لا يُشبعه شيء، ونحن دائمًا نلهث وراءه"، ثم يتابع: "أما نصائحه لنا فغزيرة غزيرة أذكر منها:

"قراءة الحياة قراءة صحيحة أهم خطوات النجاح"، "قبل الحديث عن شيء اقرؤوه أولاً وافهموه جيدًا"، "إذا أردتم أن تُعَرِّفوا أحدًا قيمتكم لا تنتقدوه بشدة"، "تعاملوا مع الناس كعاشقين لا كمبشرين"، "إن وجدتُ فردًا آمن الناس لسلوكه فسأقبّل قدميه"، "المؤمن لا يفرح بما صنع، بل يتحسر على ما لم يصنع"، "حينما تقولون لا إله إلا الله، لا بد أن تراعوا من يسمعها، وتختاروا الزمان والمكان المناسب"، "يجب عليكم أن تستسيغوا أنكم لا تُستساغوا"، "حين تفسرون حركة في إطار العلوم الاجتماعية لا تنسوا معية الله".

٥- صفات جيل المشروع

إننا حين نتحدث عن صناعة الأجيال، فإنا نقصد الحديث عن رؤية، بل فلسفة جديدة قديمة لبناء الأجيال؛ جديدة من حيث وسائل ومناهج هذه الصناعة، وقديمة من حيث انبجاسها من المنبع المحمدي الأصيل. إننا حين نهيم في ذكر الانبعاث الحضاري، فذاك يعني فلسفة واضحة المعالم لرافعات هذه الحضارة في هذا البناء الشامخ، هذه الرافعات والدعامات والركائز هي التي أفنى الأستاذ

بالتلاوة والتزكية والتعليم استطاع الأستاذ كولن رتق ما انفتق في عالمنا المعاصر، فاحتضن العوالم بقلبه قبل كلماته التي سحرت الآلاف بل الملايين من الشباب المتعطش لانبعاث حضاري جديد.

nesemat.com نسمات nesemat.com

فتح الله زهرة حياته لإعدادها، لتكون نموذجًا ومثالاً حيًّا في عالم اليوم... إنهم الرجال؛ رجالٌ لا تلهيهم أموال ولا أولاد عن واجبهم الإحيائي المقدس. رجال يتعبون ليستريح الناس، ويموتون يوميًّا كمدًا في كثير من أرجاء العالم ليحيا الناس. هذه الصناعة "فوق الثقيلة" هي الرافعات الصلبة للانبعاث الحضاري الحقيقي. هذا الجيل المصنوع في مدرسة الأستاذ فتح الله كولن، له صفات ومواصفات عديدة، أُجْملها في هذه الكلمات الباهتة العاجزة في التعبير عن الحقيقة القائمة، إلا أن عذري فيها أنها صادقة في تقريب ذلك، وهي صفات نقشها الأستاذ كولن نفسه.

إذا كان الأستاذ كولن -وهو من هو- قد وصف هذا الجيل بهذه الصفات، فماذا يقول فيهم البسطاء مثلي؟ إلا أني وللشهادة سأذكر بعضًا من هذه الصفات، ومن أراد المزيد فعليه بتفصيلات الأستاذ في مظانها التي سأحيل عليها. ومن هذه الصفات التي دبجها الأستاذ كرامةً لهؤلاء وعرفانًا بما قدموه ولا زالوا يقدمونه من تضحيات غالية، ومن نكران للذات، ومن صبر طويل، ومن معاناة يومية لا تنتهي، عرفانًا بكل ذلك، تفنن الأستاذ في تسطير هذه الصفات لتبقى في التاريخ شاهدة على هذا الجيل الذهبي.

أ- جيل الإحياء: ومما قال فيهم: "وأنبّه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيَون والذين يُحيُون. وقد كررنا مرارًا وتكرارًا أن الذين

يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، وهم الذين نودع أرواحنا وديعة مأمونة عندهم... أولئك الذين لا يطلبون من الجماهير أن تتبعهم، ولكن وجودهم نداء جهوري وأيّ نداء! فأينما كانوا تهرع الجماهير إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب... وقد تستقبل الموت بسعادة وراء ريادتهم"[٢٠].

ب- أطبّاء الروح والمعنى: ومما قال عنهم: "إن سبيل الخلاص من الاضمحلال والهدر في شِباك كل هذه السلبيات، هو إعلان النفير العام لإعداد أطبَّاء الروح والمعنى، الذين يملؤون كل الفراغات في كياننا، ويزيلون نقاط الضعف في نفوسنا، وينقذوننا من عبودية الجسم والبدن ويقودوننا إلى مستوى الحياة القلبية والروحية... أطبّاء تتسع قلوبهم لكل ساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات.... هذا الفريق يسع صدره لكل الناس؛ من الطفل الملتزم والمؤدب في المدارس، إلى أبناء الوطن السائبين وغير المنضبطين في الأزقة والشوارع... هذا الفريق يؤنس وحشية الصحف والمجلات والراديو والتلفزيون ووسائل الإعلام القوية، ليجعلها صوتًا ونَفَسًا للدين والملَّة من وجهة، ويرشد بها من وجهة أخرى الأحاسيس السوداء والأفكار القاتمة والأصوات المدلهمة للوصول إلى سبيل المستوى الإنساني... هذا الفريق ينقذ مؤسسات التربية والتعليم التي تغير شكلها ووجهتها كل يوم حسب الأجواء تحت وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداخلية"[٢١].

جـ- ورثة الأرض: حدَّد الأستاذ كولن ستة أوصاف لـ "ورثة الأرض" وهي: "الإيمان الكامل، ثم العشق الذي يُعد أهم إكسير للحياة في الانبعاث من جديد، ثم الإقبال على العلم بميزان ثلاثية العقل والمنطق والشعور، ثم إعادة النظر في قراءة الكون والإنسان والحياة، ثم حرية التفكير وتوقير هذه الحرية، ثم علينا الإفساح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسيرتنا نحو عوالم مختلفة، أما الوصف السابع للوارث فهو الفكر الرياضي؛ فالأوائل حققوا نهضتهم بفكر القوانين الرياضية، وكشفت الإنسانية في تاريخها كثيرًا من المجاهيل، ولولا الرياضيات لَمَا توضحت المناسبات بين البشر ولا بين الأشياء. أما الوصف الأخير فهو البعد الفني"[٢٢].

د- مهندسو الروح وأجيال الأمل: وقد عرفهم بقوله: "إن أجيال الأمل باعتبار الزمن الحاضر هم ممثلو العلم والإيمان والأخلاق والفن، وهم مهندسو الروح لمن يأتون بعدنا. وسيشكِّل هؤلاء تكوينات جديدة في كل شريحة اجتماعية بتفريغ حرارة الإلهام لقلوبهم المتغذية بالأخرويات إلى الصدور المحتاجة إليها. وإن ضياع حظ كثير من الأجيال في تاريخنا القريب، وهدرهم، بل سقوطهم في الجنون والهذيان، كان بدرجة كبيرة لعدم التقائهم بمثل هذا الجيل الأمل"[٢٣].

٦- صناعة الأجيال رافعة الانبعاث الحضاري

هكذا أثمرت فسيلة المشروع التعليمي للأستاذ "فتح الله كولن" جيلاً مستعدًّا لانبعاث حضاري جديد، همّه خدمة الآخرين والرغبة الجامحة في إحيائهم. وبذلك تستطيع أمتنا أن تنبعث وتنهض من جديد اعتمادًا على رؤيتنا الحضارية وثقافتنا الذاتية، صابرة على الأوجاع متوكلة على الله راجية رضاه سبحانه. "كان عالمنا يسبق عصره بخطوات واسعة في العلوم الطبيعية والدينية، وفي التصوف والمنطق، وفي تخطيط المدن والجماليات، وفي كل مجال ومضمار...

إن هذا العالم يُمكِنه -بعد هذه الفترة العابرة- أن يحرِّك مجدَّدًا كل الأرواح والأدمغة المنورة، فيحقق النهضة العالمية الثانية أو الثالثة[٢٤]... "هذا الفريق ينقذ مؤسسات التربية والتعليم التي تغير شكلها ووجهتها كل يوم حسب الأجواء تحت وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداخلية... ينقذها من وصاية الأفكار الدخيلة من مراكز القوى العالمية، فينظمها بصورة تستجيب لمتطلبات الحاضر وحسب السياق التاريخي، ويرفعها لتكون مؤسسة ذات رسالة وهدف ببرنامجها وخطتها وأسلوبها"[٢٥].

ويقول كذلك: "بفضل ذلك، ترتقي الأمة من الفقر الحسي والفكري، والحفظ الببغائي والنمطية إلى التفكير العلمي الحقيقي... لنضعْ جانبًا بلبلة التكوينات الجديدة في العالم، نحن لا نصدِّق بولادة شيء جديد من الهندام الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراتها الاشتراكية، أو هجينها الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية البالية. الحقيقة هي أنه إن كان ثَمَّ عالَمٌ مشرّعُ الأبواب لنظام عالمي جديد فهو عالمنا نحن. وقد يتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن. هذه الولادة الجديدة ستُكسب عالم مشاعرنا وأفكارنا، وكذلك مفاهيم فنّنا وجمالنا، أعماقًا مختلفة اختلافًا شاسعًا عما هو عليه الآن... ونجعل شعبنا يستقر على أساس متين... سواء في العلم والفن، أو الفكر والأخلاق، فنضمن مستقبله. شعارنا في هذا المضمار النفيرُ والإقدام، ومصدر قوّتنا الإيمان والحقيقة... ولا أظن بأنني في حاجة إلى شرح الواقع بعكس الحال"[٢٦].

• **الانضباط والتضحية:** غريب هو أمر فتح الله كولن! كيف استطاع هذا الرجل وبأسلوبه الرقيق، أن

nesemat.com نسمات nesemat.com

جعل الأستاذ فتح الله من مشروع التعليم هدفًا "مقدسًا" لانبعاث حضاري جديد. فكان فسيلة غرسها في عقول وقلوب كوكبة من الذين عانقتهم الأقدار ليصبحوا رسلاً ومعلمين جددًا.

يصبغ تلاميذه بما يريد من قيم عالية؟ كيف استطاع ترويضهم بالتحلية والتخلية، حتى تجد الواحد منهم لينًا هينًا ينحني لكل ريح في ابتسامة عريضة دائمة؟ لكن الأغرب من ذلك أن تجد هؤلاء في مواقف الجد مثل الجبال، كلهم إصرار وحرص على النجاح أينما حلوا وارتحلوا. إنهم الأسس الحقيقية والروافع الصلبة للانبعاث الحضاري المنشود. لقد سمعت ذلك ورأيته بأم عيني في شتى مجالات الحياة التي يغشونها. لكنك وبعد الدرس والتدقيق في كلام الأستاذ الرقيق، ستجد كل كلماته مشفرة تحمل في طياتها بذور القيم الحضارية العبقة، التي أنتجت ثمارًا استفاد منها كل الناس، وجعلت أسلافنا أسيادًا في شتى مناحي الحياة. هذه الكلمات الرقيقة المجلجلة، تهز أركان كل القيم الفاسدة التي سبحت بالناس في بحر الجهل والفقر والاختلاف وكل معالم التخلف. هذه الكلمات هي بذور ذلك الجيل وفسائل الانبعاث الحضاري الجديد. لعل هذا سر الإرث النبوي في منهج التلاوة والتزكية والتعليم الذي اقتفاه الأستاذ كولن، ولعل سحر هذا التأثير هو الذي جعل هذا الجيل يحقق من النتائج ما يشهد به ويشاهده الجميع اليوم. فتأمل غيضًا من فيض كلماته تلك: "ولن يدرك الخلاص البتة، أولئك الذين يديرون ظهورهم للوجود كله وللنظام العام، فيهدرون أعمارهم في ظلمات متاهات الأنانية... ودع عنك إدراكهم للخلاص، فكم تَسبَّب هؤلاء في هلاك

مَن أحْسنَ الظنَّ بهم، ومن ثم ينبغي أن يترك هؤلاء الذين يبرمجون لمسيرة المستقبل الأنانية جانبًا، ويضعوا أيديهم في أيادي كل إنسان وكل شيء بالضرورة واللزوم. إذ ستبلغ العزائم والغايات والرؤى قيمتها الحقيقية بقدر حصولها على مساندة الهيئات المتكاملة والعزائم المتوحدة والمشاعر المتضامنة في أتم المعاني. فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعية، ومن القطرة إلى البحر، ومن ثم بلوغ الخلود، هو الفناء بالذوبان في الآخرين والاندماج بهم بالانصهار فيهم من أجل إحيائهم والحياة معهم"[٢٧].

• **هجرة العاشقين:** إذا قدر لواحد منا السفر إلى أحد أركان الدنيا اليوم، فقد لا يجد فيها سفارة لبلده، لكنه سيجد مدرسة يؤمها تلاميذ من كل الألوان واللغات والأديان. وسيجد فيها أساتذة عاشقين للهجرة تسابقوا إلى ذلك المكان، رحلوا إليه في يوم ما، رفقة كتبهم وأورادهم قبل أولادهم... سيجد فيها معلمين فرحين بفتح مدرسة جديدة، مجتهدين في ترتيب الخطط والبرامج الفريدة... وسيجد فيها طاقمًا من الرجال والنساء العاشقين للهجرة، صادقين في نسج علاقات إنسانية مجيدة، مؤمنين بأهمية دورهم المقدس في المساهمة لصناعة جيل الانبعاث الحضاري الجديد.

إن حركة الخدمة ظاهرة عجيبة، يجب أن نقف عندها ونتأملها بشكل جدي، لنفهم كيف قررت فئة قليلة -ملك الحبُّ قلبَها- أن تنطلق لنيل رضا الله تعالى، إلى المشرق وإلى المغرب وإلى أرجاء الأرض جميعًا، في وقت يعز فيه مثل هذا الخاطر... انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العزم والثقة في انبعاث جديد. وبعشق خدمة الإيمان طوت في أفئدتها لواعجَ الفراق، وَحُبَّ الوطن، وآلامَ البعاد عن الأهل والأحبة، كل ذلك لإيمانها بانبعاث جديد. قليل من الناس شعروا مثلهم وعاشوا الجهاد في سبيل الله مثلهم، وقالوا وهم ينتشرون في المغرب والمشرق: نحن مهاجرون في سبيل الله من أجل تكوين جيل الانبعاث الحضاري الجديد... ذهبوا وهم في زهرة شبابهم، يحملون آمالاً وأشواقًا دنيوية لها جاذبية لا تقاوَم لدى كثير من أقرانهم في أوطانهم وفي كل وطن من أجل انبعاث جديد... ذهبوا في سبيل بعث حضاري جديد، وفي عصر طغت فيه الماديات والأحاسيس الجسمانية على المشاعر الإنسانية، وهم يكبتون تلك المشاعر باشتياق إلى وصال آخر أقوى وأكثر التهابًا وتوهجًا... ذهبوا وهم يسابقون الزمن متنافسين في غرس فسائل الأمل، غير آبهين بشظايا الاتهامات وضباب الدخان المنبعث من كل مكان، همهم الأول انبعاث جديد... ذهبوا في سياحة ليست من النوع الذي يهيم به الشاب في مرحلة مراهقته أسوة بحلم وراء ملكة جمال مزيفة، بل في مسيرة العشق، حاملين فسائل الانبعاث، مهرولين خلف سيرة صاحب النور الخالد ﷺ، وهم ضمن سرب الربانيين مغازلين سير الصحابة الكرام، وأفئدتهم تلهج بحب الله ﷻ طمعًا في انبعاث جديد... ذهبوا وأسلحتهم كراسي خشبية، وأقلام ذهبية، وذخيرتهم ألسنة رطبة فولاذية، وقلوب عامرة بالحب تستوعب الشياطين... شرقًا وغربًا أوقدوا شموعًا أضاءت سبلاً للأمل المفقود، حتى غدوا مثلاً للانبعاث الجديد.

واليوم لقد تسلم هذا الجيل الجديد المشعل، فبدأ الناس يكتشفون ملامح هندسية لمعمار جديد؛ بناء سيشيد على أسس رحبة مفعمة بلَبنات الحب والصبر والإخلاص والإيمان والصدق والعفة، واطلب ما شئت من عزيز مواد التشييد المثالي لبعث حضاري جديد.

قد يفاجأ البعض حين رؤية فنون بنائهم، أو سماع همهمات أناشيدهم؛ لكن المفاجأة قد تفهم حين الاطلاع على فلسفة معلمهم وهو يقول: "نحن لسنا بحاجة إلى حسنات ونُظُم فكرية تُستجدَى من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا الماسة هي إلى أطباء روح وفكر يحفّزون في كافة أبناء أمتنا حس المسؤولية، وشعور الهمّ المقدس... أطبّاء روح وفكر يُمَكّنون أرواحنا من الانفتاح إلى أعماق الماوراء وآفاق الغيوب بدلاً عن وعود السعادة المؤقتة الزائلة، ويرفعوننا بخطوة واحدة إلى مراتب نرى فيها المبدأ والمنتهى معًا وسوية"[٢٨].

الخلاصة

لقد دوّخني مشروع الأستاذ كولن قبل أن ألامس بعض خيوطه؛ إذ ليس من السهل على مطَّلع عابر أو مطالع هاو أن يفهم المشروع الإصلاحي لهذا الرجل، ذلك أن خبرته بالصراع الحضاري، وفقهه لسنن الحياة، وعمق فهمه للرسالة المحمدية... كل تلك أسباب جعلته أكثر دقة وحيطة في هذا المشروع. لذا فحركة الخدمة من قبيل السهل الممتنع، قد يحاول بعض الناس تقليدها وقد فعلوا، إلا أني أعتقد استحالة ذلك نظرًا لشدة تعقيدها وصعوبة تكرار شخوصها. لكني أدعو كل محب أو راغب في الاطلاع على هذا الفكر، أن يبدأ بأهم وأشمل ما أُثر عن الأستاذ كولن، وكل من يريد فكرة مجملة حول رؤية هذا الرجل التربوية فعليه بقراءة كتابه القيم "ونحن نقيم صرح الروح". أما من أراد لمعة عن تصوره الحضاري ضمن مشروعه الكبير، فعليه بكتابه العميق "ونحن نبني حضارتنا".

واليوم وبعدما حل بساحاتنا بعض من هؤلاء المهاجرين الجدد، فقد تحركت بين أضلاعنا نوازع الماضي المجيد، وبدت في الأفق ملامح المخاض العسير الذي طالما انتظرناه، فما المانع أن يتكرم ربنا بالعفو عن تقصيرنا ويجود بفتح أبواب منّته على أمتنا مرة أخرى، فيكون لنا نصيب في هذا الانبعاث الحضاري الجديد. ■

الهوامش

[١] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة السابعة، ٢٠١٤م-١٤٣٥هـ القاهرة، ص:١٣٢.

[٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة الرابعة، ١٤٣٥هـ-٢٠١٣م، القاهرة، ص:٤٨.

[٣] ونحن نبني حضارتنا، ص:٣٦.

[٤] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٢٨.

[٥] ونحن نقيم صرح الروح، ص:١٩.

[٦] ونحن نبني حضارتنا، ص:٣٧.

[٧] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٢٩.

[٨] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٨٩.

[٩] ونحن نقيم صرح الروح، ص:١٠٠.

[١٠] في فقه التدين فهمًا وتنزيلاً، ج١، ص:٤٠، كتاب الأمة، ع:٢٢.

[١١] ونحن نبني حضارتنا، ص:٤١-٤٢.

[١٢] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٨٩.

[١٣] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٢٩.

[١٤] حركة نماذجها من ذاتها، مجلة حراء، ع:١٣ (٢٠٠٨).

[١٥] وهي مركز يعنى بالبحث الأكاديمي والتكوين والنشر، وفلسفة المؤسسة حسب فهمي المتواضع لا نظير لها في العالم.

[١٦] "مَبِأَدْ" (MABIAD): جمعية رجال أعمال وبحارة مرمرة.

[١٧] "الأصناف": كلمة تستخدم في اللغة التركية للدلالة على التاجر أو صاحب المتجر أو المحترف في مهنة ما، راجع قاموس المعاني.

[١٨] هذا الكلام سمعته شخصيًا من أحد تلاميذ الأستاذ فتح الله كولن في مائدة عشاء مع رجال جمعية مرمرة.

[١٩] عرفت هذا الرجل من كبار تلاميذ الأستاذ ومن أشدهم حكمة وتعقلاً من بين من عرفت، وقد كان مشرفًا عامًا على جملة مرافق.

[٢٠] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٨٨.

[٢١] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٢٧.

[٢٢] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٤٣.

[٢٣] ونحن نقيم صرح الروح، ص:١٢٨.

[٢٤] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٢٩.

[٢٥] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٢٧-٢٨.

[٢٦] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٢٨.

[٢٧] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٨٦.

[٢٨] ونحن نقيم صرح الروح، ص:٨٩.

مكانة السنَّة في مشروع الأستاذ كولن

سليمان عشراتي

أ.د. سليمان عشراتي، مفكر وأستاذ جامعي جزائري، يدرِّس في المركز الجامعي بالبيض، الجزائر، اختصاص الفكر الإسلامي المعاصر والدراسات القرآنية والديانات. له عديد من المؤلفات أبرزها: خماسية "الأمير عبد القادر"، وثلاثية "ابن باديس"، و"النورسي في رحاب القرآن وجهاده المعنوي في ثنايا رحلة العمر" و"المعنى القرآني في رسائل النور"، و"الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن"، و"هندسة الحضارة تجليات العمران في فكر فتح الله كولن".

لا شك أن وظيفة الرسالة وهدف البعثة ودور الرسول ﷺ، هو تنظيم الحياة من جديد. وإن من شأن العُصَب التي تقتفي أثره ﷺ في هذا الاتجاه الانبعاثي التجديدي، أن يعيدوا إرساء قواعد التوازن في مدنية ضالة اختارت الإبصار بعين واحدة. فكَوْنُهم تسننوا بسنّته واهتدوا بهديه وتزينوا بزينة أخلاقه، يكونون قد حازوا أهلية مباشرة التحول على صعيد العالم.

ولقد تجاوز "كولن" منظور التغني بالكمالات النبوية، إلى منظور المغالبة على إحياء المنهج المحمدي باستنباط عوامل التفوق فيه، لأجل تطبيقها واستلهامها في معركة الدعوة الإسلامية العالمية، بكل ما يميز رهانات هذه الدعوة من جسامة؛ فاستمد من السنَّة معاني المقدامية، وهو الذي يباشر حراكًا انبعاثيًّا لا ينهض معه بتكاليفه إلا كل شهم مقدام، وتلقن من قراءة سنة رسول الله ﷺ ومن الوقوف على تقلبات حياته العامرة بالجلائل، وكذا حياة صحابته الكرام ومن تبعهم بالإحسان واقتداهم. كيف تخلو حياة أولو العزم من معنى التقهقر، إذ تميزوا بالصلابة والقدرة على تحويل العثرات إلى نهضات وانتصارات.

السنة محبة، والمحبة فاعليةُ تعبير متناغم، متمادٍ في الطلب مُمعن في الاستجداء، إنها حراكُ هدم لأجل البناء على قواعد مضادة للزلازل. والسنَّة تَمَخُّضٌ جذري، وانبعاث كليٌّ تتحول به الهوية إلى همَّة محمّدية تُجاهد من أجل توطيد نهج القرآن العظيم. وإن من دواعي إحياء السنة في راهننا، ما يراه أولو العزم من تطابق أحوال الزيغ بين جاهلية أمس التي تصدت لها البعثة بوقوف محمد النبي ﷺ وصحبه الكرام في وجه الكفر والتسفل الروحي، وعبثية اليوم المتفسخة الطافحة بكل ما يتهدد الإنسانية بالفناء.

بتصرم القرن العشرين تكون البشرية قد جربت شتى مناهج التطور والتمدن، وخرجت منها خائبة بعد أن رأت الأنماط المذهبية والأيديولوجية "وليدة التجريب الفكري والفلسفة الوضعية" تنهار أو تتفاقم منذرة بالتهاوي. لقد تبينت المجتمعات أنها جميعًا مهددة بالإفلاس الاقتصادي والبوار النمائي، وأنَّ ما لبثت تعتد به من فقه علمي وتنظير تدبيري، لا يفتأ يبدي محدوديته، بل عقمه في مواجهة تبعات نظم حياتية هوجاء انبنت في الأساس على ثروة منهوبة وغنى مسلوب، راكمته ووفرت أسبابه هيمنة رأسمالية مستشرية، وغلبة استعمارية مستفحلة، واستسلامية شعوبٍ مخزية عاشت دهورًا في الظلام، أو انقطعت عن روحيّتها الدينية والمعرفية وقعدت على القارعة.

تعجز محاولات التطبيب اليوم عن إسناد الجسم الرأسمالي العليل، بعد أن قُبِرت الشيوعية وصارت أثرًا بعد عين، والأمة المحمدية تتكبد الخسائر الفادحة في شتى المجالات -لا سيما الروحية منها- جراء هذا التردي الحضاري المتصاعد، والسبب كونها ارتبطت بنُظُم هذا العالم الذي قتل الروح، وأقصى الربّ، وأحيا المادة، وعبد الشيطان (الفجور والخمر والقمار والربا والبزنسة التي لا أخلاق لها). ولم يعد سائغًا لأولي النهى أن يستمعوا لعرّافي العصر المتهافتين، وما يقترحونه من علاج للتردي الذي يسري في أوصال هذا الكيان الحضاري المادي الذي تضعضعت -أو آذنت بالتضعضع- قواعده الاقتصادية، وهي آخر وأبرز ما ظل يبني عليه الإنسانُ المعاصرُ دعائم غروره وصلفه، وينيط به أوهام تَرَبُّبِه. وحدها نظم الله وقوانينه وترتيباته كما لقنتناها السنة الشريفة (ترجمان القرآن) تتأهل لتدارك ما نحن فيه من بؤس روحي، وما يحيق بالبشرية اليوم من مخاطر ويتعقبها من نكال.

ينبه كولن إلى أن مخاطبة الأوساط في مسائل الدعوة يقتضي الجدارة والأهلية السمتية وقوة الحجة، لا سيما في عصر تحولت فيه النفوس إلى النفعية واللاإيمانية.

nesemat.com نسمات

السنَّة مناط محبة الأمة على مدى الأجيال

لقد لبثت الأمة -من محبتها لرسولها الكريم ﷺ- تروي سيرته، وتتناقل تراثه الروحي الترشيدي؛ ذلك لأن الرابطة الشعورية بالنبي المصطفى ﷺ وبسنته المزكاة، هي من القوة والتمكن، بحيث تجد الذاكرة المسلمة نفسها عاجزة -بفعل تلك الرابطة- عن أن تتحلل من نص استقر في الخلد على أنه نبوي. ولا يعني أن الأمة متحررة دائمًا في سلوكها لأخلاق السنة، ومفعلةٌ لمقررات تلك السنة بالانضباط المطلوب؛ فعلى الصعيد الواقعي نرى غياب السنة في مساحة واسعة من حياتنا، عكس الوضع على

الصعيد العاطفي، إذ مواجد التعظيم التي تكنها فئات الأمة لنبيها مواجدُ متجذرة، يتعسر عليها أن تتحلل منها مهما تضاعفت عوامل إبعاد هذه الأمة عن دينها وأصالتها الروحية والقدسية. ففي السنة الشريفة توجد مجالٍ من التعاليم واضحةٌ كفلق الصبح، وتوجد كذلك مكامنُ مستترة كينابيع الماء تجري من تحت الأرض منتظرة مَن يُثوِّرها ويفجر منابعها.

فباستظهار تلك المكامن، وبتجديد قراءة المدونة القدسية، واستثمار الأبعاد الفساح التي تختزنها الدلالة النصية الشريفة، يتم التجديد الذي لا يغطي فحسب دواعي التفتح والنهوض ومجاراة السيرورة والتطور، دونما خوف من حيدة أو خشية من خروج عن النطاق الشرعي المرسوم، وإنما يفتح الآفاق عريضة في وجه الاجتهاد وتنويع التمثلات المدنية الأنبل، والمستويات الحياتية الأكمل التي يتيحها لنا استنطاق النص النبوي ويعرضها بين أيدينا؛ النص النبوي ضابط مسطري حدِّي، وهو في الآن نفسه تعليمة مليئة بالإيعازات التي تستوعب آفاق المصلحة ولا تضيق عنها. ولا ريب أن قول الرسول ﷺ "نضّر الله امرأ سمع منّا شيئًا فبلَّغه كما سمع، فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع" (رواه الترمذي)؛ هو إشارة إلى مدى قابلية السنة للتخريج والتثمير الذي تتسع به دائرة المنافع والمصالح، التي تقتضيها حياة المسلم المتزنة في مطالبها، والمتوازنة في تجددها السوي.

محبة السنَّة وتحبيبها للناس

إن محبة المسلم لنبيّه محبة قلبية لا تعبّر عنها الألسن، فهي من محبة الله ﷻ، "أجل، للقلب لسان لم تسمع الآذان بيانًا مثل بيانه وبلاغة مثل بلاغته، فعلى الإنسان أن يقطع المسافات في قلبه، فيصل إلى ربه هناك ويفنى في حبه" (ص:٢٦). وإن رحلة ملاقاة الله ﷻ تمرّ عبر تعلم سنة نبيه المصطفى ﷺ وتَمَثُّلِها، وهي تبدأ من التقمص إلى التبطن، إذ محبة الرسول ﷺ من محبة الله، فهي تعني -من ثمة- التبنّي الصميم لميراثه العظيم. فاعتماد سيرة الرسول الأعظم أو سنته سلوكًا ومرجعية، هو مدخل إلى صعيد التماهي (النسبي) في هوية النبي ﷺ، والرقي إلى درجة الإنسان الكامل.

ولم يبلغ عظماء الأمة في حقل الإيمان ما بلغوا من درجات الكمال إلا لأنهم تمثّلوا بالقلب والجوارح سيرة النبي ﷺ، فنالوا المقامية في ضمير الأمة، وباتت الأجيال تنحني بالرحمة على أرواحهم، وتستلهم منهم المدد والمثالية كلما حزب الأمر بالأمة واحلولكت الدنيا من حولها. فرموز المحظوظية (أبطال الروح) استمدوا القدسية من مرشدهم محمد ﷺ؛ فإذا كان عبد القادر الكيلاني أو جلال الدين الرومي أو الإمام الرباني أو بديع الزمان النورسي، يحوّلون القلوب ويوجهونها نحو الرسول محمد ﷺ، فهذا بفضل القوة القدسية التي استمدوها من مرشدهم ومن أستاذهم ﷺ. (ص:٢٨٥)

وظيفة السنَّة

لا شك أن وظيفة الرسالة وهدف البعثة ودور الرسول ﷺ، هو تنظيم الحياة من جديد. وإن من شأن العُصَب التي تقتفي أثره ﷺ في هذا الاتجاه الانبعاثي التجديدي، أن يعيدوا إرساء قواعد التوازن في مدنية ضالة اختارت الإبصار بعين واحدة، فكَوْنُهم تسنّنوا بسنّته واهتدوا بهديه وتزينوا بزينة أخلاقه، يكونون قد حازوا أهلية مباشرة التحول على صعيد العالم؛ "إن أي جماعة تتزين بمثل زينة أخلاقه ﷺ، تكون

عنصر توازن في هذا العالم" (ص:٥٠). وإن أول خطوة على طريق التجديد وأحسمها، هي تجديد النفس، وتجلية الكينونة الروحية بمُجَلَّيات القرآن العظيم والسنة المطهرة؛ "إن الوظيفة الملقاة على عاتقنا، هي تغيير أنفسنا" (ص:٥٠)، ذلك لأن "الغاية الأساسية من خلقنا والهدف الرئيسي له، هو معرفة الله ﷻ، وإيفاء وظيفة العبودية له بشكلها الصحيح واللائق به ﷻ" (ص:٥٦)؛ فمِحَكُّ التعافي فينا هو تغليب باعث العبادة على باعث الجمْع والتَّرَيُّش.

محبة "كولن" للرسول ﷺ أس تجنيديّته

تغدو محبة الرسول ﷺ بالنسبة لـ"كولن" محبة علة ووجود، يترجم عنها إكباره لسنته ولدعوته وهجرته، بل ولولادته؛ لقد رأى -عن حقٍّ يقره كل إنسان مستنير القلب- أن يوم ميلاد محمد ﷺ حريًّا أن يكون عيدًا للإنسانية برمتها، تحتفي بمن أزال عنها الكفر، وأضاء عوالم الكون بمصابيح القرآن؛ "هناك عيدٌ آخر يعدّ عيدًا للإنسانية بل لعالم الوجود كله، وهو يوم تشريف الدنيا بمجيء رسول الله ﷺ، أيْ يوم الميلاد الأحمدي والسراج المحمدي في سماء الإنسانية مثل شمس مضيئة. فكان هذا أفضل وأكبر وأعظم نعم الله على الإنس والجن". (ص:٢٧)

السنَّة واليُتْم الروحي

هناك وطأة وجودية ناتجة من علو قابلية التأثر والمشاركة التي تورثها التقوى لأهل الورع والتجرد، يغدو بها العبد الصالح فريسة للغربة، ونهبًا للضيعة ولمشاعر اليُتْم. ولا تزال الاستنارة السَّنِيّة المتناغية مع ما في النفس من هداية فطرية تحنفية، تلح على أهل الله إزاء ما يتكاثر حيالهم من ترديات الروح، وما

لقد تجاوز كولن منظور التغني بالكمالات النبوية إلى منظور المغالبة على إحياء المنهج المحمدي، باستنباط عوامل التفوق فيه لأجل تطبيقها واستلهامها في الدعوة الإسلامية العالمية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ينعكس نتيجة ذلك على المجتمع من ألوان الشراسة والمسخ والإحباط، فيعيشون معلَّقين بين وطأتين؛ وطأة التأذي من تبعات الواقع، ووطأة العجز عن إصلاح ذلك الواقع، فيورثهم وضع التمزق غربة لها طعم اليتم، لا يفتأون يكابدونها في أجواء مدنية تعزف عن نداء الروح، تناهض الدين وتعمل على وأده. بهذه الروحية الكسيرة طفق كولن يستقرئ الواقع الكسيف الذي انقلبت إليه حال قومه وحال الأمة قاطبة.

لبث كولن -بوصفه رمزًا منكوبًا في روحيته الجمعية، مطعونًا في تاريخيته الملّيّة، مبتوت الصلة بهويته الحضارية- يرصد لنا ما كان قائمًا من تَماهٍ بينه وبين المعالم الخابية للعقيدة في الواقع الحياتي التركي والوضع الإسلامي عامة؛ إذ المساجد وسائر ما يرمز إلى الماضي من مؤسسات دينية، باتت تنتصب منكَّسة في عهد التراجع، فالرصيد القدسي الذي كان بالأمس عنوان العظمة والتحريك، قد حاقت به المهانة اليوم، إذ عقَّـه الخلَفُ، فهو منتبَذ، مُقصى بلا حرمة ولا صون، أشبه بوضع اليتيم في وصاية اللئيم.

من هنا استشعر كولن أن يُتْم الإسلام يُتْمه، وأن ضيعة عز الإسلام ضيعته هو، ولم يعد في وسعه إلا أن يرابط على عتبة السنَّة، ذارفًا الدمع، راجيًا الشفاعة من سيد المرسلين: "يا رسول الله، ها أنا ذا يتيم، واقف على عتبة بابك، فلا تطردني عن بابك، ولا تحرمني من شفاعتك". (ص:٣٣)

فكر كولن سليل السنَّة

إن فكر كولن، سليل عضوي لفكر السنَّة، إذ إن فلسفة الدعوة لديه انبنت على أسس التزامية اقتدائية احتسابية تتوخى إحياء السنَّة وبعث تعاليمها، تخليصًا للإنسان المسلم عامة والتركي خاصة، مما حاق به من فكر جحودي شنيع مصدرُهُ مفرزاتُ هذه المدنية المادية وفلسفاتها المتوحشة، وأيديولوجياتها الرعناء الضاربة مليًّا في المروق والعقوق. ولقد كان كتابه "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" مدونة فتّشتْ في وقائع السنة الشريفة ظواهر وما وراءات، بوازع استكشافي اقتفائي، أتاح له أن يستقرئ منها وفي شتى مناحيها الحياتية والجهادية والتعميرية والتمدينية والتسييرية، ما يمكن أن يعد قوانين وقواعد السير التي لا يمكن لأي بعث إسلامي أن يغفلها في أي مشروع نهضوي جاد.

لقد تعمق الداعية في بث بواطن الفعل النبوي واستظهار أسس منهاجه، وطُرق التواصل والتحسيس التي اعتمدها ﷺ في التبليغ، وكان الوازع الاسترشادي الاستلهامي جليًّا لدى كولن في مدارسته للسنّة، من هنا كان استقراؤنا متن هذه المدارسة الاستيعابية الشمولية (النور الخالد)، يفيد في التعرف على الموقع الذي تحتله السنة في منهج كولن، وعلى مستويات التمرّس الروحي والعملي التي جسّدها مشروع النهضة الدعوية الخِدْمية، الذي ينهض به اليوم كولن وتنشِّطه فواعل الخدمة بأصنافها وقطاعاتها. أقام كولن في رحاب السيرة، ثم أقامها مكوِّنًا مركزيًّا في كيانه، فتشعبت أمامه وجهتان إحداهما التمثل لبناء الروح، والثانية التمرُّس للدعوة والتبليغ. التمثل ذكر، والتمرس تذكير، التمثل أفضى إلى القلبية وترقي سلالم العروج والمكاشفة، والتمرس اقتضى منه الانحياز المطلق للشريعة، واختيار الأسس والأوليات في بناء جدار النهضة، واستلهام الكيفيات النبوية في التجدد؛ فكانت النتيجة هنا حفولاً في المكاسب، كما كانت هناك فيوضًا في المواهب.

كولن مطبِّق للسنّة

لقد تجاوز كولن منظور التغني بالكمالات النبوية إلى منظور المغالبة على إحياء المنهج المحمدي باستنباط عوامل التفوق فيه لأجل تطبيقها واستلهامها في معركة الدعوة الإسلامية العالمية بكل ما يميز رهانات هذه الدعوة من جسامة. لقد استمد من السنَّة معاني المقدامية، وهو الذي يباشر حراكًا انبعاثيًّا لا ينهض معه بتكاليفه إلا كل شهم مقدام.

لقد تلقن من قراءة سنة رسول الله ﷺ، ومن الوقوف على تقلبات حياته العامرة بالجلائل، وكذا حياة صحابته الكرام ومن تبعهم بالإحسان واقتداهم. كيف تخلو حياة أولي العزم من معنى التقهقر، إذ تميزوا بالصلابة والقدرة على تحويل العثرات إلى نهضات وانتصارات.

مستويات التسنن

التسنن المستنير الضارب في أعماق السيرة يحقق عصرنة مدنية أصيلة مسوَّغة ومؤيَّدة بتعاليم السنَّة. والتسنن الحرفي يكتفي بالبحث عن إمكانات المناعة والوقاية والحفاظ على كيان تحاصره المعوقات والإحباطات، ولا قدرة له على الفعل.

يومئ كولن للنهج الدعوي الذي سلكه وهو نهج النبوة، إذ التبليغ بالنسبة للتابعين وظيفة، وبالنسبة للأنبياء غاية. و"كولن" لما عاش التبليغ اختيارًا فقد

تفرغ له بتاتًا، وعمَّر به حياته باعتباره رهانًا أيوبيًّا حاسمًا. وإذا كان سلفه "محمد الفاتح" قد ملك مفتاح ضفتي آسيا وأوروبا بجيش سلطاني استشهادي، فإن كولن يراهن على فتح أمصار وأوطان في الأرض ما أظلَّها الإسلام قبل أن تتجه إليها فرسان "الخدمة". وإنها لمقصدية رهينة بآفاق الدعوة وقدرتها على الاستمرار والتطور والمُكنة من تثمير الإمكانات وتوظيف التقنيات واستغلال الفرص ومنها فرص الزمن.

منهج التأثير "الكولَني" مستمد من بيداغوجية الرسول ﷺ: "إن في حياة الرسول ﷺ وسلوكه وتصرفاته وطراز حياته دروسًا قيمة للدعاة، أجل، فإن الشرط الأساسي للنفوذ إلى القلوب، هو تطبيق الدعوة ومبادئها على النفس أولاً وقبل كل شيء كما فعل الرسول ﷺ" (ص:١٥٠). هذه الأحوال المعاكِسة والمناوئة التي عاناها الرسول ﷺ، كان كولن وسائر المصلحين ممن ساروا على درب النبي ﷺ، يُحيون وقائع مجانسة لها على نحو من الأنحاء في مضمار ما تصدَّوا لتحقيقه على صعيد إحياء السنة وبعث قيم التعمير. لذا لبثوا يستحضرون أساليب التبليغ النبوي ويتمثلونها ويتعمّقون ليصطنعوها في جهادهم الدعوي. لقد أيقنوا أن محاولة تطبيق مناهج أخرى غير المنهج النبوي في بناء النهضة، لا يضمن النصر، ولا يكفل النجاعة والفاعلية، ومن ثمة لا يتحقق به الرهان الأعظم. "إذا أريد النجاح الدائم الباقي، فليس أمامنا إلا اتباع الطرق والأساليب التي اتبعها النبي ﷺ، وقد أثبتت آلاف من الحوادث استحالة النجاح والتوفيق بطرق الآخرين، لذا فإننا نؤكد مرة أخرى بأن على الدعاة الذين يريدون أن يكونوا هداة ومرشدين للناس، أن يتبعوا الرسول محمدًا ﷺ، فهو المرشد الحقيقي، والطريق الذي خطه هو طريق الهداية الرشيدة، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى". (ص:١٥٣)

يؤمن كولن أن الباب سيفتح على مصراعيه في وجه الدعوة متى ما استجممت الأمة قواها وامتلكت القَوامة المادية، إذ عندئذ يحصل للإسلام الفتح المبين.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ويوعز كولن -انطلاقًا من تجربته التي تجذرت في الدعوة- بما ينبغي أن يطمح إليه المرشدون في مجال النهوض والتبليغ والدعوة وفق منهج الرسول ﷺ، فإن أهم ما يتطلبه المنهج أن يكون الداعية ذا فطرة لا تحترف الدعاية باسم الدين، وإنما تحيا في الدعوة، وتسلخ العمر في الاضطلاع بتمرساتها الشاقة: "لقد كان التبليغ لدى سيد المرسلين فطرة وسجية، كانت نفسه تضيق عندما لا يجد قلبًا طاهرًا يبلغه، مثلما نضيق نحن إنْ حُرمنا من الأكل والشرب، أو عندما نُحرم من تنفس الهواء". (ص:١٥٣)

وينبه كولن في هذا المضمار إلى السذاجة والانخداع الذي يقع فيه الدعاة حين يتوهمون أن الترويج للسنّة بالعواطف والمشاعر هو مبلغ الجهد. والحقيقة أن مخاطبة الأوساط في مسائل الدعوة، يقتضي الجدارة والأهلية السمتية، وقوة الحجة، لا سيما في عصرٍ تحولت فيه النفوس إلى النفعية واللاإيمانية، إذ لا بدّ -إلى جانب العاطفة الصميمة التي ترادف العشق- من إيجاد المُقْنعات الفكرية والمُثبتات العقلية، وفتح باب الدعوة على المحاورة، ومقاسمة أوضاع الناس

والمجتمعات. وإن تصدي الهداة إلى معالجة قضايا الفقر والإدمان والانحرافات الأسرية والشبابية وكافة مظاهر التخريب التي تقترفها المدنية الرعناء، لَمِن شأنه أن يشكل صعيدًا حيويًّا لتحقيق الدعوة، وتحويل المرضى أنفسهم إلى جنود ينشرون عافية الإسلام في بيئاتهم.

ألا وإن من ألحِّ جبهات المواجهة التي انفتحت أمام كل داعية رباني، جبهة التصدي لظاهرة تشويه الإسلام بما يُقترف باسمه من شنائع وفظائع. المنهج الدعوي الذي أراده كولن أن يكون انتفاضة، بل ثورة روحية تحيي الموات وتواجه النكبات، هو نهج التجنُّد الصميم، والتسامي الفذ الذي جسّده أولو العزم بسيرتهم المستلهمة لسيرة الرسول ﷺ، ممن عاشوا للرباط وبالرباط؛ منهم "النورسي" وسلسلة الأفذاذ من بني قومه الذين ارتفعوا باقتدائهم واستشهاديتهم، شموسًا وأقمارًا في سماء الإسلام.

اختار هذا النهج السقفي من البذل، لأن طبيعة النكبة الروحية "والمادية" التي حلت بالإسلام وبدار الإسلام، وعلى يد طوائف ممن ظلت سلالتهم ترفع شارة الإسلام "خلافة ووصاية" قرونًا متراوحة، كانت من الفداحة بحيث لم تترك لأولي العزم خيارًا آخر غير خيار الاستنفار التام، والانخراط المطلق الذي تنتفي معه على صعيد الحياة الشخصية كل رابطة متاعية أو ارتفاقية، إلا رابطة بذل النفس في سبيل المنافحة عن دين الله ﷻ.

فـ"كولن" ومِن وعيٍ بليغٍ بأن حركته الدعوية الخِدْمية تنسجم مع مقتضيات نداء خفي، يرسله الضمير الإنساني مستغيثًا مما بات ينوء به كاهل البشرية من أرزاء ناتجة عن أحوال مدنية وحضارية غاشمة وجارفة، نراه يختار الحركةَ على السكون، الفعلَ على البطالة، القيامَ على القعود: ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء:٩٥).

بل إنه يعتبر أن حركة الوعي والاستفاقة التي تجسّدها تنظيمات الدعوة الخِدْمية اليوم، ما هي إلا هبَّة خير انتهت إلى هذا الجيل الذي ينتصب في مقدمته هو والناشطون في حركة البذل، ومعهم الجموع المتنافسة في الإحسان، ليواصلوا المد الذي انطلق على يد الرسول ﷺ وتراوحته الأجيال المحظوظة من بعده جيلاً بعد جيل، ورمزًا بعد رمز، وداعية إثر داعية... يقومون بذلك بكل تجرّد، إذ إن من اشتراطات أهل النعرة الدينية الموت في الموت وقتل الجسدية، ودوس نوازع الذات والأنانية.

نماذج من تمثلات كولن لمقررات السنَّة

في الاتجاه الرجوعي تأخذ المادة النصوصية بُعدًا مخدوميًّا، من ذلك ما عالج به كولن قول النبي ﷺ "لكل داء دواء" (رواه مسلم)؛ لقد قرأه في سياق التأسيس لـ"الخدمة"، فللنهضة مفعلات معنوية وروحية توفرها السنَّة، والأمر يقتضي قراءة فحوى النص في اتجاه يفكّ القيد عن الإرادة، ويرفع الحصار عن الهمة، ويفعِّل محركات الانبعاث. (راجع ص:١١١)

ومن خلال العمل بمقررات السنَّة وطّد كولن الرؤية الاقتصادية، وأكد مسؤولية تخديم المال وتثميره في النفع العام، وعرف كيف يحوّل السنَّة إلى ثروة، يؤثل منها الكفاية والفوائض والغنى والرخاء. في هذا الصدد نراه يقرأ حديث "إذا تبايعتم بالعِينة" (رواه

أحمد) فيستنبط منه الإطار الأوسع والأنسب للمضي بالدعوة الخِدْمية قُدمًا. بل إنه يستقرئ من السنَّة فقه الندبة لإنشاء المؤسسات التي تكفل تموين الدعوة، وتضمن نسبة تحرير النفوس من الضغط الاقتصادي، احتذاء بما فعله الرسول الأعظم ﷺ بالمدينة المنورة، حين أنشأ السوق تخليصًا لمجتمع المسلمين من حكرة اليهود ومن نقص المواد. (راجع ص:٣١٧)

فالرسول ﷺ حين الهجرة كان عمليًّا، سارع إلى إرساء الهياكل التي تساعد على التفرغ للهدف؛ حيث بادر إلى تأسيس سوقٍ حرَّر التجارة من أيدي المضاربين.

الفقه السنّي كما أضحى يفقهه طلائع من السنيين ومنهم كولن، يمضي بنا بعيدًا عن الأرصفة الشكلية الخدّاعة إلى مجالات أرحب وأحفل بالمكارم والمحامد؛ فبتطبيق السنَّة في مظاهرها الحقوقية والمبدئية تظهر لنا ادعاءات وزيف شعارات الإنسانويين الغربيين، فهذه الشعارات التي جرّبتها دوائر غربية في ظل استعمارهم لأوطاننا كوجهٍ استغفاري يخفي جرائمهم هي -في أخف الأحكام- شعاراتٌ قاصرة عن بلوغ درجة الإحسان التي تلح عليها السنَّة وتحدو إليها تعاليم الرسول ﷺ. إنها شعارات تتجاهل البُعد الاحتسابي، وتُنكر الباعث الغيبي الإلزامي، والدافع الرباني الذي لا يغترسه في الصدور إلا الإيمان. فما أكثر ما صدرت عن روح تفضُّلية استعلائية هي من جنس ما يحظى به الحيوان من شفقة لدى هذه الدوائر. إن مبدأ "وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" يغيب عن روح هذه الشعارات الإنسانوية.

الداعية المسلم من خلال استلهام تعاليم السنَّة، يعمل على تنشئة إنسان من طراز الكُمَّل المقولبين في طراز مبادئ السنَّة، عكس طرز المدنية المادية التي

nesemat.com نسمات nesemat.com

يؤمن كولن إيمانًا راسخًا بأن رسالة "الرسول الأعظم" هي منبع للأمن والطمأنينة، ولكي تذوق الإنسانية هذه الطمأنينة مرة أخرى، فليس هناك إلا أن تهتدي بالنور الذي أتى به الرسول ﷺ.

يقودها ويؤثل قيمها وثقافتها الكسيحة فكرٌ أعرج، يؤجج البدعة وأساليب زرع الفتنة، وتجريف عوامل السكينة، وترجيح جانب العماية التبصُّرية.

الاشتحان بروح السنَّة ينتزع من النفس -على قدر التعبئة- خميرة الغي والتسفل، وهو ما يشير إلى بعض جوانبه كولن، إذ إن التغير البنَّاء الذي يطرأ على الإنسان وأخلاقه ونزعاته جراء الأخذ بجوهر السنَّة يعزز المعاني الرفيعة، ويقوِّي في الإنسان إنسانيته، ذلك لأن التحلي بكمالات الرسول ﷺ القلبية، يتيح التحول في القابليات والوجدانيات، ويضمن الترقي بالملكات والاستعدادات.

ولما كانت دعوة الرسول كونية، فإن مد حدود وآفاق الدعوة يُعَدُّ من رهانات المسلم التبليغية، وهو ما ينهض به كولن اليوم، ولا ريب أن منهجه في الدعوة أميز وأفذذ، إذ قَرَن التوصيل بالإحسان، وشفع الإيمان بالعمل الصالح، والتربية بالنفعية، والأخوة بالإنسانية.

يؤمن كولن أن الباب سيفتح على مصراعيه في وجه الدعوة متى ما استجممت الأمة قواها وامتلكت القَوامة المادية، إذ عندئذ يحصل للإسلام الفتح المبين، ويغدو في وسع الداعية المسلم أن يطرق الأبواب دون وجل وتردد ما دام الآخرون يرونه على كفاءة مادية وكفاية تجهيزية، وفي يده كتاب لا ينطق عن الهوى، عندئذ يكون المسلم على موعد تارة أخرى مع: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾(النصر:١-٢). تقع المماثلة في حس كولن،

حين يقابل بين الطلائع من الصحابة ومن أهل الصفة، وما صنع الإسلام بهم حين حولهم إلى مهندسين جددوا العالم، وبين فيالق "الخدمة" التي يقودها فيستشعر السعادة والحزن معًا؛ السعادة ليقينه أنه يسير على المحجة في ما يجتهد له من دعوة واحتساب، والحزن لعدم يقينه من قدرة الناهضين خلفه للارتفاع إلى مستوى ما ينتظره منهم الإسلام. فالمقابلة بين ما يعمر الذاكرة من صحائف المجد الباهر المتحقق على يد أجيال وعهود سلفت، وبين ما تباشره الكتائب تحت إدارته من إنجازات، يجعله لعرامة بواعثه الباطنية، يتوجس أن يكون الناتج والمردود أقل من المطلوب والمنتظر في هذا الرهان الذي يوقن كولن بأنه يصب في اتجاه مشيئة إلهية تريد لهذا الكون أن يُعمَر بالإسلام.

العلم علم بالسيرة

يؤصل كولن مفهوم العلم، ويركزه على حقل الفقه والدراية بالدين، ذلك لأن الفلسفة المادية المستفحلة ومُخْرَجاتِها الفكرية والمنهجية، قد شطَّت في الضلال والتيه بالإنسان المعاصر، انحيازًا لحقائق الحس على حساب حقائق الروح والقلب، فهيأت لظهور الإنسان المدجِّل باسم العلم، المغتر بالنتائج السطحية التي يستحصلها، الغافل عن الجوانب الأهم التي في وسعه بالإيمان أن يجتنيها من تفعيل القلب والروح؛ "نستطيع مشاهدة كيف أن الإنسان الذي افتتن بتيار الوضعية فأصبح يجري وراء إجراء التجارب على كل شيء، وكيف أن الحياة الروحية والقلبية لمثل هذا الرجل لا تتجاوز خط الصفر". (ص:٢٤٩)

إزاء رواج هذه الرؤية المعممة بفعل غلبة مادية عابرة أوقعت الإنسانية في الضياع، تتهيأ تعاليم سيد المرسلين لأخذ الزمام، فتسدي إلى البشرية المعروف، وتحصِّنها بالرحمة والرشاد في الآخرين كما فعلت ذلك بها في الأولين، حين نزل الذكر وآياته المفصلة، فأنارت الظلمات، وأوطنت الإنسان مركزه خليفةً لله في الكون وبين الكائنات.

"نحن نؤمن إيمانًا راسخًا لا شك فيه، بأن الرسالة التي جاء بها "الرسول الأعظم"، هي منبع للأمن والطمأنينة، والتاريخ أكبر شاهد على ما نقول. ولكي تذوق الإنسانية هذه الطمأنينة مرة أخرى، فليس هناك إلا حل واحد أمامها، وهو أن تهتدي بالنور الذي أتى به الرسول ﷺ، فكلما ازداد الإنسان معرفة به ازداد حبًّا له، وبهذه المحبة سيتغير وجه المجتمع". (ص:٢١)

السيرة الترياق

يوقن كولن بأن انعقاد نية الأفراد -مهما كانوا قلة- على خدمة الدين، مدعاة لحصول البركة والدعم الإلهيين، وأن النكبات والتهشمات المستهدفة لجدار الأمة تقتضي إعلان الاستنفار، واختيار الأحسم من أوجه العلاج وهو تفعيل سنة الرسول ﷺ. لقد وصفت السنَّة العلاج حين قررت أنه "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، ذلك لأن فواعل التردي الروحية والمعنوية المتجانسة مع علل التردي الجاهلي، قد باتت تصيب الدعائم وتراهن على تقويض الكيان من أسسه.

فالأسرة تفككت بسبب خروجنا عن نطاق التربية السّنِيّة، وسقوطنا في تعاليم تربية لائكية هي حرب معلنة على الدين. يَحدُث هذا لأن الأمة انتهت إلى حضيض بات فيه أمرًا واقعًا ما طفقت تعاليم الرسول الأعظم ﷺ تحذر منه؛ "يوشك الأمم أن تتداعى عليكم"، بل إن علامات ترهص لغروب ساعة الأخلاق

المكرِّمة للإنسان بدأت تلوح للعيان إن لم تتدارك الأمة الوضع، فتُعزَّ نفسها وكتابها بالعودة إلى السنَّة وتطابق بينها وبين مقرراتها.

السيرة النبوية دليل في يد كولن

في كتابات كولن تواجهنا ظلال السيرة النبوية الشريفة في سائر ما خط قلمه، فهي الإطار المرجعي الذي لبث يستمد منه رؤاه وينتسج به أرضية فكره، ويفصل مقاييسه على ضوء مقاييسها وموازينها... فالقارئ لتراث الداعية كولن، يتفاعل مع نموذجين أكملين من السيرة، لأنهما مترابطان كترابط الشمس مع القمر في استمداد أحدهما النور من الآخر، فهناك السيرة الأمّ وهي سجل الوقائع الجهادية التي خطها الرسول ﷺ على مدى عمر الدعوة، وهناك سيرة السيرة المتمثلة في إنجازات الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان عبر تلاحق العهود والمراحل. في هذا المستوى السِّيَرِي يحضر التاريخ العثماني موصولاً باللحمة الدعوية والتبليغية التي أعطت إشارةَ انطلاقها البعثةُ النبوية المشرَّفة، وتتلاحق حلقات هذا التاريخ بأجيال الفتح واستلام راية الخلافة إلى جيل "الخدمة"، واسترداد زمام الدعوة، ونشر رسالة الله ﷻ إلى العالمين.

كولن وتمثل السيرة

برنامج الاقتفاء يقوم على مبدأ اتِّباع خطة النبي الدعوية. فقراءة كولن للسيرة كانت تحرص على تثمير بُعدها الروحي "على صعيد بناء الفرد"، وبُعدها الإنجازي "على صعيد بناء كيان الأمة"، وذلك بتقمص بيانيات الرسول الأعظم في مجال الترشيد، وهضم مخططاته التأسيسية في مضمار المدنية، والعمل من ثمة على تنفيذها واستفراغ الجهد في

لم يبلغ عظماء الأمة في حقل الإيمان ما بلغوا من درجات الكمال إلا لأنهم تمثلوا بالقلب والجوارح سيرة النبي ﷺ، فنالوا المقامية في ضمير الأمة.

تحقيق مقاصديتها، إيمانًا منه (فتح الله كولن) بأن السيرة مثلما هي السقف من حيث طبيعة المقررات والتعاليم، هي أيضًا السقف من حيث نجاعة الأسلوب والكيفية والمنهج الترشيدي الاستقطابي.

لقد تجاوز الرسول ﷺ أطواق العداوة التي ضُربت عليه من القبائل والأمم، وطاولها بصبر خارق، ثم تخطاها وجعل من غُلاة العدائيين -قبائل وأممًا- أتباعًا خُلَّصًا استبدلوا سَوْرةَ الكفر، وحوَّلوها طاقةَ حبٍّ للإسلام ونبيّه، وتفانوا في تبليغ رسالته الخالدة إلى العالمين.

بل إن هذا التمرّس الاسترشادي بالسيرة، كان بالنسبة لـ"كولن" عامل دعم إجرائي في إقامة صرح الخدمة الدعوية، وباعث يقين في سلامة المسرى ونجاعة المتجَّه والسبيل. فانتداب عُمَّار الأوطان من أهل "الخدمة"، إنما هو اقتفاء عملي لنهج الرسول ﷺ، إذ أرسل ﷺ وهو في غمرة المساجلة لتوطين الدين والتوحيد، رجالاً عمروا الأوطان ولم يقتصروا على فتح المساجد والكتاتيب، وإن جعلوا منها حجر الزاوية في إقامة ما استنجزته الفتوح الإسلامية عبر الأرض من مشايد وعمائر وسبقيات حضارية باهرة. لقد أولى ﷺ الإنسانَ وتكوينه العناية البالغة، من هنا تمكنت الدعوة وأمدّت جذورها في الأرض.

إن احتذاء السيرة الذي يراهن عليه الربانيون في ضمان السدادية، هو من العناء والمكابدة ما يتضاهى

مع مستوى تلك التحولات الروحية والنتائج المدنية المجتناة على يد النبي وصحابته الممجدين، بل إن احتذاء السيرة هو تجشم -مليء بأنواع الاستبسال- لذلك المسار الشاق المديد من العراكات والفجائع والضربات التي عاشها الرسول ﷺ وهو يدأب ويدبّ كدبيب النمل وكحركة الظل، تغييرًا لكينونة وجود شركي لا إنساني، كانت مشيئة الله تقتضي أن يتعدل ويأخذ صورته السوية النهائية على يد خاتم المرسلين. وما أشقها مهمة يحتذيه ﷺ فيها الصالحون وما أشرفها مأمورية يتبعه فيها الصادقون.

كانت سيرة الرسول ﷺ ملحمة عارمة من الامتحانات والابتلاءات والانكسارت المتصاعدة في الشدة والوخامة والدرامية، بَيْدَ أنها كانت تتكلل في كل شوط بالقار، وتتوج في كل فصل بالنصر، عابرة إلى أهدافها على جسور من جمر وشوك؛ فاختيار السيرة منهجًا يعني -بالنسبة لأهل العزم- اختيار طريق الاستشهاد المعنوي بله المادي، لأن من يسلك سبيل المصطفين لا بد وأن يعلم أن التمحيص باهظ والتبعات باهرة.

التماهي في السنة اختيار معرفي باسل، ينحاز إيمانيًّا إلى الحقيقة المنزلة الوطيدة في تعاليم الأنبياء والرسل وفي مقدمتهم محمد ﷺ؛ "إن رسولنا ﷺ قد تحمل عبئًا كبيرًا مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عامًا بإيفاء حق وظيفته بنجاح منقطع النظير". ولأن كولن توخى تكريس قواعد التسنن في المجتمع، فهو لذلك يعلن عقيدته الاتباعية، ترشيدًا للأتباع حتى يكونوا اتباعيين عن جدارة.

والتابعون -كما نعلم- على مستويين؛ مستوى التابع الداعية المراعي في علاقته بالنموذج الأكمل النبي ﷺ، ومستوى التابع العامل المراعي في علاقته للداعية، باعتبار الداعية جسرًا دالاً على طريق الخيرات. ضمن هذه التراتبية تتأسس الجماعات الدعوية والعُصَب الإحسانية وينتظمها النشاط الخيري. فإذا ما اطرد الحراك وتجذرت الثوابت واطردت المسيرة، يأتي الانمحاء والتواضع فتتوطد الصلة بين الفرع والأصل، بين العبد والرب، بعد أن يتم تخريج الفيالق، ويكبر الاحتياط النوعي على يد الربانيين.

من هنا كانت الحاجة إلى الاحتجاب الذي يلتزمه أولو الصلاح بعد تأسيس الحركات واطراد عطائها، إذ يتحولون إلى مستوى استمدادي إلهامي تعم بركاته حيثما توسعت حدود الدعوة وامتدت أبعادها. إنهم غير معنيين بتاتًا بجني الثمرة، لأن سعادتهم؛ في رؤية الأتباع قد رشدوا ونضجوا وأضحوا في مستوى الوفاء لرسول الله ﷺ، إذ لا قداسة في الإسلام لغير الله. وإن ما ينتكس بالحركات الدنيوية، هو سرعة تهافت المؤسسين على جني الثمرة، فلا يترددون في أكلها مُرَّة حصرمًا، لأن الأعمال الدنيوية وازعها حساب الربح والمكسب، والشيطان من ثمة قسيمها. "فالأنبياء أسوة حسنة لنا وهم أئمتنا، فكما نتبع الإمام في الصلاة نتبع الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ونقتدي بهم، ذلك لأن الحقيقة بالنسبة إلينا يمثلها نبيّنا والأنبياء الآخرون. والصحابة الذين عاشوا عهد الرسول ﷺ اقتدوا به، لذا وصل هؤلاء الصحابة والتابعون لهم إلى هذه المنزلة التي بيّنها رسول الله ﷺ في حديثه: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم" (رواه البخاري) والاقتداء بهم يكون بالالتزام بمقررات سننهم، والعمل على التشبه بهم قلبيًّا وجوارحيًّا. (ص:٦٢/٦١) بتصرف

استقراء السيرة وقوانين النجاح

إن كولن إذ يفتأ يُنَبِّه إلى ما يميز السيرة النبوية من جهاد بنائي ومغالبة وعريكية، فلأنه يريد لهذه الصفات أن تنغرس في الرجال الناهضين بمشاريع "الخدمة" بين يديه، إذ يمثلون له طلائع فجرية ريادية ستلحق بهم مدود، لتكبر الحركة التبليغية وتملأ الآفاق.

وإنه ليتمعن في ما دأب كُتَّابُ السيرةِ يعتبرونه انكسارات عرفها الرسول ﷺ في صراعه ضد الجاهلية، فينظر إليها من زاوية المآل، فإذا هي ليست انكسارات أو هزائم، إنما تنبيهات إلهية تصلبت بها الدعوة واكتسبت القوة والقدرة على المضي في سبيلها قُدمًا، وأضحت بواعثها وعواملها دروسًا إلى الخلَف والأمة تعصمها -متى لم يجانبها الرشد- من العثار.

فالهزيمة تكون حين تُثنينا العوائق، وتكسر فينا عمود الهمة والكرور، وتصدنا عن سواء السبيل... إنما شرط انتصار معارك الحق، أن يتجمل أصحابها بالصبر وروح المطاولة؛ فكل خطوة خطاها كانت مقدمة للخطوة القادمة، فلم يخطُ خطوة واحدة إلى الخلف.

خطة تشبيب القيادة

لقد وجدنا كولن -باعتباره رائد مشروع خِدْمي نهضوي- يستلهم من السيرة خطة تشبيب القيادة؛ إذ يرى أن في قرار النبي ﷺ تقديمَ أسامة بن زيد على رأس الجيش، درسًا يفيد الأمة من حيث واجب مراعاة التجدد في الأجيال العاملة. ولذا نراه (كولن) يرشد "حركة الخدمة" ويوجه متنورة الأمة وقادة الرأي والحراك فيها، بل وكل من يخوض غمار الدعوة والاستنهاض، إلى وجوب الانتفاع مما تكتنز به تعاليم الرسول ﷺ لا سيما في مضمار استزراع طاقات الفتوَّة،

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن فلسفة الدعوة لدى كولن، انبنت على أسس التزامية اقتدائية احتسابية، تتوخى إحياء السنة وبعث تعاليمها، تخليصًا للإنسان المسلم، مما حاق به من فكر جحودي شنيع.

ذلك لأننا بإشراك القوى الناشئة، وإسناد المهام إليها، ودعمها بأولي الحصافة والدهاء والبصيرة، نضمن الاستمرار ونهيئ الخِلفة ونراهن على الفاعلية، ونكفل للمشاريع المصيرية التنامية والتوسع، إذ العراك كما ينهض على الحكمة والرشاد، ينهض كذلك -وبصورة أحسم- على التجدد وقرن الفتوة بالحلم والخبرة.

ونراه يقف عند بعض الأحداث كـ"هدنة الحديبية" التي اهتزت فيها روح الجماعة من حول النبي ﷺ بطروء ما لم يكن منتظرًا في الحسبان، ويترسم ملامح الانبعاث وتجديد الكرَّة في ما لابس ذلك الظرف الصعب من عوامل الإحباط، مستخلصًا الكيفية الحصيفة التي أمكن بها للدعوة أن تتخطى التأزم، وتتجاوز البلبلة في الصفوف. وإن من القواعد التي يُرسيها انطلاقًا من فقه السنَّة، أن إستراتيجية التغلب على الصعاب على مبدأ المرابطة، وحدة الفكر والحركة، انسياقًا مع ما وعد الله به "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" من خير وبركات.

المرأة ومكانتها في السيرة

لما كان مشروع "كولن" مفتوح الآفاق على النهضة، كانت المقاييس التي قوّم بها الإنسان "الذي هو الحجر الأساس في بناء هذه النهضة"، تنبثق من صميم معايير السنَّة المطهرة في تحديد مكانة الرجل والمرأة في المجتمع، وبيان درجة المشاركة في الجهد، ومستوى الإناطة المسندة لكلٍّ منهما في الأداء والإنجاز.

ولما كانت الأبعاد الروحية هي الأساس والأرضية التي تستند عليها رؤية الداعية كولن، فقد توقعنا أن تكون مساحة حراك المرأة مساحة متحفَّظًا عليها بحكم ما توهَّمناه -خطأ- من مصادرة لمكانة المرأة باسم الشرع، غير أننا رأينا كولن -وكشأنه في تقرير المبادئ الشرعية- يستحضر من السيرة الوقائع النيرة التي كانت المرأة فيها عاملاً حاسمًا في الانعطاف بالدعوة من اتجاه إلى اتجاه، بدءًا من تبنّي خديجة ﵂ للوحي وإنفاقها على الدعوة دون حساب، إلى صبر أمهات المؤمنين على البلاءات التي نالتهن لقربهن من النبي ﷺ، إلى موقف التعضيد الذي كان لبعضهن في أوقات الأزمة (موقف أمّ سلَمة يوم الحديبية)، إلى مناضلة بعضهن بالسهام دفاعًا عنه ﷺ (ثبات نسيبة بنت كعب أم عمارة) ومحاماتها عليه ﷺ بجسدها وسلاحها، والسهام تنوشه في أدق ساعات أحد؛ إذ انبرت تحمي وتدفع وتهيب بالمصدومين؛ "وكم هو حاسم صوت الحرة حين يعلو، يحدو إلى التضحية والموت نفاحًا على الكرامة".

من تتبُّع يقظ لسيرة البطلات ممن احتللن الصف الأول في صناعة وقائع الدعوة وتاريخها، يستنبط كولن مبدأ مساواة الرجل والمرأة في الإسلام، فكلما اقتضت الحتميات من المسلمة أن تسفر عن وجهها، وتمتشق السيف أو القلم، المبضع أو المجرفة، بادرت إلى التجند دونما تردد، مسنودة في ذلك بحماية الله ورعايته... فهي في الواجبات كما في الحقوق مماثلة لأخيها الرجل سواء بسواء، يقول كولن: "لم تكن مهانة المرأة وتحقيرها والحط من شأنها قاصرة على عرب الجاهلية وحدهم، فالوضع نفسه كان موجودًا في الإمبراطورية الرومية والفارسية، لذا يمكن القول بأن ما قام به الإسلام فيما يتعلق بعالم المرأة بين عرب الجاهلية، يُعدّ عملاً لا مثيل له في قضية المرأة على نطاق العالم بأسره".(ص:٢٩)

يضيف: "المرأة والرجل نصفان متكاملان، ولا قوامة لأحدهما من غير الآخر. فلا تزال المرأة حتى لدى الذين يدعون الدفاع عن حقوقها إنسانًا من الدرجة الثانية، بينما نحن ننظر إليها باعتبارها نصف الوحدة الواحدة، فهي النصف الذي لا ينفع النصف الآخر بدونه، ومن اجتماع النصفين يتم تشكيل الوحدة الإنسانية الواحدة. فليس في الإسلام تفاضل بين الذكر والأنثى، وهذا ما أظهره الرسول ﷺ بنفسه، وأبانت عنه السنَّة المزكاة في عديد من المواطن". (ص٢٩٣)

وختامًا، فلا ريب أن محبة الداعية كولن -وكل رباني- للنبي الكريم ﷺ، أوشكت أن تكون فطرة تنبع في صميم ما في النفس من استعداد عشقي، تغدو به النبوة هي المحبوب الذي يولِّه القلب، وهي المعشوق الذي يشغف الفؤاد؛ لقد كان سلوك المواظبة على تأدية الصلاة التي بدأها كولن في عمر الغضاضة، إحدى العتبات التي ارتقاها، واشرأب منها صوب مطالعة الأنوار المحمدية، ونافذة يستروح منها نسائم السكينة والتزكية، والعنوب إلى وجه المحبوب ﷺ في كل آن. فمن ثمة غدت عنده سمة التبعية للسنة والسلف الكرام جبلة وطبيعة متأصلة وخيارًا في ذات الآن. فلا غرو نراه يردد: "أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي أدَّعي أنني وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون قطميرًا له ﷺ". ■

المراجع

(١) كل أرقام الصفحات معزوة إلى كتاب "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية"، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط٧، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

الخدمة تفجر ينابيع الخير الكامنة في الإنسان

سعيد بويزري

أ.د. سعيد بويزري، أستاذ بكلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر. أمين المجلس العلمي بمؤسسة المسجد لولاية تيزي وزو، وأمين مجلس الصلح بولاية تيزي وزو. له عديد من المؤلفات والمقالات والأبحاث والدراسات ومنها: مدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية، تفسير سورتي الفاتحة والبقرة. شارك في عديد من الملتقيات والحلقات العلمية وهو ضيف دائم على عديد من البرامج الإعلامية. حصل على عدد من الأوسمة والجوائز والدروع.

تجربة واقعية حية زار فيها شخصيتان أكاديميتان وازنتان من المغرب والجزائر؛ الدكتور محمد إقبال عروي، والدكتور سعيد بويزري، مناشط "الخدمة" في إقليم كردستان العراق، ووثقوا تجربتهم من خلال هذا الحوار الذي أجراه معهم نوزاد صواش جاء فيه:

"بالنظر إلى الأنشطة التي عايشناها والزيارات التي قمنا بها، تأكد لي أن فكر الأستاذ كولن، قد أسهم بدور مهم في الأمن المتحقق في هذا الإقليم. ففكر الأستاذ بطبعه يدعو إلى الإسهام في تحقيق الأمن والسلام والتسامح في أي بيئة يعيش فيها؛ حيث يجعل التربية والتعليم مداخل قوية لتأسيس هذه القيم... ففي المدرسة نفسها تلاميذ وتلميذات من مختلف الجنسيات والعرقيات والألوان والأديان" (محمد إقبال عروي).

"لاحظنا كيف حُولت الأفكار إلى إنجازات؛ الأستاذ فتح الله كولن -حفظه الله- كان يدعو دائمًا إلى ترجمة الأفكار والقيم في شكل ملموس، فيدعو إلى تحويل هذه الأفكار إلى كائنات حية تسري في الناس. لقد استبشرتُ خيرًا مما رأيته من خلال استثمار التنوع، تنوع في المجال الديني، والمجال الثقافي، والاجتماعي واللغوي. فهذا الاستثمار قد شكَّل روافد تقوي المسيرة الحضارية" (سعيد بويزري).

نوزاد صواش: بعد أن حلَّقنا مع علمائنا وأساتذتنا الأكارم إلى بلدٍ خارج تركيا، واطلعنا على تجربة "الخدمة" من خلال مناشطها المختلفة، سنناقش في هذا الحوار ما شاهدناه وما رصدناه هناك، الأفكار التي ولّدت هذا النشاط، أنواع هذا النشاط، تداعياته، تفاعله مع المجتمع... معنا في هذا الحوار ضيفان كريمان عزيزان معروفان؛ الأستاذ الدكتور محمد إقبال عروي أستاذ التعليم العالي في المغرب، والأستاذ الدكتور سعيد بويزري من الجزائر.

أساتذتي الكرام، قضينا في إقليم كردستان العراق يومين، اطلعنا فيهما على تجربة "الخدمة" التي كان الأستاذ "فتح الله كولن" هو الملهم لها. نحن بالطبع كنا نسمع عن هذا الإقليم (كردستان العراق) من خلال أخبار مختلفة، من خلال المشاكل التي تثور في المنطقة، المشاكل القديمة أيام صدام حسين؛ مأسات حلبجه، والمظالم التي تعرض لها الشعب الكردي هناك... وفي هذه الأيام الآن توجد داعش والتطرف الذي تمارسه، والمشاكل التي تعصف بالمنطقة عصفًا.

لكننا في مقابل ذلك وجدنا هناك رجالاً ونساءً حملوا معهم مشاعل مختلفة عن المشاعل التي يحملها العسكري الجندي أو السياسي، حملوا معهم مشاعل المدرسة، التعليم، المعرفة، وذهبوا إلى كردستان العراق سنة ١٩٩٣.

شخصيًّا، لقد أذهلني ما شاهدته هنا، فقد حدَّثَنا القائمون على النشاط هناك عن حوالي ٤٠ مدرسة منتشرة في ٧ ولايات من أرض العراق، حوالي أكثر من ٣٠ مدرسة متوزعة في العراق؛ أربيل، السليمانية، دهوك، حلبجه، كركوك، الرمادي، الموصل -طبعًا قبل داعش- بغداد، البصرة... يعني هذا عالم جديد بالنسبة لنا، أحب أن أسمع انطباعاتكم بصفة عامة.

أظن أن هذه هي الزيارة الأولى للمنطقة، هل كنا نتوقع أن نرى هذا؟! وما المشاعر الأولية التي أحسستم بها في اللحظة الأولى عندما رأيتم هذا الخير؟

محمد إقبال عروي: أمانة إذا كانت هذه البداية، بداية الحديث عن المشاعر، فاسمحوا لي أن أركز على حالة بسيطة لكن لها دلالة؛ فعندما وُجِّهت إليّ الدعوة لكي أزور "إقليم كردستان"، حدَّثتُ بعض أصدقائي وزملائي عما يعرفونه عنه، وكانت المفاجأة القوية هي أن جميعهم حذروني من المكان، جميع من أخبرته كانوا يتوجسون. لكن بمجرد ما بدأنا نتواصل مع الناس، ونخرج لزيارة هذه المدرسة أو تلك أو هذه الجامعة، أو هؤلاء الأساتذة الباحثين، أو هؤلاء المفكرين والمشايخ، ترسخ في ذهني أن هذا بلدًا آمنًا. نسأل الله ﷻ أن يُمتِّع سائر البلاد العربية والإسلامية وسائر بلدان العالم بالأمن والسلام.

لكن الإنسان بخبرته في الحياة لا يكتفي بهذا الظاهر، وإنما يسأل عن الأسباب الكامنة خلف هذا الأمن الذي -مع الأسف- لا تُصدِره وسائل الإعلام، أو لا تريد -لهدف من الأهداف- أن تصدره إلى المشاهد العربي والإسلامي والعالمي. من حق الباحثين الاجتماعيين، من حق الدارسين، من حق المحللين، أن يبحثوا عن الأسباب، لكن بالنظر إلى الأنشطة التي عايشناها والزيارات التي قمنا بها، تأكد لي أن الفكر الذي بشّر به الأستاذ محمد فتح الله كولن -حفظه الله- هو الذي يكمن وراء جانب كبير من هذا الأمن المتحقق هنا. يتجلى هذا الدور في أن فكر الأستاذ بطبعه يدعو إلى أن يُسهم كل شخص في تحقيق

-ولو نسبة ضئيلة- الأمن والسلام والتسامح في أي بيئة يعيش فيها. هذا الفكر يجعل التربية والتعليم مداخل قوية لتأسيس هذه القيم. وهذا الاجتهاد الذي أشرتم إليه من سنة ١٩٩٣ إلى اليوم، يؤكد أن مدارس الخدمة اشتغلت من بين ما اشتغلت عليه هذا الجانب. خاصة، وأنها ترسخت في المنطقة الكردية التي لا أسمح لنفسي بأن أتحدث عنها، لأنني لست متخصصًا في المجال، ولكن أشير إشارات عابرة؛ أنها منطقة متنوعة من حيث الأعراق، والإثنيات، والأديان، والمذاهب، والاتجاهات.

نوزاد صواش: ومن حيث المشاكل التي تعيشها المنطقة وتتقلب فيها من حين لآخر.

محمد إقبال عروي: نعم، جزء من هذه المشاكل، لاحظتُ أن الإقليم ضحية لها؛ فهي لم تصدر هذه المشكلات، لكن هي ضحية لاعتبارات تاريخية، حضارية، اعتبارات سياسية معاصرة... إلخ، هي ضحية لهذه المشكلات. لكن الأفراد الذين انخرطوا في التأسيس لهذه التربية وهذا التعليم المتميز في مدارس الخدمة، قد وضعوا من ضمن ما وضعوا من أهداف، أن يسهموا في تقليص هذا التوتر الذي يمكن أن ينفجر في أي لحظة، فلذلك تجد في المدرسة نفسها، تلاميذ وتلميذات، منهم العربي والتركي والكردي، بل ومنهم المسلم، وغير المسلم.

فنوع الخطاب، نوع القيم التي تبثها هذه المدارس، هو الذي يسمح بأن ينشأ جيل جديد قادر على أن يتجاوز هذا الركام التاريخي من المشكلات ومن المحن ومن الخلل الذي تسلل إلى العقل العربي والعقل المسلم.

نوزاد صواش: دكتور سعيد، باعتبارك تشرف على مجالس الصلح في الجزائر في المناطق ذات الخصوصية

إن فكر الأستاذ فتح الله كولن بطبعه، يدعو إلى أن يُسهم كل شخص في تحقيق -ولو بنسبة ضئيلة- الأمن والسلام والتسامح في أي بيئة يعيش فيها، وهذا الفكر يجعل التربية والتعليم مداخل قوية لتأسيس هذه القيم.

nesemat.com نسمات nesemat.com

والحساسية هناك، هل فاجأتك المناشط الموجودة هنا من مدارس، وجامعة، ومؤسسات حوار، وجمعيات رجال أعمال، عمل ثقافي، عمل إغاثي... هل كنت تتوقع هذا؟ كيف تقيمه؟ وما دوره في حل بعض النزاعات والمشاكل الإقليمية؟

سعيد بويزري: لا شك أنني شعرت كما شعر أخي محمد إقبال بسعادة غامرة تملأ حدائق قلوبنا من خلال ما رأينا من إنجازات ومن مشاريع. كيف حُوِّلت المشاعر -مشاعر حب الخير- إلى إنجاز مشاريع. فتحويل المشاعر إلى مشاريع، هذا مظهر الصحة. لاحظنا كيف حُوِّلت الأفكار إلى إنجازات. الأستاذ محمد فتح الله كولن -حفظه الله- كان يدعو دائمًا إلى ترجمة الأفكار والقيم في شكل ملموس، فيدعو إلى تحويل هذه الأفكار إلى كائنات حية تسري في الناس. لقد استبشرتُ خيرًا مما رأيته من خلال استثمار التنوع، تنوع في المجال الديني، والمجال الثقافي، والاجتماعي اللغوي... فهذا الاستثمار شكَّل روافد تقوِّي المسيرة الحضارية، وطبعًا نحن لا ننسى بأن منطقة أربيل والسليمانية والعراق -بشكل عام- كانت مهدًا لحضارات كبيرة جدًّا، من أقدم الحضارات. ومدينة أربيل بالذات من المدن التاريخية الكبرى التي لم تنقطع فيها الحياة منذ أكثر من سبعة الآف سنة، ولكن هناك تراكمات ومشكلات كثيرة جدًّا تراكمت وعطلت هذه المسيرة،

فأتت مدرسة "الخدمة" لتعمل في هذا الاتجاه؛ تستثمر عوامل النهوض الحضاري، تستثمر الإسلام في قيمه ومبادئه، في بناء الإنسان الذي يبني الحضارة. ولا شك أن الحضارة لا يمكن أن تقام إلا بالاهتمام بالعنصر الأساس وهو "الإنسان". ثم مما أعجبني كثيرًا هذا التنوع في المناشط؛ فلم تنصرف الجهود إلى مجال معين، بل كانت حاضرة حضور التجربة (تجربة الخدمة) في جميع المجالات، فكأنها فجرت ينابيع الخير الكامنة في الإنسان. فنجد بعض الناس مهيئين للعمل العلمي للتعليم، فـ"الخدمة" استثمرت في هذا المجال، وهناك من هو مهيأ للمجال التربوي، أو المجال الإعلامي، أو مجال الأعمال والأموال... فمعرفة الإنسان، ومعرفة الطاقات الكامنة فيه، واستثمار هذه الطاقات، توفيق من الله، واجتهاد من "الخدمة". رأينا الشيء الكثير، نسأل الله ﷻ أن يحول هذه المنطقة إلى قلعة حضارية كبيرة، تمهيدًا لاستعادة الحضارة المفقودة، سواء في هذه المنطقة العزيزة إلينا جميعًا العراق، أو في ربوع الأمة قاطبة.

نوزاد صواش: دكتور إقبال، أعرف اهتمامك بالفن والأدب، وأذكر في مجلس من المجالس عندما جلس المدرسون والمدراء يحدثوننا عن أيامهم الأولى (التسعينات) أيام الحرب، خرج الجميع من المدينة أربيل، وتحولت إلى مدينة مهجورة، لكن المدرسين بقوا هناك ولم يخرجوا، أنت قلت هذا يستحق أن يكون سيناريو لفيلم واقعي، فهل يمكن أن تصف ما حدثنا المدرسون عنه؟

محمد إقبال عروي: فعلاً، أستاذي نوزاد أستسمحك قبل أن نفتح هذه الواجهة واستئنافًا لما قاله أستاذي الكريم سعيد، في الواقع هذا الانخراط الذي يبدو أنه متنوع ومتعدد، يعود إلى عقل يحسن التدبير، ويحسن استشراف المستقبل الذي يمكن أن يفيد الأمة. لأول مرة أشعر وأنا أتابع مناشط مدارس الخدمة في أربيل أنه لم يكن بالإمكان الانخراط في هذا العمل المتنوع المتعدد إلا بعد مهارة دقيقة في التشخيص. أزمتنا اليوم -وأنا مقبل عليكم من العالم العربي- لا يمكن أن ندخلها في خانة اليأس والأزمة والخلل، لكن التوصيف العلمي يقتضي أن نقول هذا الكلام؛ نحن نحب بلداننا ونريد لكل بقعة في عالمنا العربي والإسلامي، بل نريد للإنسانية جمعاء أن تكون في أحسن حال، سواء على المستوى النفسي، أو على المستوى الاقتصادي، أو على المستوى التربوي، أو في كافة المستويات.

لكن التوصيف لا يعني أننا نجلد ذواتنا أو أننا ننتقد بلداننا، بل يقتضي أن نذكر أن الفكر الإسلامي لحد الساعة -ومن قبله ومن بعده الفكر العربي- لم يوفق إلى تشخيص دقيق حكيم لأزمة الأمة، ولذلك ظهرت توصيفات في هذا التشخيص معظمها كان توصيفًا ناقصًا قاصرًا، ومعظمها أبقى على الأزمة، وهو يراهن على حلها. فمن التوصيفات ما يقدم الأزمة على أنها أزمة سياسية، أو اقتصادية، ومن التوصيفات ما يقدمها على أنها أزمة أخلاقية، أو تربوية تعليمية... إلخ.

في الواقع منطلق الأستاذ فتح الله كولن -وهذا واضح في كتاباته ومؤلفاته، أو على الأقل التي تُرجم منها إلى اللغة العربية- واضح أن التشخيص كان تشخيصًا متكاملاً متوازنًا، بحيث لم يُغفِل جانبًا من الجوانب. هذا التشخيص المتكامل الشامل المتوازن، هو الذي نحتاجه في بيئاتنا، ولذلك أنت لا تستطيع أن تفصل المناشط في الجانب الإعلامي عن غيرها في

الجانب التربوي أو الجانب الاقتصادي، وهكذا. ولذلك نجد أن فتح الله كولن لم ينخرط في ذلك التوصيف الذي يقول إن سبب أزماتنا هي أسباب سياسية، وأنه عندما تتغير الأنظمة تتغير المجتمعات نحو التقدم والعدل والرفاهية. وهذا ما يفسر أننا زرنا مختلف المناشط التي تقوم بها مدارس الخدمة؛ زرنا مؤسسة رجال الأعمال، ومؤسسات تربوية، زرنا الجامعة، ومؤسسات إعلامية في أربيل. وقد حدثنا الأساتذة عن العمل الإغاثي، والذي كان في لحظة حاسمة، حيث إن العديد من المتشدقين بحقوق الإنسان وبخدمة الإنسانية فرّوا من أربيل، فرّوا من السليمانية، فرّوا من كركوك، فرّوا من بغداد، لكن مدارس "الخدمة" بقيت هناك تتولى شأن التربية والتعليم لأبناء تلك المناطق. وهذا الذي أثار انتباهي، لم نزر مقر حزب لمدارس الخدمة، يعني هذا أن الشأن السياسي غير داخل في الاعتبار الذي أدخله بموجبه الإنسان العربي، فاشتغل بما هو سياسي على حساب المناشط الأخرى التي ترتبط بالإنسان بشكل قوي، إلى درجة أنك تستطيع أن تقيم هذه المعادلة، أنه كلما انخرط الإنسان في العمل السياسي فقط مستبعدًا هذه الجوانب التربوية الإنسانية، بدءًا بإصلاح نفسية الإنسان وتزكيته، ومرورًا بتصحيح المفاهيم المتعلقة بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وبعلاقة الإنسان بمن يخالفه في العقيدة والمذهب وما إلى ذلك... إذا لم تستطع أن تتناول موضوعًا بهذه الشمولية، فهذا العمل السياسي حتمًا سيكون أداة من أدوات الهدم وأنت تريده أن يكون أداة من أدوات البناء. هذا التشخيص القاصر تجاوزه الأستاذ فتح الله كولن.

ثم نقطة أخرى مهمة، فتح الله كولن رأى برؤيته الاستشرافية، أن الدولة الحديثة مثقلة بالمسؤوليات والمهام، وأنها عاجزة عن أن تحل مشكلات الإنسان، مشكلات المواطن، وخاصة المشكلات التقليدية والقضايا التقليدية من تعليم وتربية وطبابة وما إلى ذلك، وتقديم خدمات وما إلى ذلك. هو أدرك بحسه وبرؤيته الاستشرافية، أن الدولة الحديثة مهما كان شأنها فهي عاجزة عن أن تلبي جميع هذه المطالب لجميع المواطنين. فلم يراهن على مؤسساتها، وإنما شجع على إنشاء مؤسسات تنتمي إلى القطاع الخاص، وتنتمي إلى المجتمع المدني. ومن هذا الباب فإن المقبلين على دراسة فكر فتح الله كولن، حتى ولو لم يعنيهم الشأن التربوي الديني القيمي، عليهم أن يستفيدوا من هذه الخبرة. إنه يبشر بهذه المقولة التي أصبحت الآن تتصدر التخطيطات الإستراتيجية للدول المتقدمة، أو ما يمكن أن نطلق عليه "تنمية فكر المجتمع المدني". إنه ليس قوة بديلة عن الدولة، وليس قوة ضد الدولة، وإنما هو

محمد إقبال عروي

أ.د. محمد إقبال عروي، دكتوراه الدولة في علوم القرآن، "بديع القرآن: دراسة نقدية مصطلحية"، كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس.
عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، منذ ١٩٨٥.
مستشار في شؤون الأدب والتفسير والفكر والثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت منذ سبتمبر ٢٠٠٥ إلى اليوم.
عضو اللجنة العليا لمركز الكويت للفنون الإسلامية.

قوة مكمِّلة للدولة، تأخذ عن الدولة بعض المسؤوليات لتنجزها للمواطن. وهذا ما يفسر أن أعمال الإغاثة تعجز الدولة أن تقوم بها وحدها، فمدارس الخدمة تنشئ مؤسسات للإغاثة.

نوزاد صواش: هناك حديث عن الديمقراطية الحديثة المتطورة التي تُعنى بتقليص دور الدولة وتفعيل دور المجتمع.

محمد إقبال عروي: نعم، فعلاً إلى درجة أننا نستطيع أن نصوغ قاعدة أنه "كلما سُمح بفعاليات المجتمع المدني أن تنشط وأن تعمل، تقلصت المشكلات التي تعاني منها الدولة".

نوزاد صواش: دكتور سعيد، هناك شحذ مستمر لفكرة الثورة؛ فالمواطن يطلب من الدولة أن تؤمِّن له كل شيء، وإن لم تفعل يبدأ بالثورة، هذا المواطن الذي يطالب بحقوقه -في ظل دولة تعجز عن تقديم بعض الخدمات- يؤدي في النهاية إلى نوع من الاحتقان والمواجهة بين الطرفين، فهل نحن هنا أمام طرح جديد؟ أعني ليس الأمر متعلقًا بالمطالبة بالحقوق فحسب، هناك شعور بالمسؤولية.

سعيد بويزري: الدولة الحديثة تقوم على عدة أركان؛ منها رعاية حقوق المواطنين، ومنها تقرير فتح الفضاءات أمام المجتمع المدني ليؤدي دوره. أخي محمد إقبال قبْل حينٍ قال إن هناك بعض المجالات تعجز الدولة عن أدائها، فإذا سُمح للمجتمع المدني أن يتحرك في الفضاءات المتاحة في المجتمع، فسيصير هذا المجتمع المدني مكمِّلاً للدولة، وهكذا تتحقق النهضة. إذن التكامل يتحقق بين جميع المؤسسات الرسمية والمؤسسات الشعبية أو الأهلية.

نوزاد صواش: المؤسسة الرسمية أليست هي أيضًا مظهر من مظاهر المجتمع في نهاية الأمر؟

سعيد بويزري: نعم، أقصد الحكومية والأهلية، أما ما يتعلق بلغة الواجبات والحقوق، فإذا عدنا لشرع الله ﷻ يمكن القول إن المسلم مكلَّف، وهناك مصطلح معروف في الشريعة وهو التكاليف، فإذا غلَّبنا جانب التكاليف أو الواجبات على الحقوق تحققت إقامة الدين في هذا المجال الحيوي. لقد أُمرنا بإقامة الدين، وهنا أستحضر كلمة لبديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- يقول: "لولا الدين لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب"، والقرآن يأمرنا بإقامة الدين، فأقول إن أداء الواجبات هو أكبر ضمانة للحفاظ على الحقوق -هذه في غاية الأهمية- أما تغليب لغة الحقوق، وكل إنسان يقول حقي حقي حقي، فقد تضيع الحقوق وتضيع الواجبات معها.

نوزاد صواش: كيف يتجلى ذلك؟ أو ما مظاهره في المجتمع؟

سعيد بويزري: من تجلياته الشعور بالمسؤولية؛ كل إنسان مسؤول، نبينا ﷺ يقول: "كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته" (متفق عليه). فهذا الحديث الجامع يحمِّلنا جميعًا المسؤولية، مسؤولية أداء الواجبات. ثم إننا سنسأل أمام الله ﷻ وأمام التاريخ وأمام المجتمع عن أداء واجباتنا. وربنا يأمرنا في آي القرآن: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾، يأمرنا بالعمل: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(التوبة:١٠٦). أعتقد أن أداء الواجبات وأداء التكاليف، أكبر ضمانة للحفاظ على الحقوق، وفي الوقت نفسه مظهر من مظاهر المواطنة. الآن يُتحدث في عالم اليوم عن المواطنة، من هو المواطن؟ المواطن هو الذي يبني وطنه وهو الذي يبني أمته، لذلك أقول وبمنتهى القناعة، لا نستحق العيش في وطن لا نبنيه.

نوزاد صواش: المجتمع الإسلامي التقليدي -حسب ما يقول فلاسفة الحضارة- هو مجتمع مدني؛ مؤسسات الأوقاف هي التي تفتح المدارس، والمصحات، والمستشفيات، وما إلى ذلك. للأستاذ محمد إقبال تقييم فني حول هذا الموضوع؟

محمد إقبال عروي: في ثنايا كتابات الأستاذ فتح الله كولن مشروع، لا نقول: "بديل" عن ثنائية الحقوق والواجبات، بل مشروع يحاول أن يعيد الأمور إلى نصابها. بحيث لا تكون هناك ثنائية أصلاً، أحادية مصطلح "الخدمة" هي في جوهرها تتضمن فلسفة الواجبات والحقوق؛ فمثلاً عندما يضحّي مدرس ويهاجر من تركيا إلى أربيل -ولعل هذا لا يُسمى في منطقة الخدمة هجرة، لأننا تعرفنا على أناس هاجروا من أقصى الدنيا إلى أقصاها- فهذا الذي يهاجر من أجل الخدمة، هو في الواقع يؤدي خدمة للآخرين، لكنه في جوهره هو الذي أخذ، هو الذي استحق هذه السعادة، استحق هذا الاحترام، استحق هذا التقدير الذي لمسناه عند الآباء والأمهات وهم يتحدثون عما أنجزته المدارس لأبنائهم، وخاصة في الجانب التربوي القيمي، دون أن ننسى النتائج الإيجابية التي تتحقق على المستوى العلمي والمعرفي والأكاديمي. ونحن عندما زرنا جامعة "إِشِك" (الضياء) لم يكن المسؤولون عن الجامعة ينتظرون منا أن نزور الأقسام المتعلقة بالحقوق أو الدراسات، ذهبوا بنا إلى كلية متخصصة في الطب (طب الأسنان) التي تقدم خدمة لا يمكن لأحد أن ينكرها. فهو عندما يؤدي هذه الخدمة ثم يعود إلى بيته ينام مستقرًا مرتاح البال مطمئنًا أنه أدى واجبه، هذا أكبر حق تحلم به البشرية. وما ينتج اليوم، في الكتابات المرتبطة بالسعادة الإنسانية

مدارس الخدمة بإسهاماتها المتميزة، وبقدرتها على نشر ثقافة التسامح والتعايش، والتفاهم والتقبل، قادرة على أن تقلص حجم القبح الذي ينشأ من جراء ضخ ثقافة الإقصاء، وثقافة التهميش، وثقافة الحقد، وثقافة الكراهية.

nesemat.com نسمات

في أوروبا وأمريكا، يؤكد على هذا الجانب، يؤكد على أن الذين يحرصون في حياتهم على أن يأخذوا فقط، نموُّهم النفسي، وحتى علاقتهم الاجتماعية، فيها شيء من عدم التوازن. لكن الذين يحرصون على العطاء، يحققون أكبر درجات من التوازن، وأكبر درجات السعادة، يحققون أكبر درجات من السِّلْم الداخلي ومن التوافق الاجتماعي.

أما بالعودة إلى قضية الـمَشَاهد؛ فخلال يومين كانت المشاهد من الكثرة والعمق، بحيث نحتاج إلى وسائل تساعدنا على تذكرها. فأي مدرس يتكلم عن تجربته في هجرته أو في تعليم الأولاد، وجدناه يقدِّم فكرة نشر التربية والتعليم على كل الحقوق الأخرى وعلى كل المتطلبات الأخرى. شيء فعلاً يثلج الصدر. ونحن محتاجون إلى أن تنتقل هذه التجربة من أفقها المحلي إلى أفقها الكوني. وأعني بذلك أن نُطلع العالم العربي على ما يجري في هذه البيئات.

مثلاً لدينا في بلادنا نسبة كبيرة من الشباب لا تريد أن تُعيَّن في مناطق نائية بعيدة للتدريس. معظمهم يشكو من أن يقذف به إلى مناطق نائية لا تتوفر فيها أبسط ضروريات الحياة، لكن عندما تُكَوِّنُ إنسانًا يشعر بأن مسألة التربية والتعليم هي السبيل الوحيد لتنمية الإنسان، وتحقيق التقدم والرفاهية والاستقرار، وأنها هي المدخل الوحيد لصياغة الإنسان صياغة راشدة،

عندما تبث هذا النوع من القيم، فستكون قادرًا على أن تضمن أن نسبة كبيرة من هذه المشاعر ستتحول، وسيُقبِل الشباب على التسابق والتنافس إلى الذهاب إلى تلك المناطق. نحن لا ننكر المحفزات المادية، لكن يبقى أقوى محفز هو أنك تقوم بدور مقدس، وأنك تؤدي مهمة تربوية مقدسة، وأن من حق أولئك الأبناء الموجودين في مناطق بعيدة أن تصلهم التربية وأن يصلهم التعليم. من أجل ذلك حبذا لو توثق هذه المواقف وهذه الحالات عبر أفلام وثائقية أو تتحول إلى أفلام سينمائية، أنا متأكد أن الذي يمكن أن تقدمه لنا في العالم العربي سيكون في غاية الأهمية.

نوزاد صواش: فعلاً، لقد تعرفنا على مدرسين هناك، أحدهم قال: إنه بقي تسع سنوات في كازاخستان، وسبع سنوات في الدولة الفلانية، أحدهم يقول: وُلد أحد أبنائي في كامبوديا، والآخر في أفريقيا، والثالث في الشرق الأقصى... يعني هذه نماذج يمكن الحديث عنها بكل سهولة، لكن الواقع ليس بالسهولة عينها.

محمد إقبال عروي: نعم، حتى إني رددت عفويًّا: نحن الآن بين يدي مفهوم "الإنساني الكوني"، فمن العبث أن تسأله عن جنسيته. فهذا الذي عاش في تركيا وهاجر إلى روسيا وأنجب أبناءه في كازاحستان أو في مناطق أخرى... هذا إنسان كوني.

نوزاد صواش: أستاذي، ما الذي يدفع هؤلاء لكي يهجروا بلدهم؟ هل هو المحفز المادي؟ لقد سألناهم عن رواتبهم فوجدناها غير محفِّزة لمن يبحث عن المادة على الإطلاق.

محمد إقبال عروي: صحيح، لقد سألتهم بالتفصيل عن رواتبهم، وهي عادية جدًّا بالمقارنة مع ما عندنا نحن في البيئة العربية، فالأستاذ الجامعي يتقاضى الراتب الذي يتقاضاه عندنا الأستاذ بالسلك الثانوي.

نوزاد صواش: إذن ما هي الروح التي تدفعهم؟ هم الآن في ١٦٠ دولة أو أكثر، وهم من نخبة المجتمع التركي، لم يتخرجوا من مدارس أو جامعات عادية، فأي روح هذه؟ ما الموجود عندهم؟ أو بالأحرى ما الغائب عندنا نحن؟

سعيد بويزري: قبل أن نجيب على هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى ما ورد في كتاب الأستاذ محمد فتح الله كولن تحت عنوان "ونحن نقيم صرح الروح"، تحدث فيه عن ورثة الأرض، إذن قد أجيبك أخي نوزاد بهذه الكلمة فقط "ورثة الأرض". من له الحق في أن يكون وارثًا للأرض؟ هذا التوريث ليست هبةً تُمنح بلا مسوغ وبلا استحقاق؛ بل تُمنح لمن يستحقها، لمن يملك المؤهلات. فهؤلاء الذين هاجروا؛ تركوا أوطانهم وتركوا بلدانهم وتنقلوا في هذه البقاع مع اختلاف البيئات، واختلاف الثقافات، واختلاف الذهنيات. وبعضهم أو الكثير منهم سافر إلى المجهول، لا يعرف البلد الذي يذهب إليه، ولا اللغة. وكم رجلٍ منهم واجه عقبات حقيقية كبيرة قد تثبطه ويعود ويتراجع... ولكن باختصار شديد فما لا يدرك كله لا يترك جله. أعتقد أن هذه هي المؤهلات التي بها استحقوا هذا المقام. فمن أراد أن يعرف مقامه عند الله فلينظر حيث أقامه. والمؤمن كالغيث أينما حل نفع.

فالمؤهل الأول هو الإيمان، ففي كتابه "ونحن نقيم صرح الروح"، وهو يتحدث عن ورثة الأرض، ذكر الصفة الأولى؛ الإيمان الكامل، الإيمان الكامل وليس الناقص، الإيمان الكامل المتكامل، هذا الإيمان الذي يقترن بالعمل ربنا قال في القرآن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، إذن هذا هو الشرط الأول، المكون الأول،

المؤهل الأول، وهو تحقيق الإيمان الكامل، لذلك استحقوا هذه المنحة وهذا المقام.

والمؤهل الثاني هو الاستعداد للتضحية، فحينما نقرأ سيرة النبي ﷺ، نجد أنه قبل أن يأمر غيره بالتضحية كان مضحيًا؛ فغرس قيمة التضحية في قلوب الصحب الكرام.فكل منهم كان يضحي بما يستطيع، وهنا أستحضر كلمة لصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما كان جالسًا مع بعض الصحب الكرام، فقال لهم ما معناه: "أينقص من دين الله وأنا حي؟" هذه عبارة قالها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وتعني: لا قيمة لحياتي ولا سر لوجودي، إذا لم أستثمر ما أملك في سبيل الله ﷻ وفي تحقيق مقتضيات الاستقرار فوق الأرض. إذن السر هو التضحية، والتضحية هنا تتعلق بالتضحية بالمال، التضحية بالجهد، بالعرق، بالخبرة، بكل ما يملك، بالصبر على الفراق؛ فراق الأهل، وفراق الأوطان، وفراق الأولاد.

المؤهل الثالث الوفاء؛ الوفاء صفة عزيزة، صفة جميلة، أن يكون الإنسان وفيًا لدينه، وفيا للفكرة التي تشربها، يبذل الغالي والنفيس من أجل تحقيقها. أما الصفة الرابعة؛ فهي الاستعداد للعطاء، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾(الليل:٥). إذن القرآن الكريم يتحدث عن العطاء والذي يعطي يُكرّم من الله ﷻ، ويكرم أيضًا من الناس، الذين يقتنعون بأن هذا هو الأنموذج الذي نريد، ويشجعهم على العطاء، حينما نرى أخي نوزاد الناس تعطي، نحن نحب العطاء فنعطي أيضًا، فهكذا تنتشر ثقافة العطاء في الناس. فالنبي ﷺ حينما سئل عن أحب الأعمال إلى الله قال: "سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ" (رواه الطبراني). إذن صفة العطاء هذا مقوم ومؤهل كبير.

المقوم الخامس والمقومات كثيرة أكتفي بهذا وهو

مما أعجبني كثيرًا في الخدمة التنوع في المناشط، فلم تنصرف الجهود إلى مجال معين، بل كانت حاضرة حضور التجربة في جميع المجالات، فكأنها فجرت ينابيع الخير الكامنة في الإنسان.

nesemat.com نسمات nesemat.com

تحقيق مبدأ أو قيمة التعاون، لأن النجاح أو الإنجاز صناعة جماعية؛ لا يمكن للإنسان أن يبني حضارة، أو يؤسس مدرسة، ولا هيئة إغاثية، ولا جمعية خيرية، أو أي نشاط من النشاطات بمفرده. قال الله ﷻ في القرآن في حق المصطفى ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال:٦٢)، وقيمة التعاون لاحظناها، الكل يعمل، الكل يجتهد في تحقيق هذا المشهد الحضاري الرائع الجميل في تواضع، أقولها بصراحة -والله على ما أقول شهيد- إن أفراد الخدمة رجالاً ونساء قدموا لنا الأنموذج الذي يجب أن نقتدي به. إذن أزمتنا في هذا المجال، بطون كتب عمَّارة بالأفكار والقيم والتحليلات والنظريات، هذا كثير، لكن ما نريده هو الأنموذج الحاضر شاهد العيان، ويقال لسان الحال أصدق وأقوى تأثيرًا من لسان المقال.

نوزاد صواش: أو كما يقول الأستاذ فتح الله كولن: "الآذان شبعت والعيون جوعى". طبعًا هذا الكلام نحن لا نقوله تملقًا لهؤلاء أو مدحًا لهم، ربما لو جلست ومدحتهم سيهربون منك وتحمرّ وجوههم حياء. د.عروي، كيف كسب هؤلاء ثقة الناس في البلدان التي حلوا فيها؟ في النهاية عندما تذهب إلى بلد غير بلدك فأنت دخيل، وبالمناسبة كأن لدينا -نحن المسلمين- عقدة، إذ عندما نرى نجاحًا أو إنجازًا استطاع بعضُنا تحقيقَه، نسارع إلى سوء الظن، نقول: ما دام هناك إنجاز فبالتأكيد وراء هؤلاء جهة ما

تدعمهم، فهل لاحظتم -من خلال جولاتكم- شيئًا ما من هذا القبيل؟ يعني هل رأيتم جهات أجنبية؟ قوى عميقة؟ أيادي خفية؟ أسرارًا غامضة؟ تُحرِّض هؤلاء، أو تزودهم بالمال وما إلى ذلك؟ كيف أسسوا الثقة في قلوب الناس أستاذي؟

محمد إقبال عروي: سأبدأ ببعض الأفكار ثم ننتقل إلى جو من الصراحة والشفافية. الواقع أن فكر الأستاذ فتح الله كولن وتحققه في هذا الصنف من الشباب والشابات يربكنا، يجعلنا نعيد صياغة المفاهيم، أنا أظن أن هذه الهجرة التي تحدثت عنها وتفضل الأستاذ سعيد بالحديث عنها، توصيفها بالهجرة سيكون تقصيرًا في حقها، لأن من المعاني البسيطة للهجرة أن الإنسان يهاجر ليستفيد نفسيًا، أو أمنيًا، أو ماديًّا، إلى آخره. ونحن الآن في العصر الحديث لدينا نوعان من الهجرة بالنظر إلى أهدافها؛ هجرة تبحث عن الأمن، وهجرة تبحث عن الاستقرار المالي، فهذا "التوصيف للهجرة" لا ينطبق على هؤلاء. وأذكر أن اللقاء الذي جمعنا ببعض رجال الأعمال الأكراد بأربيل -وأعجبتني فيه صراحته- كان يقول نحن شخصيًا -بعض الأكراد- باعتبارات تاريخية، وسياسية، لدينا حساسية تجاه الأتراك، لكن عندما جاء هؤلاء، وبدأوا ينشرون الثقافة الإنسانية الراقية، ويربون الأبناء على حب الله ﷻ وحب الرسول الله ﷺ، وحب الناس، أحببناهم وسلمناهم فلذات أكبادنا. جربناهم واختبرناهم وتأكدنا من أنهم فعلاً هجرتهم إلى هنا، لم تكن لدنيا سيصيبونها أو غنيمة أو ما إلى ذلك، إنما لنشر هذه القيم.

من هنا أقول إن ما يربكك في فكر فتح الله كولن، والإنجازات العملية، هو أنه يفرض عليك أن تغير حتى المفاهيم. ينبغي أن تبحث عن لغة جديدة لكي تصف بها هذه الظاهرة. وأنا عندما أقول هذا الكلام، لا يعنيني أن أكون مبالغًا، الذي يعنيني أن المثقف العربي يسأل نفسه ماذا يمكن أن يفعل، وبماذا يمكن أن يُسْهِم، حتى يزيل فتيل التوتر، وفتيل المشكلات من هذا البلد؟ الذي أظن أن أي عربي، أي مسلم، أي إنسان صادق مع نفسه، يرى في ابنه حُلمًا، وأنتم تتحدثون عن أن الأبناء التلاميذ-كما حدثنا المدرسون -يحصلون على نسب عالية، من حيث تحصيلهم العلمي في الفيزياء والرياضيات، في الكيمياء في كذا وكذا. أي حُلم يحلم به الأب والأم إذا لم يكن هذا؟ وأنا كنت صريحًا مع المدرسين قلت لهم: حتى لا نكون مثاليين حدثونا عن المشكلات التربوية والنفسية التي تواجهكم مع الأبناء مع التلاميذ، وكانوا كذلك صرحاء! قالوا مثلاً عندنا إقبال على مدارسنا يصل إلى درجة أن الناس تتهافت علينا بوسائط من هذا وذاك خلال الفترة الضيقة التي نفتح فيها التسجيلات، لكن لا نقبلهم لأننا عندنا معايير معينة. هؤلاء عندما تسمع أنهم يحصلون على نتائج إيجابية هذا هو حُلم. عندما حدثونا عن المشكلات قالوا: نحن لسنا ملائكة عندنا مشكلات.

لكن دورنا نحن باعتبارنا مربين، هو أن نحتضن هذه المشاكل، وأن نجد لها حلولاً، وأعطونا أرقامًا تقريبية قياسية تجعلك تدعو الباحثين النفسيين والاجتماعيين لإيجاد دراسات، أنا أظن أن هذه المدارس هي مختبرات الآن لإنجاز دراسات وبحوث. قضية غياب التسامح بين الإثنيات في مجتمعات أخرى، أنا أدعو الباحثين والدارسين إلى أن ينجزوا دراسات في هذا الجانب معتمدين مدارس الخدمة كبيئة ميدانية في كل أقطار العالم، وخاصة في المناطق التي فيها توتر إثني. سنلاحظ أن هذه المدارس بإسهاماتها المتميزة، وبقدرتها

على نشر ثقافة التسامح، والتعايش، والتفاهم والتقبل، قادرة على أن تقلص حجم القبح الذي ينشأ من جراء ضخ ثقافة الإقصاء، وثقافة التهميش، وثقافة الحقد، وثقافة الكراهية. الذي أريد أن أنتهي إليه في هذا التوصيف الذي قد يبدو مثاليًا أنني كمثقف عربي لا يعنيني أصلًا أن أصف هذا التوصيف المثالي، لكن الذي يعنيني هو أنني عندما أقارن هذه التجربة الرائدة، مع تجارب أخرى بالعالم العربي والإسلامي أتساءل لماذا كان النجاح هنا؟ ولماذا كان الإخفاق هناك؟

نوزاد صواش: ما الذي يمكن أن نخلص إليه في نهاية هذه الدراسة؟

محمد إقبال عروي: أنا متأكد أن هناك قواسم مشتركة من مثل التي تفضل الأستاذ بإيرادها قبل قليل، مثل التربية الإيمانية والتضحية، أنا متأكد أن مختلف التوجهات التي انطلقت من الفكرة الإسلامية؛ سواء كانوا من إخوة التبليغ، أو من الإخوة السلفيين، أو من الإخوان المسلمين، أو غيرهم من الجماعات كان لهم نصيب من التركيز على قضية الإيمان والتضحية، لكن المشكلة هي في المخرجات، ما الذي جعل المخرجات تختل هنا؟ وتنجح هناك؟ هذا الذي يعنيني كمثقف عربي. وعندما أبحث أجد أن التكاملية والشمولية وجعل الإنسان محور العملية التربوية والتعليمية، وجعل القلب موضوعًا للفحص والتدقيق والمراقبة والتتبع، بحيث نُخرج منه حظوظ النفس، وحظوظ الكبرياء، والأنانية والفردانية، نُخرج منه حظوظ البحث عن الأخذ دون العطاء، هذا الذي يعنيني، وهو ما يميز هذه التجربة الرائدة.

نوزاد صواش: أستاذي، بما أنك تشتغل في موضوع الصلح وحل النزاعات في المجتمع الجزائري

nesemat.com نسمات nesemat.com

النجاح أو الإنجاز صناعة جماعية؛ لا يمكن للإنسان أن يبني حضارة، أو يؤسس مدرسة، ولا هيئة إغاثية، ولا جمعية خيرية، أو أي نشاط من النشاطات بمفرده. قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال:٦٢)،

وفي مجتمعات أخرى، كيف رأيت التجربة سواء في المجال التربوي أو المجالات الأخرى التي تتحرك فيها؟ وما القيم التي رأيتها -لأنك تعرف مداخل الشيطان في مثل هذه النزاعات- هل هناك تدارك؟ هل هناك وضع سدود للشيطان؟ مضادات لفيروسات النزاع؟ ما الذي رأيته في الحراك هنا في هذه المنطقة؟

سعيد بويزري: اختلاف الناس، وتباينهم في أفكارهم وذهنياتهم وثقافاتهم، قد يكون سببًا لإثارة النزاعات. لو اجتمع اثنان يختلفان في الثقافة، في الذهنيات، في موروثنا الحضاري، ربما في أول حركة أو في أول خطوة سيختلفان. ولكن ما الذي يجمع بين اثنين أو بين العشرة أو المئات، ذكرتَ الآن الأكراد والأتراك، يعني يمكن تحويل هذا الاختلاف إلى قوة، فتتحول إلى روافد، فيصير التنوع؛ اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد، اختلاف تكامل وليس اختلاف تصارع، ولكن لا يتحقق ذلك إلا بجملة قيم، لاحظناها موروثة من خلال منهج الخدمة، سواء في المدارس، وفي جميع المؤسسات الإعلامية والمالية والتجارية وغيرها من المؤسسات؛ القيمة الأولى، هي قيمة الأخوة، فالأخوة تربطنا في الله، النبي ﷺ يقول: "كلكم لآدام وآدام من تراب" (رواه أبو داود).

نوزاد صواش: هل ترى أن هناك جهدًا لترسيخ هذه القيمة في مناشط الخدمة؟

سعيد بويزري: نعم، كذلك زرع مشاعر المحبة؛ بمعنى أن المحبة إذا سكنت القلوب تقلصت دائرة الأوجاع؛ فالأوجاع والآلام تتقلص، لا أقول نبني مجتمعًا ملائكيًا، لا يمكن، نحن بشر، ولكن بصراحة الحب إذا حضر، إن شاء الله ينتهي الوجع والألم أو يتقلص على الأقل، وكذلك قيمة أخرى وهي قيمة التكامل، كل إنسان يرى في غيره أنه يكمل غيره فلا يُقصيه، بل هو في حاجة إليه، لأنه كما قال أخي محمد إقبال -قبل حين-الإقصاء والتهميش يزرع الأحقاد والضغائن، ويكرس نزاعا لا يمكن أن يعالج بعد ذلك.

نوزاد صواش: هل يمكن أن نعتبر هذه المؤسسات مصانع أو ورش عمل لنقش هذه القيم، والتدريب والتدرب عليها، حتى تتحول إلى طبيعة، إلى فطرة، إلى أخلاق إلى جزء من سلوكيات الإنسان؟ أستاذي لدي سؤال لكن قبل أن أسأل هل تود أن تضيف شيئًا في هذا السياق؟

محمد إقبال عروي: نعم، في هذا السياق نفسه، مما يثلج صدري أن بلداننا العربية تطمح إلى تطوير المناهج التربوية، سواء على مستوى فلسفة التعليم، أو على مستوى مناهج التربية، ومناهج تنزيل هذه المقتضيات الفلسفية والرؤيوية. وفي هذا السياق عشنا تجارب متعددة وكنا من حين لآخر نسمع أن هذه نظرية كندية في التربية، وهذه نظرية أمريكية، وهذه نظرية بريطانية. أنا أُقِر من خلال ما لاحظت أن شباب مدارس الخدمة منغمسون في العمل، وانغماسهم في العمل يجعلهم لا يدركون الموقع الذي هم فيه، وأن الذي يدرك الموقع الذي هم فيه هو الذي يوجد خارج هذا الانغماس، ولذلك يقال عندما تريد أن تكون لك رؤية شمولية متكاملة موضوعية، عليك أن تبتعد قليلاً عن الظاهرة. تحتاج إلى مسافة، هذه المسافة تجعلني أقول اليوم: إن المهندسين لهذه الروح التربوية، بهذا العطاء والديداكتيك التربوي، محتاجون اليوم إلى أن يجلسوا مع أنفسهم ليسجلوا هذه الأدبيات بلغتهم التركية، ويدعوا خبراء تربويين من العالم العربي والإسلامي ومن العالم كله، ويجعلوها مناط تحليل، ودراسة، وأخذ وعطاء. بعد ذلك سيصلون إلى أنهم يملكون رؤية تربوية على المستوى الفلسفي، ويملكون إجراءات تربوية على المستوى المنهجي التنزيلي، يمكن أن توضع في مصاف هذه النظريات الكبرى، التي تُصدر الآن إلى العالم العربي، نظريات كندية، وأمريكية، وبريطانية، وإنجليزية وما إلى ذلك. أنا أراهن أنه إذا تحقق هذا العمل يمكن في قادم الأيام أن نسمع عن التجربة التركية في التعليم.

نوزاد صواش: حسب علمي هناك دراسات أكاديمية ميدانية، خصوصًا في الغرب، ترصد التجربة في مجالاتها المختلفة وتسجلها. هناك شركات إنتاج تلفزيونية تذهب إلى تلك الدول وتصور المدارس، وتجلس مع من ذهبوا إليها وأسسوها؛ يسمعون قصصهم، ويسجلون تجربتهم هناك، وفي السنوات الأخيرة أيضًا، بدأت شركات إنتاج تركية تتنبه إلى قصص هؤلاء الأبطال وتنتج أفلامًا سينمائية، ومؤخرا أُنتج فيلم سينمائي شاهده حوالي مليون شخص في قاعات السنيما التركية، حول تجربة من تجارب الخدمة في بعض البلاد. رأينا بعض إعلاناته، هذه أفلام سنيمائية تصور بإنتاج عالٍ جدًا، وتأخذ قصص هؤلاء الأبطال وتقدمها برؤية فنية عالية.

محمد إقبال عروي: نعم، الأمور التي تفضلت أستاذي نوزاد بإيرادها شيء جميل، لكني أتحدث عن

شيء أكبر. فمثلاً عندما أقول فلسفة التربية ومنهج التربية وتنزيلها، أقصد أشياء أخرى، بعيدًا عن التوثيق وعن التصوير والتسجيل؛ أعطيك مثالاً، في بيئاتنا نحن، ليس عندنا شيء اسمه مرشد تربوي نفسي، لا في المدارس الحكومية ولا المدارس الخاصة، أما عندما تأتي إلى مدارس الخدمة وتجد أن في كل فصل مرشدًا تربويًّا نفسيًّا، فهذا تطوير جديد في العملية التربوية والتعليمية. فمعظم المشاكل التي تعاني منها المدرسة العربية ترتبط بما هو نفسي، فالفترات التي يمر بها، والإكراهات النفسية والسلوكية التي تفترس التلاميذ في هذه المرحلة العمرية، تقتضي أن تكون هناك يقظة لرصد هذه المشكلات النفسية وإيجاد حلول لها. فعندما تُوفر في كل فصل مرشدًا تربويًّا نفسيًّا، تكون قد أسهمت في أن يكون الفصل في أكبر درجاته من التفاعل الإيجابي، في أكبر درجاته من الاحترام والتقدير المتبادل بين التلاميذ وبين الأساتذة. ويكفي أن ننفتح على الفيديوهات التي تنتشر في اليوتوبيات، ونرى مدى المعاناة التي صار يعاني منها الأساتذة والمدرسون من جراء غياب هذا النوع، هذا الذي أقصد. ونثنّي بالبيداغوجيات، ونثلّث بالمراقبة التربوية، وأضيف عنصرًا رابعًا بالشروط التي ينبغي أن تتوفر في المُدرس، هذه كلها تجعلنا في الحقيقة أمام نقلة نوعية ترتبط بمنهجية التربية والتعليم. هذا الذي أقصده أنا.

نوزاد صواش: وكذلك البرامج المتعلقة بعلاقة المدرسة بالأسرة، فالاهتمام بالأسرة شيء أساسي في مدارس الخدمة، لديهم نظام خاص يعرف بأُمِّ الفصل، كل فصل يخصصون له أُمًّا من أمهات الأولاد. يعني نستطيع القول كما قال أحد الباحثين: إن القصة ليس فيها أسرار غامضة؛ هذا النجاح له أسبابه الموضوعية

هناك بعض المجالات تعجز الدولة عن أدائها، فإذا سُمح للمجتمع المدني أن يتحرك في الفضاءات المتاحة في المجتمع، فسيصير هذا المجتمع المدني مكمِّلاً للدولة، وهكذا تتحقق النهضة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

التي يُعزى إليها، أليس كذلك يا دكتور؟

محمد إقبال عروي: صحيح، نحن تمر علينا أحوال، أحيانًا الأب والأم لا يدري أين تقع المدرسة التي يدرس بها ابنه، أين هو اتجاهها؟ ومن هو مديرها؟ عندنا تَحَسُّس أن يزور الأب والأم المدرسة. فنحن نتحدث عن انقلاب تربوي في العملية التربوية التعليمية، هذا الذي أقصد. فيا ليت مدارس الخدمة تهتم بهذا الجانب.

وهنا آتي إلى ذكر نقطة ثانية تتعلق بنفس الموضوع، التربية الحديثة بصفة عامة كانت تركز على المهارات المعرفية العلمية، التي تجعل التلميذ يتفوق في الرياضيات، وفي الفيزياء، وفي الكيمياء وما إلى ذلك، وهذا هو ديدن المدرسة الحديثة في مختلف مناطق العالم، هناك دراسات تؤكد أن هذا شيء جميل، لكنه ناقص؛ لأنها في آخر المطاف تشغل كما يقال الجزء الأيسر من الدماغ، الذي يُعنى بهذه العمليات المرتبطة بالذهن، والمنطق وما إلى ذلك. لكن ما فعلته مدارس الخدمة في تقديري هو أنها تجاوزت هذا المستوى الذي يكتفي بتشغيل مهارات الجزء الأيسر من الدماغ. في عملية التربية التعليمية ركزت على التزكية، ركزت على القيم، ركزت على الجمال، ركزت على الفنون، ركزت على العلاقات الإنسانية، وهذا كله لا يمكن أن يزدهر إلا في ظل تشغيل الجزء الأيمن من الدماغ، لأن الجزء الأيمن من الدماغ هو الذي يختص بهذه المهارات.

في المحصلة النهائية أنت تقدم منهجًا لا يقدم لك فقط خبرات ترتبط بالمنطق من مواد تؤهلك لكي تنجح في وظيفتك، ولكن يقدم لك مهارات تجعلك تنجح في الحياة. وكما يقول المفكر التربوي والطبيب النفسي البرازيلي "أوجوستو كيري" في كتاب قيم له ترجم إلى اللغة العربية عن طريق أستاذنا الفاضل الدكتور "مصطفى عزوزي"، تحت عنوان "مفاتيح التربية السعيدة": نحن الآن أمام التحديات والإكراهات والمشكلات التي نشأت مع المدرسة والجامعة في العالم، مشاكل المخدرات، مشاكل العلاقات الجنسية المشبوهة، مشاكل الهروب من المدرسة، الزهد في الدراسة، هذه المشكلات كلها، تؤكد على أن نُـظمنا التعليمية راهنت على أن ينجح الإنسان في الوظيفة، أن يحصل عليها، لكنها فشلت في أن تُكوِّن لنا جيلاً ينجح في الحياة. ومهمة التربية الحديثة هي أن تراهن أولاً على أن ينجح الإنسان، التلميذ، الطالب، في الحياة. ومعنى النجاح في الحياة؛ أن يكون متوازنا نفسيًّا واجتماعيًّا، وتربويًّا، وأن يكون ثمرة من ثمرات التفكير الإيجابي الذي يقوم على العطاء أكثر مما يقوم على الأخذ. ويقوم على التسامح أكثر مما يقوم على الإقصاء، ويقوم على التعاون أكثر مما يقوم على الفردانية والأنانية. إذا نجحت المدرسة في تحقيق هذا، فستكون أولاً قد شغَّلت القسم الأيمن من الدماغ، وتكون فعلاً قد قدمت أنموذجًا للمجتمع قادرًا على أن يسهم في التنمية.

نوزاد صواش: حسنًا، من الواضح أن مدارس الخدمة تفعّل هذه القيم حيثما حلّت، ليس في تركيا فقط، أو أربيل والعراق فقط، بل في أفريقيا، والشرق الأقصى، في مدارسها في أوروبا، وآسيا الوسطى، في كل مكان. والأستاذ فتح الله كولن نفسه عندما يصف هذه المدارس، يسميها "جزر السلام". أظن أنه بهذه التسمية يلخص الرؤية كلها. أستاذي، نأتي إلى سؤال أخير نختم به هذا الحوار، هذا السؤال يحيرني أنا كذلك؛ هناك مفكرون كثر جاءوا وذهبوا، نظَّروا وكتبوا، تكلموا، لكن لم يجدوا هذا الإقبال على أفكارهم، لم يجدوا أبطالاً حملوا هذه الأفكار وفعَّلوها، لم يستطيعوا أن يؤثروا على الجماهير لكي تحمل أفكارهم وتُفَعِّلها، لكن ما سر هذا الإقبال الذي وجدتَه على أفكار الأستاذ كولن؟ أو ما سر تأثير الأستاذ نفسه؟ فكما عبر أحد الباحثين الأكاديميين في أحد كتبه يقول:" الأستاذ كولن ما أن يطلق كلمة أو فكرة فيتلقفها الناس قبل أن تسقط على الأرض فيحولونها إلى مؤسسات". ما سر تأثير الأستاذ كولن على الناس هكذا؟

سعيد بويزري: لا شك أنه سؤال قوي وذكي، وبالطبع لا تكفي هذه الإجابة المختصرة، ولكن لا بد أن تكثر الإجابات؛ كل إنسان ينظر بمنظوره، بحثًا عن هذه الأسرار وأعتقد أن السر الأول هو توفيق الله ﷻ، فكل نصر يتحقق، وكل نجاح يُشاهد في دنيا الناس، فالله ﷻ هو الموفق وهو المعين، "وما النصر إلا من عند الله"، ولكن لا بد أن يكون هذا النصر مستحقًا، لا بد من مؤهلات لا بد من مقومات، فالكسول والمتشائم والذي لا يجتهد، والذي لا يعمل، لا يمكن أن يوفق؛ فَقَدْ فَقَدَ شروط استحقاق التوفيق. ولكن باختصار أعتقد بعد هذا العامل الذي ذكرته يأتي العامل الثاني وهو تحويل أو ربط منطق الفكرة بمنطق العمل. وأستاذنا الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله أشار كثيرًا إلى هذا؛ هناك قواسم مشتركة كثيرة بين الأستاذين وكذلك بين أساتذة آخرين، يعملون في الحقول المختلفة في مجال الفكر والعلم ونشر الثقافة والحضارة. أقول هذا سر

آخر، ربط منطق الفكرة بمنطق العمل "وقل اعملوا" مباشرة ترجمة الأفكار والقيم إلى عمل.

نوزاد صواش: عفوًا أستاذي، دائمًا ما كان الأستاذ يدعو إلى تقديم لسان الحال على لسان المقال؛ لسان الحال هو الفعل في النهاية، صحيح هو في بعض كتاباته يتحدث عن هذه العلاقة الطيبة بين الفكر والفعل وكيف يغذي بعضهما، لكن في بعض الأماكن يقول: "في منهجنا الفعلُ يتقدم على الفكر". فالفعل هو الذي سيولِّد الأفكار.

سعيد بويزري: نعم، لسان الحال أصدق وأقوى تأثيرًا من لسان المقال. ونأتي إلى مقوم ثالث وهو الصدق، ومن كلمات الأستاذ –فتح الله- الرائعة يقول: "الصدق هو أقوم طريق موصل إلى الحق ﷻ"، فالصدق أيضًا قيمة مهمة جدًا تبعث تلك الطاقة من قلبه إلى قلوب الناس، فهم يفعلونها ويترجمونها إلى أعمال. ثم نأتي إلى مقوم آخر وهو استثمار الطاقات الكامنة في الإنسان؛ كل إنسان يحمل طاقات، لأن ربي ﷻ وزّع المواهب على الناس، ولكن أين ذلك المفكر الذكي الذي يكتشف تلك الطاقات وبذور الخير التي يحملها الإنسان فيُفَعِّلها، ثم يطلقها؟ يعني إعطاء الحرية للإنسان. نحن لاحظنا شباب وشابات ورجال ونساء الخدمة، يشعرون بهامش كبير من الحرية، والإنسان إذا شعر بأنه حر، "كِرَّ وأنت حُرٌّ" -كما قيل لعنترة بن الشداد- ينطلق وتتفجر فيه الطاقات... أما إذا شعر بالتقييد، والحصار والتهميش، فهذه مشكلة. والسر الخامس يكمن في تحفيز العاملين والعاملات، أن يقول للعامل شكرًا، فتحفيز العاملين والعاملات؛ مقوم كبير، والمقومات كثيرة أختمها بمقوم الصبر؛ لأنه طريق البناء وطريق الإرشاد. وتأسيس المدارس

nesemat.com نسمات nesemat.com

نوع الخطاب ونوع القيم التي تبثها مدارس الخدمة، هو الذي يسمح بأن ينشأ جيل جديد قادر على أن يتجاوز الركام التاريخي من المشكلات والمحن والخلل الذي تسلل إلى العقل العربي والعقل المسلم.

والتعليم ومؤسسات الخير، والحوار، هذا طريق شائك؛ لأنه طريق محفوف بالأشواك والمنعرجات والمخاطر، فحضور الصبر في مسيرة العمل هذا أيضًا سر.

نوزاد صواش: جزاكم الله خيرًا، نعم الدكتور محمد إقبال.

محمد إقبال عروي: مثلما قال أستاذنا سعيد، وأنا أعود دائمًا إلى أن التجربة تربكنا في إيجاد المفاهيم والمصطلحات التي نضفيها عليها. وجدت أستاذنا يكرر كلمة المفكر فتح الله كولن، في الواقع أنا أجد نفسي أمام ظاهرة لا يمكن أن يتحقق فيها هذا التوصيف. علينا أن نبحث عن مصطلح آخر لنصف به ظاهرة "فتح الله كولن". هو أكثر من مفكر، أكثر من داعية، أكثر من صوفي، أكثر من مربي، يعني يمكن أن يجتهد أهل الفكر سواء داخل مدرسة الخدمة أو خارجها من باحثين ومتخصصين ومفكرين في إيجاد التوصيف القريب إلى هذا، في غياب هذا نقول، الأستاذ ظاهرة، الأستاذ وما ينتج عنه من فكر لا يمكن أن يحدد بسبب وحيد. هناك أسباب متعددة، وكل متخصص يمكن أن يرصدها من زاوية تخصصه. لكن من الأمور المهمة بين يدي الحديث عن سر نجاح هذه المدرسة، هو السياق التاريخي والحضاري التي ولدت به تركيا. تركيا كانت أمام خيارين؛ إما أن تنهج الأساليب التي انتهجتها الحركات الإسلامية، والفكر الإسلامي في

مناطق أخرى من العالم العربي والإسلامي، وقد رأينا جزءًا من هذه المآلات كيف انتهت إلى خلل، وكيف انتهت إلى مشكلات، كيف أنها لم تحل الأزمات التي تعاني منها الأمة، بل أضافت إليها أزمات أخرى. وإما أن يتم التفكير في طريق ثان. تجربة الأستاذ هو أنه فكَّر بعمق في هذه الطريق الثاني فاهتدى إلى مسألة الخدمة، وجعل ما رتبته التجارب الإسلامية في إطار الوسائل أهدافًا.

نوزاد صواش: كيف ذلك يا أستاذي؟

محمد إقبال عروي: إذا اعتبرنا المناط من التجارب أن التربية هي مجرد وسيلة لكي تنشئ لنا هذا الإنسان الذي سينخرط في العمل السياسي، وسينخرط في المشاركة السياسية، وسيحكم وما إلى ذلك؛ تجربة مدارس الخدمة -باعتقادي المتواضع- جعلت التربية هدفًا، يعني ليس وراءه مبتغى آخر، سوى أن يكون هذا الإنسان فعلاً مُربَّى تربية متوازنة، تربية سليمة، فهذا هدف. وسخرت له وسائل، من بين هذه الوسائل، وسائل تربوية، لكن تبقى الغاية في حد ذاتها غاية تربوية. اشتغلت بالجانب الاقتصادي ليس كوسيلة للوصول إلى الحكم، وإنما اشتغلت بالتنمية الاقتصادية كهدف. أفراد الأمة العربية الإسلامية، ومؤسسات الأمة العربية الإسلامية، ينبغي أن تكون في حالة ازدهار، فسخرت له بعض الوسائل التي تنتمي إلى الاقتصاد. وقس على ذلك بقية المجالات.

هذا التمَيُّز في جعل ما يوجد في تجارب أخرى من نتائج جعلته تجربة الخدمة أهدافًا، هذا ينبغي أن يُفكر فيه، وأن يكون مجال بحث ومجال وُرَش، لأنه فعلاً يضعنا أمام جوهر هذا التميز الذي تبحثون عنه في سؤالكم. من أهم ما فعلته مدارس الخدمة هو أنها أقامت قطيعة هادئة مع المناهج الإسلامية التي كان يحكمها عنصر المثالية، وعنصر الطُهرانية، وعنصر الاستعلاء على المجتمع، بعد أن قسمت المجتمع إلى مجتمعين، وبعد ما جعلت هدف المجتمع الأول هو أن يتطهر ثم بعد ذلك يقوم بفتح المجتمع الآخر. وأن العلاقة التي تقوم بين المجتمعين، لا يمكن أن تكون علاقة السلم، لأن المشروع بمثاليته هو إيجاد بديل. ومقولة البديل الإسلامي هذه مع الأسف خلقت نسيجًا نفسيًا ورطت فيه الكثير من الفعاليات وكثيرًا من الأفكار. فكان الهدف هو أننا سننسخ مجتمعنا ونأتي بمجتمع ثانٍ. هذه الثنائية تكاد تكون ملغاة في فكر الأستاذ. تحدث عن مجتمع واحد، دور أبناء الخدمة هو أن يجعلوا هذا المجتمع أقرب إلى مرضاة الله ﷻ. وتعاملوا مع التربية، ومع التعليم، ومع الإعلام، ومع الاقتصاد كوسائل تقربنا أو إن استطعنا أن نستثمرها في أن يقترب الإنسان من رضى الله ﷻ. وأنه عندما يقول الحمد لله أو عندما يشكر الله لا يشكر الله تحت ضغط الإكراهات، ولا يشكر الله تحت ضغط التقاليد وإنما يشكره تحت الوعي الكامل، بأن هذا الإله الذي أنعم عليه بهذه النعم يستحق أن يُحمد ويستحق أن يُشكر. وهناك أسباب أخرى لعلنا نأتي بها في سياقات مقبلة إن شاء الله تعالى ونتوسع فيها.

نوزاد صواش: دكتور محمد إقبال ودكتور سعيد بويزري أشكركما شكرًا جزيلاً، على رفقة الدرب وعلى هذا الكلام الطيب. في النهاية كنا مع خبراء يرصدون ظاهرة، يرصدون تجربة، لا تملقًا، أو مجاملة، بل رصدًا وأمانة، نقول هذا ما رأيناه وهذا ما شاهدناه إن كان فيه من خطأ يُقوَّم، وإن كان فيه من جمال فهو ملك الجميع. شكرًا جزيلاً. ■

محورية الأخلاق في البناء الحضاري عند مالك بن نبي وفتح الله كولن

محمد باباعمي

أ.د. محمد باباعمّي، وُلد في يزجن بالجزائر. حصل على الدكتوراه في العقيدة ومقارنة الأديان من جامعة الأمير عبد القادر بالقسنطينة. يعمل حاليًّا مديرًا لمعهد المناهج للدراسات العليا بالجزائر العاصمة. له عديد من الكتب والمؤلفات العلمية والفكرية منها "من بنات الأسفار"، "مطارحة معرفية"، "البراديم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة"، "الزمن والوقت"، "ذي قربتي مقالات، وخواطر، وقصص من واقع الخدمة"، "أرباب المستوى".

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية العلاقة بين ثلاثية (الدين/الأخلاق/الحضارة)، حيث يطرح الكاتب ثلاثة أسئلة رئيسية تُعدُّ محورًا لهذه الدراسة وهذه الأسئلة هي: هل يمكن أن توجد حضارة بلا أخلاق؟ وهل يُقبَل أن نتحدَّث عن أخلاق بلا دين؟ ثم هل يُستساغ عقلاً وعادةً وجودُ دين بلا أخلاق؟.

وتقرر الدراسة أنَّ الأخلاق "لا هي وظيفية، ولا هي عقلانية"؛ وأنَّ العلم والعقل لا يمكنهما أن يقولا شيئًا عن الأخلاق والقيم، ولا عن الثابت والمشترك الإنساني. وتَعتبر الدراسةُ أن ما سبق يُعدّ مدخلاً وملاحظةً يمكن الاتكاء عليها قبل الولوج إلى موضوع هذه الدراسة وهي: مكانة الأخلاق في بناء الحضارة عند المفكِّرَين، مالك بن نبي، وفتح الله كولن؛ حيث يستعرض الكاتب مرجعية الأخلاق عمومًا، ثم كيف يمكن التعامل معها معرفيًّا وحضاريًّا، وذلك من خلال استبطان البحوث والدراسات التي ألَّفها هذان العلمان، واستعراض المفاهيم والنظريات والإجراءات التطبيقية التي أصَّلاها.

كمال الإنسان بالأخلاق، نظام العالم بالأخلاق. (فتح الله كولن)

السياسة من غير أخلاق ما هي إلا خراب الأمة. (مالك بن نبي)

***

صدَّر المفكِّر علي عزَّت بيجوفيتش الفصل الرابع من كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب" بهذه العبارة الملهِمة: "يوجد ملحدون على أخلاق، ولا يوجد إلحاد أخلاقيٌّ"[١]؛ وهذا القانون يدفعنا إلى السؤال عن العلاقة بين ثلاثية (الدين/الأخلاق/الحضارة): فهل يمكن أن توجد حضارة بلا أخلاق؟ وهل يُقبَل أن نتحدَّث عن أخلاق بلا دين؟ ثم هل يُستساغ عقلاً وعادةً وجودُ دين بلا أخلاق؟

تلكم هي إشكالية هذه الدراسة، فالمقصد هو أن نفهم، وأن نفسِّر بعد ذلك، ظاهرةً لطالما أرَّقتنا واقعيًّا وحضاريًّا؛ وهي ظاهرة "المتديِّن غير المتخلِّق"، و"المتديِّن المتخلِّق غير المتحضِّر"، ثم "الملحد الذي يدَّعي الأخلاق"، أو "غير المتديِّن المنعوت بالحضارة"؛ أي أنَّ الدراسة أساسًا تعنى بالتحليل الحضاري القائم على خاصية "الحركية بين الفكر والفعل"، كما اصطلح عليه في "نموذج الرشد"[٢].

المسيري يستفسر

في مقدِّمة كتاب "العالم والغرب" لصاحبه "كافين راييلي" يسأل المسيري، وهو مترجم الكتاب، سؤالاً يقع في قلب الإشكالية التي طرحناها، يقول فيه: "كيف يتأتَّى لنا أن نعيش سويًّا دون أن يكون هناك قيَم عامَّة نستند إليها حين نحكم على أنفسنا وعلى الآخرين؟ قيمٌ يمكن الاحتكام إليها إن اختلفنا، وإن رأينا البشر يتصرَّفون مرَّة أخرى مثل القرود، قيمٌ تمكِّننا أن نسمِّي الإنسان إنسانًا، والقرد قردًا"[٣]

فالحديث عن القيم يفترض لزوما وجودَ مرجعية ثابتة متمكاسكة متسامية على الواقع وعلى تسارع الأحداث، غير خاضعة للأمزجة والاعتبارات، وغير متلوِّنة بالعنصريات وروح الجماعات؛ فلو افترضنا أنَّ خُلقا مثل "الصدق" مثلاً، كان نسبيًّا متغيِّرًا، مصلحيًّا بشريًّا؛ فإنَّه بالضرورة يفقد معياريته، وبالتالي تنتفي إمكانية الاحتكام إليه.

ولذا، فإنَّ الموقف "الإنساني الهيوماني[٤] لا بد أن يؤدِّي بالضرورة إلى ضرب من ضروب الإيمان بالله، أي إلى الاحتكام إلى الدين"، ومن ثمَّ فإنَّ أيَّ إنسانية "مادية"، متنكِّرة "للروح، والمعنى" و"للإله المتعالي المتجاوز" كما هو الحال مع "الإنسانية الماركسية أو الليبيرالية في الغرب"؛ مثل هذه الإنسانية "لا يمكن أن تتَّسق مع نفسها، ولا بد أن تتحوَّل في نهاية المطاف إلى الإيمان بالله، أو إلى عدمية كاملة"[٥].

فمثلاً، لو عثر إنسان محتاج في شارع عمومي على ظرف به دراهم كثيرة، مكتوب عليه اسم صاحبه وهاتفه؛ ثم أعاده إليه أو أودعه مصلحة الأمن للبحث عن صاحبه؛ فكيف يفسَّر هذا الموقف وهذا الفعل خارج دائرة "الدين، والواجب، والقيم، والأخلاق، والإله"؟ وهل من المصلحة أن يعيد الظرفَ، وهو في مأمن عن أي عقوبة أو متابعة؟

لا بد من الإقرار إذن أنَّ الأخلاق "لا هي وظيفية، ولا هي عقلانية"[٦]؛ وأنَّ العلم والعقل لا يمكنهما أن يقولا شيئًا عن الأخلاق والقيم[٧]، ولا عن الثابت والمشترك الإنساني[٨].

هذا المدخل، وهذه الملاحظة، تساعدنا في السؤال عن مكانة الأخلاق في بناء الحضارة عند المفكِّرَين، موضوعِ الدراسة: مالك بن نبي، وفتح الله كولن، ثم ما هو مرجع الأخلاق عمومًا؟ وكيف يتعامل معها معرفيًّا وحضاريًّا، من ثنايا ما ألَّفا من بحوث ودراسات، وخلَّفا من مفاهيم ونظريات؟

وإذا رمنا تبسيط الإشكال قلنا: هل يمكن أن نبعث حضارة بلا أخلاق؟ وهل يمكن أن نُرسي قواعد للأخلاق بغير دين؟ وهل الإنسانُ مرجعُ ذاته؟ وهل يوجد إنسان أو مجتمع مرجعيٌّ، منه تستنبط المعايير؟ وهل اعتبار البعض للنموذج الماديِّ الواقعيِّ الموضوعيِّ مرجعًا، هو من قبيل أنسنة الأخلاق؟

للإجابة عن الإشكال، في تشكلاته المختلفة، نحثُّ الخُطَى نحو كتابات المفكرَينِ العالمَينِ: مالك بن نبي رحمه الله، وفتح الله كولن حفظه الله. مع الاعتراف ابتداء أنَّ الدراسة لا تجيب عن جميع جوانب السؤال، وإنما هدفها هو مقاربة السؤال الصحيح بالجواب الصحيح، وأن تثير وتستثير البحث العميق الجادَّ، بغرض تفعيله وبمقصد البحث عن "نافعيته"[٩]، فإنَّ الأمَّة اليوم -وهي في طور الحيرة والبحث عن الذات[١٠]- أحوج ما تكون إلى حضارة كونية إنسانية رحبة، وبالتالي فهي أحوج ما تكون إلى ركائز لهذه الحضارة: أولاها "الدين الحقُّ" وثانيها "الخلق الصدقُ"؛ وما كان خارج ذلك فهو سفه وضلالة.

المعالجة المصدرية

بتتبع نماذج مما ألَّف كلٌّ من مالك بن نبي، وأمثلة ممَّا ألف فتح الله كولن، مما تُرجم إلى اللغة العربية؛ يمكن أن نسجِّل ملاحظة ذات مغزى، وهي أنَّ ثلاثية

ينبغي الحفاظُ على النفس، والتعمُّق فيها، والسعي لإدراكها. فمن كان يريد إحراز لقب الفاتح فليفتح قلعة النفس أولاً، ومن استعصى عليه فتح الداخل لا يمكن أن يفتح شيئاً في الخارج.

nesemat.com نسمات nesemat.com

"الدين/الأخلاق/الحضارة" تقع في صلب اهتمامهما، مع تباين في المنهج والتحليل، يمليه البعد المعرفيُّ، ودائرة الاهتمام، والأوليات الدعوية والفكرية لكلٍّ منهما؛ وكذا خاصية "الوعاء الحضاري"[١١] الذي ينتميان إليه، و"النسيج الحضاري"[١٢] الذي يصدران منه.

فمالك بن نبي كتب فصلا عن "التوجيه الأخلاقي" في كتابيه "شروط النهضة"، و"مشكلة الثقافة"؛ ضمن العنصر الأول في معادلة الحضارة أي "الإنسان"، وتحت مسمَّى "فكرة التوجيه"[١٣]؛ وفي "ميلاد مجتمع" ذكر أنَّ أوَّل عمل يقوم به مجتمع مّا فور ميلاده هو ربط شبكة العلاقات الاجتماعية، أي هو خُلق التآخي في حال المجتمع الإسلامي؛ ثم إنَّ أوَّل ما يفقده المجتمع وهو متوجه نحو حتفه هو تداعي البناء الخلقي؛ ويمكن أن نستنتج أنَّ التوتر الخلقي قد بلغ ذروته في العهد المدنيِّ، ثم شرع في التدنِّي بعد صفين[١٤]؛ وبلوغ "الحالة الكاملة" للمجتمع، يعني اكتساب ذلك المجتمع "لخصائص وملكات تحت سيطرة الروح، ومتصلة بالاعتبارات ذات الطابع الميتافيزيقي" وهو ما يعبَّر عنه "بأعلى درجات التوتُّر الأخلاقي"[١٥].

وفيما يخصُّ العلاقة بين النزعة الأخلاقية والنزعة الجمالية في منظومة الثقافة، بيَّن ابن نبي أنه "بديهي أن تكون ثقافة أيِّ مجتمعٍ ناشئٍ ثقافة أخلاقية، وعلى عكس ذلك حالة المجتمع أوان أفوله؛ إذ نجده يُغرق

الحديث عن القيم يفترض لزوما وجودَ مرجعية ثابتة متماسكة متسامية على الواقع وعلى تسارع الأحداث، غير خاضعة للأمزجة والاعتبارات، وغير متلوّنة بالعنصريات وروح الجماعات.

nesemat.com نسمات nesemat.com

في نزعة جمالية تبتعد قليلاً قليلاً عن أصول الجمال الحقِّ"[١٦] أي الجمال المنضبط بالأخلاق.

والقارئ لكتاب "وجهة العالم الإسلامي"، بخاصة الجزء الأوَّل منه؛ يسجل العديد من الفقرات، فيها يحلل المؤلف بمنهج تاريخيٍّ نقديٍّ، علاقة الدين والأخلاق بالحضارة؛ من ذلك كون الفضائل، من مثل: "احتقار مجدٍ حان موعده، ورفض سلطة لا تقوى على حقٍّ، وتحدٍّ يجابَه به ظالم باغ"، مثل هذه الفضائل هي التي "حفظت في العالم الإسلامي سرَّ الحياة الذي أودعه فيه القرآن". ثم صاغ ابن نبي ملاحظة ذات أهمية، فقال: "من هنا ندرك سرَّ القيمة التي خصَّ بها (عالم الاجتماع) محمد ﷺ، الفضائلَ باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارات"[١٧].

ويستنتج ابن نبي من تتبعه لحركية التاريخ أنَّ "الدين هو مركَّب القيم الاجتماعية"[١٨]، وبالتالي يسميه "مركَّب الحضارة". وعن كون "العلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية أكثر ضرورة من العلوم المادية" في الظروف الراهنة للمسلمين خاصة، وللبشرية بعامة، كتب ابن نبي قراءة دقيقة عميقة[١٩].

أمَّا فتح الله كولن فله كتاب في أربعة أجزاء، وهو محوريٌّ في نتاجه الفكري، بعنوان "التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح" تُرجم منه إلى العربية جزءٌ واحد؛ وهو كلُّه في الأخلاق بمفرداتٍ وقاموس "صوفيٍّ" ظاهرًا؛ لكنه في الواقع طرحٌ "حضاريٌّ-عمليٌّ" مختلفٌ عن الطرح التقليدي المألوف؛ وضمن الكتاب فصل بعنوان: "الخُلق"[٢٠]. ومن الأخلاق التي شرح معناها، وصاغ تطبيقاتها، ضمن الفصل الأول نذكر: "الاستقامة"، و"التواضع"، و"الصبر"، و"الإحسان"[٢١].

وفي "النور الخالد" فصول طويلة عن "الأخلاق" وعلاقتها بالدين والحضارة؛ لكن بمنهج تاريخيٍّ متجاوز للسرد والحدث، موغِل في الدعوة والتوجيه؛ من ذلك فصل "خصائص الأنبياء"[٢٢]، الذي تعرَّض فيه إلى "ربَّانية" دعوتهم عليهم السلام، أي كونها مرتبطة بالسماء؛ ثم نبَّه إلى "التجرد والتوجُّه إلى الله وحده"، وهو معيارٌ لا يخطئ في الحكم على الصدق من غيره؛ ثم تناول خلق "الإخلاص"، علمًا أنه أفرد له عنوانًا خاصًّا في "التلال الزمردية"، ومما قاله في هذا الشأن: "إن كان العمل جسدًا فروحه الإخلاص، وإن كان العمل جناحًا فجناحه الآخر هو الإخلاص. فلا جسد بلا روح، ولا يوصَل إلى مكان بجناح واحد"[٢٣]. ثم في "باب: صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء" بسط فصلاً عن "الصدق"؛ مبيِّنًا أنَّ خلق "الصدق هو محور النبوة، ومدار ارتكازها"[٢٤]، وفصلاً آخر عن "الأمانة" ربط فيه بين الإيمان والأمانة، وذهب إلى أنهما لا ينفصمان[٢٥].

ولعلَّ ما يميز العرض الدعوي للأخلاق في "النور الخالد" عن غيره هو ذلكم الفصل الخاص بخلق "الفطنة"، والذي يُعتبر روحَ الكتاب ولبَّه؛ وفيه عرَّف الفطنة أنها "تجاوز العقل بالعقل" وهي "منطق النبوة" وخصائص هذا المنطق "النظر إلى الأشياء والحوادث من خلال منظار قد جمع بين الروح والقلب والحس وسائر اللطائف الإنسانية" أجل "إنَّ الفطنة ليست عقلاً ومنطقًا فحسب، بل إضافة الإسلام إلى العقل والمنطق"[٢٦].

وعند تحليل "باقة من أحاديث المصطفى ﷺ" عاد فتح الله مرة أخرى إلى "الصدق" لأهميته، ثم نوَّه بجملة من الأخلاق الأخرى في بيان النبوة علمًا وعملاً[٢٧] منها "تواضعه"، و"كرمه"، و"بساطته" وملخص القول أنه ﷺ هو الذروة في كلِّ شيء، وهو الذروة في الأخلاق والخلال الحميدة.

بما أنَّ الأخلاق لا تكتسب إلاَّ بالتربية، وبما أنَّ رسالة فتح الله التي صبغ بها حياته هي التربية، وبما أنَّ النور الخالد إنما أُلِّف لعرض الخدمة على معايير النبوة والخلافة الراشدة لا بغرض التعليم المنهجي التقليدي، أو الدرس الوعظي الكلاسيكي... اعتبارًا لكلِّ ذلك عقد فتح الله جزءًا كاملاً للتربية عنونه بـ" النبي ﷺ مربيًا"؛ مشيرًا إلى أنَّ "أفضل ممثل لصفة الربِّ لله تعالى، هو سيدنا محمد ﷺ، أي هو أفضل من يمثل هذا الاسم من الأسماء الحسنى"[٢٨].

والحقُّ أنَّ عرض مادة الأخلاق، من مداخلها وتصرفاتها المختلفة، من خلال النور الخالد، يمكن أن يشغل بحثًا كاملاً، وهو ما لسنا بصدده؛ مؤكدين على ضرورته في سياقات أخرى، لعل القدر يجود بها.

ويأتي كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" من العنوان إلى آخر سطر فيه، لوحة فنية، بديعة الألوان، مشكَّلة بعناية، في معالجة ثلاثية "الدين/الأخلاق/الحضارة"، في مقالات عديدة، منها: "دنيا في رحم الولادة"، و"نحو عالمنا"، والشعور بالمسؤولية" وغيرها مما يحسن العودة إليه مباشرة، لاستكشاف الخلفية الإيمانية والخلقية للحضارة، كلُّ ذلك استبشارًا واستعدادًا "للانبعاث بعد الموت"، قصد قدح "الشرارات الأولى لفكر نهضة كبرى، هي أشمل وأوسع نهضة تهفو إليها

منظومة الأخلاق عند فتح الله كولن هي "أسماء الله الحسنى"؛ فكلُّ خلق حسنٍ، وكلُّ قيمة مُثلى، هي تمثُّلٌ لاسم -أو أكثر- من أسمائه الحسنى بوجه من الوجوه، وباعتبار من الاعتبارات؛ وذلك بموجب "تخلَّقوا بأخلاق الله".

الأعناق منذ قرون"[٢٩].

أمَّا كتاب "ونحن نبني حضارتنا" فهو امتداد وتتمة لـ"ونحن نقيم صرح الروح"؛ وفيه تبدو العلاقة الوطيدة واللحمة الكثيفة بين المفكرَين مالك بن نبي وفتح الله كولن؛ وأجزم أنه لا يوجد كتابان متقاربان شكلاً ومعنى، بين الأستاذين، أكثر من "شروط النهضة" في مقابل "ونحن نبني حضارتنا"؛ بل إنَّ الأستاذ فتح الله اعتمد شروط النهضة من بين مصادره، وتبنى جملة من منطلقاته ومفاهيمه، ثم أضاف إليها الكثير، وعلى رأس تلك المفاهيم "القابلية للاستعمار"، وهو مفهوم ذو بعد خلقيٍّ باعتبار[٣٠].

منحة من السماء إلى الأرض

يقول مالك بن نبي عن كون الأخلاق وروح الأخلاق تعود إلى "الإله" وإلى "الدين" بالتبع: "هذه الروح الخُلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال:٦٣)[٣١].

وفي سياق مغاير، يربط ابن نبي بين الدين والسلوك بقوله: "العنصر الديني عامَّة، فضلاً عن أنه يغذي

nesemat.com نسمات nesemat.com

إننا إذا تَفَهَّمنا الحركيةَ التي أوجدتها العقيدةُ الإسلامية في القلوب المؤمنة، فسنفهم الأسباب والدوافع الحقيقيةَ للهبوط والصعود على مستوى الفرد أو المجتمع، بل وسندرك الأسسَ المهمة التي نجمع بها شملنا ونرجع بها إلى وعينا ونلحق بالقافلة التي تأخَّرنا عنها.

الجذور النفسية العامة، يتدخل مباشرة في الشخصية التي تكوِّن الـ"أنا" الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه الـ"أنا""[٣٢].

وفي مقال "الوعي الجمعي" يردُّ فتح الله كولن السبب إلى "الثقافة الدينية" التي هي سبب في إرساء مكارم الأخلاق، ويقول: "إنَّ الوعي الجمعي يحمل في أعماقه أسباب وجودنا وأسرار بقائنا أمَّة، إذ يستقي مادَّة حياته من منبع ثقافتنا الدينية وهويتنا الذاتية، وبفضله تتناغم مكارم الأخلاق مع الحياة الاجتماعية".

وفي سياق مماثل، وصف فتح الله النجاحات التي حققها المسلمون الرواد عبر التاريخ، في المستوى الحضاري، وفي المستوى الأخلاقي، وفي جميع المستويات الأخرى؛ واعتبر الدين هو شعلة هذه الثمرات التي قد تبدو أحيانًا فوق الخيال، وقال: "قد تبدو لنا النجاحات وكأنها تحدث في عالم من الخوارق بدفع من قوى غامضة خفية؛ بينما يمكن إرجاعها جميعًا إلى مرجعية أساسية حيوية، ألا وهي هويتنا الذاتية وشخصيتنا الثقافية المعنوية التي نهلت من روح الدين وتغذَّت بجوهره وتشبَّعت بحقائقه الخالدة. وإنه لمن الحقائق الكبرى التي لا تقبل الشك والمراء، أنَّ أبناء أمتنا النجباء، بفضل هويتنا الذاتية هذه، قد اجتمع شملهم والتأم شتاتهم حول فكرة واحدة وعاطفة واحدة مرات عديدة طوال التاريخ؛ فانتظمت صفوفهم على غايات متبادلة وأحلام مشتركة، وخفقت قلوبهم بنفس المشاعر والآمال، ودافعوا جنبًا إلى جنب عن القيم السامية ذاتها، وكافحوا صفًّا واحدًا من أجل المبادئ العالية نفسها، واستبقوا فيما بينهم دون توقف أو فتور لتحقيق الرؤى المنشودة عينها والمقاصد السامية نفسها"[٣٣].

لكنَّ هذا العطاء السماوي، لا يجوز أن يبتر، أو يجزأ، فالإسلام "كلٌّ يستحيل تجزيئه"[٣٤]؛ يقول فتح الله: "الإسلام "كلٌّ" يستحيل تَجَزُّؤه، ويستحيل أن يُحمَّل جزؤه القِيَمَ المحمَّلةَ على الكل. فإنَّ تجزئته إلى أجزاء، ثم محاولةَ استنباطِ فهمٍ كاملٍ وتام من الأجزاء غلطٌ وخلط وإهانة لروحه. وسوف يبقى من يريد أن يفهمه أو يحصره في تفسيرِ آياتٍ وأحاديث معدودة بأسلوب وعظيٍّ، مهزوزَ الوجدان بأحاسيسِ نقص حقيقي، ومُعانِيًا من خواء روحي دائم؛ مهما كدَّ وسعَى لسماع مجموعة الأنغام الرائعة هذه.

الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاًّ متكاملاً، فيفسرها، ويقوِّمها بقيمه، ويقدِّم لمنتسبيه مائدةً سماوية من غير نقص"[٣٥].

وقد سجلت جيل كارول ملاحظة عن فتح الله كولن في العلاقة بين القيم والإله، ومما قالت: "هنا أيضًا نجد أن كولن ينسب القيمة الإنسانية إلى الله، فالإنسانية أو الوجود الإنساني هبة لا يجوز التعدي عليها أو انتهاكها، ومن ثم فهي الأساس في كل ما أمر به الله كحماية الناس والحفاظ على حياتهم وكل ما نهى عنه كإيذاء الناس أو سرقة مالهم"[٣٦].

ولو تعمَّقتْ كارول أكثر في حقيقة علاقة القيم بالإله، لما انقطع بها النفس في هذه الملاحظة الأوَّلية؛ ولاكتشفت أنَّ مركز القيَم والأخلاق، ونقطة العطالة، في منظومة الأخلاق عند الأستاذ فتح الله هي "أسماء الله الحسنى"؛ فكلُّ خلق حسنٍ، وكلُّ قيمة مُثلى، هي ولا بدَّ تمثُّلٌ لاسم -أو أكثر- من أسماء الله الحسنى، بوجه من الوجوه، وباعتبار من الاعتبارات؛ وذلك بموجب "تخلَّقوا بأخلاق الله".

المقصد العملي

في مستهلِّ فصل "التوجيه الخلقي" يقول مالك بن نبي: "لسنا هنا نهتمُّ بالأخلاق من الزاوية الفلسفية، ولكن من الناحية الاجتماعية؛ وليس المقصود هنا تشريح مبادئ خلقية، بل أن نحدِّد قوَّة التماسك اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية"[٣٧] أي مجتمع طور "الميلاد" من جديد؛ ومن ثم فالمعالجة ليست لغرض نظري تنظيري، بقدر ما هي لأهداف حضارية عملية مسؤولة.

وفي تحليل مفهوم الثقافة ضمن سياق "ميلاد مجتمع" يذكر ابن نبي "أنَّ الثقافة تحتوي بصفة عامة عددًا من الفصول هي: الأخلاق، والجمال، والمنطق العملي، والصناعة الفنية. ولكن الأمر يقتضينا أن نتساءل: كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد، في ظروف نفسية زمنية معيَّنة، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية، وفي مستوى أهداف الإنسانية"[٣٨]. والحديث هنا عن الفاعلية والتفعيل، لا عن النظرية والتنظير.

ولعلَّ الحركية المقرونة بالفكر دائمًا، لا تنظيرًا فقط،

لا يتصور أن يتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق، على يد أناس فقراء في قيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم، وإن ظهر عليهم مظاهر المؤمنين الصالحين.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ولكن تطبيقًا وتجسيدًا في أرض الواقع، هي السمة الأساس عند الأستاذ فتح الله كولن، وفي مشروع الخدمة ككل؛ فليس المقصد عند الأستاذ، وهو يعالج الدين، أو الأخلاق، أو الحضارة، من مداخل متنوعة، أن يضيف نظرية جديدة، ولا أن يبني صرحًا معرفيًّا تليدًا؛ وإنما المقصد هو الفعل المباشر المُرضي لله تعالى؛ ويكفي دليلا على هذا الحكم، ما انتهى إليه "مؤتمر القاهرة" من نتائج أبرزها، كما ورد في توصيات المؤتمر: "أهم ما أثار النقاشات فيما بين الحضور كان البعد الحركي والمؤسسي لتجربة كولن؛ فمع تعدد نظريات الإصلاح الإسلامية وتشابهها، إلاَّ أنها ظلت في بعض الحالات دون تفعيل؛ أو أنها آلت إلى الفشل في بعض الحالات الأخرى، من هنا كان نجاح الشيخ كولن في الربط بين الفكر والحركة مثارًا لإعجاب الجميع. وترددت بكثرة كلمات مثل: التفعيل، والفعالية، والحركية الفكرية. وهي تدل في مجملها وبوضوح على عطش عربي للفعالية والحركة"[٣٩].

ولقد أكَّد هذا التوجه الحركي والمنطقي فتح الله نفسه، وهو يرسم خطَّ السير للخدمة، فقال: "نحن نلخص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا الحقيقي لا يتم إلا عبر الحركية والفكر... حركية وفكر قادران على تغيير الذات والآخرين. والواقع أن كل كيان ثمرة حركة ومجموعة

إن الوعي الجمعي يحمل في أعماقه أسباب وجودنا وأسرار بقائنا أمَّة، إذ يستقي مادَّة حياته من منبع ثقافتنا الدينية وهويتنا الذاتية، وبفضله تتناغم مكارم الأخلاق مع الحياة الاجتماعية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

من المبادئ والتصورات، كما أن بقاءه مرتبط باستمرار هذه الحركة وتلك التصورات.

وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف قاهرة، نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات ونفتح صدورنا أمام معضلات... الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل. فإن لم نتحرك وفقًا لهويتنا الذاتية الأصيلة، فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم"[٤٠].

الخُلق خميرة الفكر

لطالما تساءلنا، وتساءل المفكرون والعلماء من قبلنا: كيف يتحول الفكر إلى فعل؟ ما هو السبب أو ما هو السر؟ وكثيرا ما طرح الزوار لمشاريع "الخدمة" هذا السؤال المحوري: لماذا أفكارنا لا تتحول إلى واقع وسلوك وبناء حضاري، وأفكار الأستاذ فتح الله تشكلت بهذا القدر واقعًا حضاريًّا عالميًّا؟

الجواب الوحيد، هو في منظومة الأخلاق والفضائل التي يتسم بها المنتسبون إلى الخدمة؛ وإن كنت أقرُّ أنَّ هذا الجواب قد يدخلنا في دورة الدجاجة والبيضة، أيهما أسبق؟ فهل هذه الأخلاق ثمرة لهذه الخدمة، أم هي بذرة لها. علما أنَّ الظاهرة الاجتماعية الإنسانية المعقَّدة مركَّبة، لا تقبل الاختزال، فهي بالتالي ثمرة باعتبار، وبذرة باعتبار آخر.

فالصبر، ومحاربة الأنا، والإيثار، والتآخي، والصدق، والوفاء... وغيرها من الأخلاق والمحامد، هي التي تمكِّن أيَّ فكرة، ومخطَّط، ومشروع، ورؤيا، ورسالة... من التمثُّل الشفَّاف على خطِّ الزمن؛ والنفسُ حين تتكدر، وتتعفَّن، ويسيطر عليها الأنا، والهواجس، والدناءات، تكون "كابحًا" و"حاجزًا" و"سدًّا منيعًا" أمام الفكر، تشوش على صفائه، وتلقي ظلالها عليه، فيخمد ويخبو، ثم يتسمم، فتجد "العبارة الجميلة" و"المعنى الجميل" و"الفكر الأصيل" في بيئة من الخلق الفاسد تتحول إلى "شعارات فارغة"، و"ادعاء ميِّت أو مميت".

ولا بد أن نقرَّ أنَّ ما عاناه مالك بن نبي، وعبَّر عنه في جملة من مؤلفاته، وبخاصة في مذكراته "العفن"، ومقدمة الجزء الثاني من "وجهة العالم الإسلامي"، وفي ثنايا الجزء الأول منه؛ كلُّ ذلك يمكِّننا من الاعتراف أنَّ البيئة الخلقية الخصبة لم تتوفَّر لفكر ابن نبي، وبالتالي لم يتجسد مشروعه مباشرة -على الأقل- في دوائره المنداحة، سواء في ذلك التي انتسب إليها، أو التي سافر إليها؛ وذلك لعوامل كثيرة، وبخاصة منها ما كان من النفس، ومن الذات، وهو ما حدا به إلى أن يطور نظرية القابلية للاستعمار، وكان صريحًا وواضحًا في نقد "أخلاق" و"نفسية" مجتمعه، ومجتمع المسلمين عمومًا؛ وهو أمر لا نكاد نجده في فكر فتح الله؛ فهو وإن كان ينقد "نفسية العالم الإسلامي" عمومًا، إلاَّ أنه يستبشر خيرًا برجال وبمجتمع وبوعاء حضاري تلقف مشروعه، وطار به إلى الآفاق: هجرة، وعشقًا، ووفاء، وأملاً.

ولا شكَّ أنَّ هذا المستوى الخلقي المتميز، هو كذلك من ثمرات فكر فتح الله اليانعة، وهو من توفيق

الله له، وهو فضل منه ومنَّة.

يقول فتح الله كولن:

• عندما تصاب الروح بالفتور، وتنخفض درجة حرارة القلب، ويخبو أوارُ الفكر، فأنت متوعك روحيًا... فعليك أن تصمت، لأن الصمت هنا أبلغ من كل كلام ميّت تقوله.

• وإنْ لم تطرح نفسك التي تضايقك وتعذبك بعيدًا خارج نفسك، فكيف يطهر كلامك ويتقدس فعلك؟!

• وإنْ لم ترتّب بيتَ نفسك أولاً، فكيف تستطيع أن ترتب بيوت نفوس الآخرين؟! وإنْ لم تكن نفسك جميلةً، فكيف تستطيع أن تجمّل نفوس الآخرين؟!"[٤١]

علم الكلام والأخلاق

في تقييم مسيرة "الحركة الإصلاحية" في العالم الإسلامي، وبخاصَّة عند مرحلة النشأة؛ ينقد مالك بن نبي "العقلية الأصولية" التي دفعت الإمام محمد عبده، مثلما دفعت محمد إقبال بعد ذلك، إلى الظنِّ أنه "من الضروريِّ إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة، حتى يمكن تغيير النفس"[٤٢].

ولقد كان النقد لاذعًا، ولعلَّ ابن نبي بالغ فيه، فنفى كلَّ ثمرة عملية لهذا العلم؛ والحقُّ أننا قد نوافقه في كثير من جوانب النقص والضعف، وبخاصَّة ما كان منها متعلقا بالبرامج والمناهج الدراسية؛ لكننا لا نسايره في جميع ما ذهب إليه؛ ولعلَّ فتح الله كولن، رغم نزعته الحضارية العملية، كان أكثر إنصافًا، وقد أدرك موطن الخلل وتجاوزه دون احتكاك، اتساقا مع منهجه الدعويِّ السلميِّ عمومًا؛ وفي ذلك يقول: "وقد حرص قسمٌ من المفكِّرين والعلماء على البقاء في إطار الكتاب والسنة ولم يسوقوا رأيًا منهم في هذه

nesemat.com نسمات nesemat.com

كولن، ينسب القيمة الإنسانية إلى الله، فالإنسانية أو الوجود الإنساني هبة لا يجوز التعدي عليها أو انتهاكها، ومن ثم فهي الأساس في كل ما أمر به الله كحماية الناس والحفاظ على حياتهم وكل ما نهى عنه كإيذاء الناس أو سرقة مالهم.

المسائل، في حين أنَّ البعض الآخر لم ير بأسًا في مدِّ البيان بالبرهان وإثرائه بالعرفان، وتوسيعِه بالمحصلات الصوفية والفلسفية، بل رأوا أن الاشتغال بها على هذا الوجه خدمة للدين. صحيح أن التوسع على هذا النحو قد أَدخل إلى النظام الفكري الإسلامي أفكارًا ضالَّة من رواسب الميراث القديم، لكن الواقع أيضاً أنه فَتَحَ أمام المسلمين آفاقاً عظيمة وواسعة.

ولسنا بصدد الجدال حول فوائد علم الكلام أو أضراره، بل غاية ما نريده هنا هو الاكتفاء بالتذكير بأنه مصدر رحب ومعطاء في ميراث ثقافتنا. ولا نريد أن نخوض في أمور تفتح الباب لنقاشات جديدة"[٤٣].

والحقُّ أنَّ أهمَّ نقد وأصدقه يتوجَّه إلى علم الكلام إنما يكون حين ينفصم عن الواقع، ويصير درسًا تراثيًّا باردًا، ولا يسهم في تغيير النفس بشيء؛ وفي هذا يقول ابن نبي نفسه: "والمسلم حتى مسلم ما بعد الموحدين، لم يتخلَّ مطلقا عن عقيدته، فلقد ظلَّ مؤمنًا، وبعبارة أدق ظلَّ مؤمنًا متديِّنًا، ولكنَّ عقيدته تجرَّدت من فاعليتها... وعليه فليست المشكلة أن نعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهمُّ أن نردَّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إنَّ مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده،

قد تبدو لنا النجاحات وكأنها تحدث في عالم من الخوارق بدفع من قوى غامضة خفية؛ بينما يمكن إرجاعها جميعًا إلى مرجعية أساسية حيوية، ألا وهي هويتنا الذاتية وشخصيتنا الثقافية المعنوية التي نهلت من روح الدين وتغذَّت بجوهره وتشبَّعت بحقائقه الخالدة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة"[٤٤].

ويربط فتح الله بين العقيدة والأخلاق، ومن ثم بين العقيدة والحضارة، دون أن يعود باللوم إلى علم الكلام، فيقول: "ونحن نؤمن بأنا إذا تَفَهَّمنا الحركيةَ التي أوجدتها -أو توجدها- العقيدةُ الإسلامية في القلوب المؤمنة، فسنفهم الأسباب والدوافع الحقيقيةَ للهبوط والصعود، أو السقوط والارتقاء على مستوى الفرد أو المجتمع، بل وسندرك -من جديد- الأسسَ المهمة التي نجمع بها شملنا ونرجع بها إلى وعينا ونلحق بالقافلة التي تأخَّرنا عنها"[٤٥].

الصفة والموصوف

أضع هذه الصورة الذهنية سندًا للإشكال الذي طرح في هذه الدراسة: تصوَّر لو أنَّك خيِّرت بين نمطين اثنين من الناس، أفرادا أو جماعات:

- النمط الأول: موافق لك دينًا، و/أو مذهبًا، و/أو وطنًّا، بل وحتى حركة وانتماء دينيًا أو سياسيًّا؛ ولكنه سيء الخلق، غير صدوق نسبيًّا، ذاته ذات مهيمنة، وكلامه كلامٌ بذيء خبيث غيرُ طيِّب، وسلوكه غير سويٍّ.
- النمط الثاني: مخالف لك، دينًا، و/أو مذهبًا، و/أو وطنًا، و/أو حركة وانتماء؛ غير أنه دمِثُ الخلق، متنكِّر لذاته وأنانيته، كلامه طيب، وسلوكه سويٌّ.

السؤال هو: من ستختار في منعرجاتك الحياتية، مثل: الشراكة، أو المصاهرة، أو التحزب، أو حتى عند الميل القلبي والعاطفي، وعند الحكم القيمي؟

لا شك أنَّ المرء سيرتبك، وقد يفترض أنَّ "الخلق الحسن" ملازم "للانتماء" الذي اختاره؛ وقد يكون استبطن هذا الفهم، دون أن يصدح به أو حتى يفكِّر فيه جديًّا؛ ولكنَّ أحداثًا يومية تعتري الإنسان، وتصرُّفات تصدر من الموافق غير متوقعة ولا محسوبة، تجعل الواحد منا يعيد حساباته، ويحاول معالجة القضية بعمق أكبر، وبصراحة أكثر.

هنا يجيب الأستاذ فتح الله في "الوصف الرابع لورثة الأرض"، بقوله:

"إنَّ قيمة الإنسان الحقيقية وثيقة الصلة بعمق عواطفه ورقيّ فكره وتكامل شخصيته. وإن لهذه الأوصاف دورًا كبيرًا في تعيين مكانة الإنسان لدى الحق تعالى والخلق أجمعين. فإن الخصال الإنسانية السامية وعمق المشاعر والفكر وسلامة الشخصية بطاقةُ اعتماد مطلوبة دائمًا وفي كل مكان. ومن يكدّر إيمانه وإذعانه بأوصاف وأفكار كفرية، ويُثير القلَق والشبهة في محيطه بشخصيته، لن يكون مظهرًا لتجلي تأييد الحق تعالى وعنايته. وكذلك لا يمكن أن يحافظ على احترام الناس له وثقتهم به. فإن الحق تعالى، والناس، يقيّمون الإنسان بخصاله الإنسانية وشخصيته الرفيعة ويكافئونه على ذلك. وبناء عليه، لا يتصور أن يتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق، على يد أناس فقراء في قيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم، وإن ظهر عليهم مظاهر المؤمنين الصالحين. كما لا يُتصوَّر أن يفشل فشلاً ذريعًا أناسٌ يتقدَّمون خطوات في سلامة شخصياتهم وخصالهم الإنسانية السامية

وإن لم يظهر عليهم مظاهر المسلمين الصالحين. فإنَّ تقدير الله تعالى ومكافأته تنظر إلى الخصال والصفات، وكذلك حُسن قبول البشر يقوم عليها بدرجة ما"[٤٦].

إذن بالفصل بين الصفة والموصوف، بين الشخص والسلوك الذي يتسم به، فصلاً نسبيًّا، يمكن أن نقرر أنَّ "تقدير" الله سبحانه، و"احترام الناس" لا يتعلقان بالموصوف لكن بالصفة، ولا يختصران على "الأسماء" دون "جوهر المسميات ودلالتها"، فنحن نحبُّ الصدق من أيِّ طرف يصدر، ونمقت الكذب من أيِّ جهة يرد؛ وهذا معنى من معاني قولهم: "الحقُّ قديم"[٤٧]، أي لا تغيره الاعتبارات، ولا الانتماءات، ولا الأزمنة ولا الأمكنة.

حضارتنا: بين الإشراق والأفول

لو تتبعنا سلسلة الأسباب، سائلين عن "نقطة الانطلاق"، وعن "محور البدء" في النهوض بالأمَّة من وهدتها، والإسراع بها نحو غدٍ مشرق، تكون فيه الكلمة للإسلام بكلِّ معانيه، غير مختزَل ولا مبتسَر ولا موهوم؛ تماما مثلما كانت فيه الكلمة للمسلمين الأُوَل في مدرسة المصطفى ﷺ؛ لو سألنا هذا السؤال الحضاريَّ على كلٍّ من فتح الله كولن، ومالك بن نبي؛ لكان الجواب واحدًا، لا اختلاف فيه: "إنَّه تغيير ما بالأنفس"، أو العودة إلى "الذات" إسلاما وإيمانا، خلُقا وإحسانا.

يقول فتح الله في مقال "وارثو الأرض": "إنَّ الأمم والشعوب التي تتعرَّض إلى التبدُّل داخليًّا في حياتها المعنوية، مصيرها إلى الخذلان غدًا، مهما كانت ظاهرةً اليوم. هو ذا التاريخ -وما أشبهه بمقبرة للأمم المنقرضة- يصرخ عاليا بصوت الحقيقة: ﴿إِنَّ الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(الرعد: ١١). التآكل الروحي والمعنوي في عالم الداخل الذاتيِّ للمجتمع، يوصل إلى

nesemat.com نسمات nesemat.com

الحركية المقرونة بالفكر دائمًا، لا تنظيرًا فقط، ولكن تطبيقًا وتجسيدًا في أرض الواقع، هي السمة الأساس عند الأستاذ فتح الله كولن، وفي مشروع الخدمة ككل.

انقطاع الأنعم الإلهية عنه. هذه الآية الكريمة تذكّرنا بقاعدة مهمَّة في الظهور والخذلان، أو العز والذل، وتحدد هذا الفراغ الهائل في مسلمي العصر الحاضر"[٤٨].

وفي فصل "القضاء والقدر من حيث الكتابة" من كتاب "القدر" يؤكد فتح الله على هذه القاعدة الأساسية، ويسميها "قانونًا"، فيقول: "لله سبحانه قانون وهو ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. فالله سبحانه لا يُذلُّ أمة عزيزة كانت تاجًا على الرؤوس إلاَّ إذا غيَّرت الأمة ما في داخلها (أي إيمانها وأخلاقها وقيمها). فهذا القانون سارٍ في المعنى الإيجابيِّ والسلبيِّ على السواء. لذا ينبغي الحفاظُ على النفس، والتعمُّق فيها، والسعي لإدراكها. فمن كان يريد إحراز لقب الفاتح فليفتح قلعة النفس أولاً، ومن استعصى عليه فتح الداخل لا يمكن أن يفتح شيئاً في الخارج"[٤٩].

ومع أنَّ حاضر المسلمين لا يدعو إلى الطمأنينة، ويئنُّ تحت وطأة التخلُّف والتمزُّق الداخليِّ والخارجيِّ؛ إلاَّ أنَّ الأمل قائم، بل هو واجب، وكلُّ محاولة لقتل هذا الأمل هي محاولة مغرضة ظالمة؛ ذلك أنَّ الله تعالى "وعد بإرث الأرض للصالحين من عباده... وهم ممثلو الروح المحمدية والأخلاق القرآنية"[٥٠]؛ بل إنَّ هذا الأمر من صميم إيمان المرء "فلا ينبغي أن يتردَّد امرؤ في توقع مجيء هذا اليوم، وهو وعد الله المؤكَّد"[٥١]، وهو القائل سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ

الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاًّ متكاملاً، فيفسرها، ويقوِّمها بقيمه، ويقدِّم لمنتسبيه مائدةً سماوية من غير نقص.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)، وماذا عن تحكُّم غير المؤمنين، وغير المتخلقين، في الكون، وفي مصير المسلمين اليوم؟

يجيب فتح الله أنَّ "غياب الممثِّلين الحقيقيين" يجعل من هو أفضل منهم نسبيًا في المقدِّمة، إلى أن يعود هؤلاء إلى الواجهة مرَّة أخرى؛ ويقول: "الدنيا تدور وتدور، وكلَّما دارت، تنسحب إلى فَلَكها الأصل. فهل وارثو الأرض الحقيقيون جاهزون لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، فخطفه غيرُهم قبل مدة؟ إن الحق الأول شيء، والحق المستلم بالتمثيل شيء آخر. فالحق إن لم يُمَثَّل حسب مقاييس قيَمه الذاتية، يمكن أن يُسترد في كل وقت، وإنْ مُنِح ابتداءً لأمة معينة وَجَمْعٍ معين... فيُستَرد منهم، ويُسَلَّم إلى من يكونون الأسبق والأفضل نسبياً في الأخير، إلى أن ينشأ الممثلون الحقيقيون"[٥٢].

ولا شك أنَّ الممثلين الحقيقيين هم الذين يجمعون بين الإيمان ومقتضيات الإيمان؛ وعلى رأسها وفي مقدمتها الأخلاق الفاضلة، والخلال الحسنة. ومن اتسم بهذه جاز أن نعتبره من "مهندسي الروح الربانيين"؛ إلا أنَّه لقتامة الواقع، ولغموض العصر "قد يمط بعضهم شفتيه استخفافًا إذا ما ذُكِرتْ القيم الأخلاقية والأعماق الداخلية للإنسان وأهمية الحياة القلبية والروحية؛ لكن ما من شك في أنَّ السبيل الواصلة إلى الإنسانية الحقيقية تمر عبر هذه القيم والحركيات السامية. ومهما كانت ظنون وتصوُّرات البعض منا، فإنه ليس اليوم أمام إنساننا المعاصر الذي انقصم ظهره تحت ثقل أزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية مختلفة، وناء بحمل حدبات عديدة في آن واحد، إلاَّ طريقًا واحدًا ينقذه من الكروب والملمات المتوالية؛ وهو تفعيل هذه الحركيات في كافة أنحاء الحياة. وإنّ تنفيذ هذه المهمة الحيوية لا يمكن أن يتم إلاَّ على أيدي ربانيين لا يهتمُّون بأنفسهم أبدًا، ولئن اهتموا فلأنهم يؤمنون بأن خلاصهم هو في إنقاذ الآخرين"[٥٣].

ولا بد من التذكير أنَّ بديع الزمان النورسي أعلن ثلاثيته الحضارية: "أعداؤنا ثلاثة: الجهل، والفقر، والفرقة"[٥٤]؛ ثم تبنتها الخدمة فكرًا وفعلاً؛ إلاَّ أنَّ فتح الله أضاف إليها عنصرًا رابعًا، رغم أنه قد ينطوي تحت أحدها، لكن لأهميته أبرزه الأستاذ وعمل على محاربته، يقول فتح الله: "كان الجهل والفقر والتفرق والتعصُّب وما يشبه ذلك، هم أعداؤنا في زمن ماضٍ. واليوم زِيد عليهم الخداع والتسلط والسفاهة والخلاعة واللامبالاة وضياع الهوية"؛ وغني عن البيان أنَّ هذا العدوَّ الجديد القديم، المتشكل في أشكال متوارية ملتوية، هو "سوء الخلق" في عنوانه الكبير، وفساد الدين في عنوانه الأكبر.

ولمالك ابن نبي كتاب بعنوان: "من أجل التغيير"؛ ويمكن أن يلقب بلا منازع "مفكر التغيير"، فمشروعه قائم على أساس "الحركية والحركة" الدائمة، وعلى التغيير المتواصل، مع ضوابط وشروط حددها مسبقًا؛ وهو يستند في جميع مؤلفاته إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وهو متفق تمام الاتفاق مع فتح الله كولن، أنَّ كلَّ تغيير من الخارج ما هو إلا ذر للرماد على الأعين، وما هو

إلا جعجعة بلا طحين؛ ولعل هذا أكبر نقد وأكثره حدة وجهه ابن نبي لـ"جمعية العلماء المسلمين" يوم انساقت وراء بريق السياسة، منحرفة عن مهمَّتها الكبرى، سنة ١٩٣٦م. وسمى هذا الانحراف عن مسار التربية "عودة إلى الأفكار الوثنية"[٥٥].

وفي تعريف التغيير المرتبط أساسًا بالنفس والقلب، يقول مالك ابن نبي: "وتغيير النفس معناه إقدارها على أن تتجاوز الوضع المألوف، وليس هذا من شأن علم الكلام، بل هو من شأن منهاج التصوف، أو بعبارة أدق، هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد، ويمكن أن نسميه "تجديد الصلة بالله"، ثم يضيف: "يهدف الإصلاح إلى توفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب، تلك الجماهير المتعطشة إلى انتفاضة القلب، كيما تنتصر على ما أصابها من خمود"[٥٦].

وعن نقطة الانطلاق الأخلاقية التي يجب أن تولد في قلب كل مسلم، وأن تنتشر في أرجاء العالم الإسلامي أجمع؛ يصوغ ابن نبي عنوانًا مثيرًا، وهو: "بواكير العالم الإسلامي"، ثم يصدره بآية عظيمة، هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾(النساء:١٢٣)، ويعيِّن للمسلمين في مخططهم مهمتين: الأولى أخلاقية نفسية، والثانية دعوية حضارية؛ وهو بهذا يجيب على سؤال جوهري في إشكال هذه الدراسة الموجزة، ويقول: "ليس العالم الإسلامي طائفة من الخلْق منعزلة عمَّا سواها، فهي قادرة على أن تكمل تطورها داخل وعاء مغلق، بل إنه يمثل في رواية الإنسانية دورين يقوم بهما في وقت واحد، دوره ممثِّلاً، ودوره شاهدًا، هذا الاشتراك المزدوج يفرض عليه واجب التوفيق بين حياته المادية والروحية وبين مصائر الإنسانية. فهو لكي يقوم بدور مؤثر فعّال في حركة التطور العالمي

الصبر، ومحاربة الأنا، والإيثار، والتآخي، والصدق، والوفاء، وغيرها من الأخلاق والمحامد، هي التي تمكِّن أيَّ فكرة، ومخطَّط، ومشروع، ورؤيا، ورسالة، من التمثُّل الشفَّاف على خطِّ الزمن.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ينبغي أن يعرف العالم، وأن يعرف نفسه، وأن يعرِّف الآخرين بنفسه، فيشرع في تقويم قيمه الذاتية إلى جانب تقويمه لما تملكه البشرية من قيم"[٥٧].

الخلُق النادر المثال (من واقع الخدمة معرفيًّا)

عالجت في كتاب "أرباب المستوى" علاقة الأخلاق بإنتاج العلم والمعرفة، من خلال مؤسسة "أكاديميا" التابعة لمنظومة الخدمة، وبما أنَّ هذه المعالجة تقع في صلب إشكالية هذه الدراسة، وبخاصة من الناحية العملية الواقعية التمثلية؛ كان من المناسب إيرادها؛ وقد جاء فيها ما يلي:

يأتي في المقام الثاني، بعد التوحيد والإيمان، في أسباب إدارة الجماعات العلمية، ما يُعرف بالخُلق أو الأخلاق، بما في ذلك "الأخلاق المدنية"؛ لكن شريطة أن تكون ظلاً "للأخلاق الكلية"، وأن يكونا كلاهما تمثلاً "للغاية" وإنزالاً لها على أرض الواقع، بمبدأ "تمثُّل أسماء الله الحسنى وصفاته العليا"، وبمؤدى: "تخلَّقوا بأخلاق الله".

كلُّ من يدخل "الأكاديميا"، ضيفًا كان أم باحثًا، أم موظَّفًا، يجد نفسه مع حواريين نفَوا ذواتهم، ودفنوا أنانياتهم، فهم بمدلول "الخدمة"، يخدمون وهم مبتسمون، لا تغادرُ الكلمة الطيبة لحظةً شفاههم، فيستحيل أن تصادف أحدَهم غاضبًا أو ناقمًا أو عبوسًا؛ وهم إنما يأتون ما يأتون لا لمصلحةٍ، ولا بمقتضى الوظيف ومستلزمات فنِّ الإدارة، أو سلفًا لأحدٍ حتى

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن وجودنا الحقيقي لا يتم إلا عبر الحركية والفكر القادرين على تغيير الذات والآخرين. والواقع أن كل كيان ثمرة حركة ومجموعة من المبادئ والتصورات، كما أن بقاءه مرتبط باستمرار هذه الحركة وتلك التصورات.

يعيده بعد حين، أو تكلُّفًا، والله لا يحب المتكلِّفين؛ وإنما هذه الخلال سجيَّةٌ فيهم؛ هي طبعٌ قد جاوز حدَّ التطبُّع. ومِن ثمَّ، ولست في هذا السياق أصف وأشرح أخلاقَ هؤلاء، وإنما أحاول ربط بُعدها بفنِّ ممارسة "الجماعة العلمية"... مِن ثمَّ، يجد هذا المرتاد "للأكاديميا" صفاءً على "صفحة قلبِه"، فتتوفَّز سريرته للتفكير السليم، ويزول كلُّ انقباض نفسيٍّ منه، ليحلَّ محلَّه الانشراح والانبساط، فتأتي أفكاره، وقراءاته، وكتاباته... انعكاسًا لمرآة قلبه، وظلًّا لحقيقة روحه.

وأحسب أنَّ هذا الجانب الأخلاقيَّ الخطير، وهذه العلاقة القيميَّة العميقة، بين شفافية القلب ونتاج العقل، مِن معرفةٍ وعلمٍ، أحسب أنَّ القرآن الكريم قد عالجه، ودفع إلى التبحُّر فيه، في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾(البقرة:٢٨٢)، وقوله: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨). فهي إذن علاقة متكافئة، ثنائية الاتجاه بين العلم والتقوى، شريطة أن لا يُقصر العلم في جانبه التجريبي الماديِّ فقط، وأن لا تُحصر التقوى في الشعائر وكفى؛ بهذا يكون العلم سببًا للتقوى والخشيةِ من الله، ويكون الإيمان والتقوى بابًا للعلم؛ في حركة مباركة ولود.

ولقد نبه علماء التصوُّف[٥٨] إلى مثل هذه العلاقة، وأبدعوا في ذلك أيما إبداع، لكنَّ البعض منهم راح بعد ذلك يقصر العلم في ذات التقوى والإيمان، ويلغي كلَّ علم آخر، ماديًّا كان أم حضاريًّا، فضيَّع الفرصة على الأمَّة لاكتشاف سرٍّ لا تزال البشرية تفتقده إلى اليوم؛ غير أنَّ ما كان عليه علماء فطاحل أمثال "ابن سينا، والفارابي، والرازي، والجزري"، أظنه مِن هذا المقام السامق، لو أنَّ تاريخ العلوم، ونظرية المعرفة، والرؤية الكونية... لقيت منا البحث والتحليل الذاتي اللائق. ■

الهوامش

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة محمد يوسف عدس، مجلة النور، الكويت، بافاريا، ألمانيا؛ ١٩٩٤م؛ ص:١٧٥.

(٢) نموذج الرشد: هو نموذج تفسيري يقوم على ثلاثة خصائص. وانظر التعريف في "البراديم كولن"، نشر دار النيل، مصر، ٢٠١١م، ص:١٣ وما بعدها. وقد تمَّ تشغيل النموذج في عدة أعمال، منها "رواية بوبال"، نشر دار الفكر، سورية، ٢٠١٢م.

(٣) الغرب والعالم، تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، كافين رايبلي، ترجمة عبد الوهاب المسيري، وهدى حجازي، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٩٠، الكويت، ١٩٨٥م، مقدمة المسيري، ص:١٨.

(٤) Stéphane Toussaint, Humanismes-Antihumanismes-De Ficin à Heidegger, Tome ILes Belles Lettres-L'Âne d'Or, Paris, février 2008.

(٥) كافين، نفس المرجع، ص:١٨.

(٦) الإسلام بين الشرق والغرب، بيجوفيتش، ص:١٧٧.

(٧) في كتاب "الدين والعلم" لبرتراند راسل، نقرأ فصلاً بعنوان "العلم والأخلاق"؛ فيه يعترف المؤلف أنَّ العلم لا يملك الكفاية اللازمة ليقول شيئًا عن الأخلاق، ثم يقر أنَّ ما أورده إنما هو "آراء وتعبير عن اعتقاد خاص، وليس تعبيرًا عن كلمة العلم في هذا الموضوع"، ترجمة رمسيس عوض، دار الهلال، مصر، د.تا. ص:٢٢٤.

(٨) في كتاب "دستور الأخلاق في القرآن" للدكتور محمد عبد الله دراز، نقرأ توضيحًا دقيقًا لهذا المعنى، وذلك في قوله: "معنى أن يستنصح المرء عقله: أنه يقرأ في كتاب فطرته النقية، والإنسانية بصفة عامة، ما سبق أن فطرها الله عليه. وبعبارة أخرى: عندما يرجع أشد الناس إلحادًا إلى سلطة العقل فإنه لا يفعل في الواقع سوى الإنصات إلى ذلكم الصوت الإلهي، الذي يتكلم في داخل كلٍّ منا، دون أن يذكر اسمه، وهو ينطق به صراحة عندما يتحدث إلى المؤمن"، ترجمة عبد

الصبور شاهين، نشر مؤسسة الرسالة، مصر، ص:٣٦.

(٩) النافعية: مصطلح من صياغة نموذج الرشد؛ وهو غير النفعية، ذلك أنَّ النافعية تتجاوز النفع المادي الدنيوي القريب، إلى كلِّ نفع معنوي ومادي وفكري وروحي واعتباري ...إلخ، وهو مشتق من الدعاء الذي تعلمناه من رسول الله ﷺ في حديث أم سلمة: "اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملاً متقبلاً" (رواه أبو داود، وأحمد وغيرهما).

(١٠) ينظر علي شريعتي: العودة إلى الذات، دار الكتاب المصري، مصر، ٢٠١١م.

(١١) الوعاء الحضاري: من مفاهيم نموذج الرشد؛ وتعني الخلفية التي يستند إليها الشخص بكل أشكالها وتلوناتها الدينية، والخلقية، والثقافية، والجمالية ...إلخ.

(١٢) النسيج الحضاري: من المفاهيم التي طرها نموذج الرشد؛ وهو العمق التاريخي الذي يمتد إليه الوجود الزمني لأي شخص أو فكر أو مجتمع.

(١٣) شروط النهضة، ص:٧٨.

(١٤) ميلاد مجتمع، ص:٢٨-٢٩.

(١٥) نفس المرجع، ص:٤٠.

(١٦) نفس المرجع، ص:٤١.

(١٧) وجهة العالم الإسلامي، ص:٣٠.

(١٨) نفس المرجع؛ ص٣٢.

(١٩) نفس المرجع، ص:٣٨.

(٢٠) التلال الزمردية، ص:١١٨.

(٢١) نفس المرجع، انظر الفهرس، ص:٢٤١-٢٤٣.

(٢٢) النور الخالد، ص:٦٧ وما بعدها.

(٢٣) التلال الزمردية، ص:١٠٤-١٠٦.

(٢٤) النور الخالد، ص:٧٥.

(٢٥) نفس المرجع، ص:١٢٤ وما بعدها.

(٢٦) نفس المرجع، ص:١٧٠.

(٢٧) نفس المرجع، ص:١٨٠ وما بعدها.

(٢٨) نفس المرجع، ص:٢٨٥.

(٢٩) ونحن نقيم صرح الروح، ص:١٤٢.

(٣٠) ونحن نبني حضارتنا، ص:١٢.

(٣١) شروط النهضة، ص:٨٨.

(٣٢) ميلاد مجتمع، ص:٧٢.

(٣٣) مجلة حراء، عدد ٢٥ (يوليو أغسطس) ٢٠١١، المقال الرئيس، ص:٢.

(٣٤) ينظر محمد باباعمي: أرباب المستوى؛ الأكاديميا باعتبارها جماعة علمية، نشر دار النيل، مصر، ٢٠١٢م، فصل "نظرية كل شيء بين عجز الفيزياء وتألق الوحي، فتح الله كولن نموذجًا"، ص:٧٥-١٠٥.

(٣٥) ونحن نبني حضارتنا، ص:٦٢.

(٣٦) محاورات حضارية، جيل كارول، دار النيل، مصر، ٢٠١١م، ص:٣٩.

(٣٧) شروط النهضة، ص:٨٨.

(٣٨) ميلاد مجتمع، ص:١٠٠.

(٣٩) مؤتمر دولي: مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية؛ جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، نشر دار النيل، ٢٠١١، ص:٥٧٨.

(٤٠) ونحن نقيم صرح الروح، مقال "الحركية والفكر"، ص:٥٧.

(٤١) طرق الإرشاد، ص:٦.

(٤٢) وجهة العالم الإسلامي، ج١/ص:٥٣.

(٤٣) ونحن نبني حضارتنا، ص:٩٤-٩٥.

(٤٤) وجهة العالم الإسلامي، ج١/ص:٥٤.

(٤٥) ونحن نبني حضارتنا، ص:١٠٣.

(٤٦) ونحن نقيم صرح الروح، ص:٣٩-٤٠.

(٤٧) من كتاب أمير المؤمنين عمر إلى أبي موسى الأشعري ﷺ؛ وفيه يقول: "إنَّ الحقَّ قديم، لا يُبطل الحقَّ شيء، ومراجعة الحقِّ خير من التمادي في الباطل"، حديث موقوف، سنن البيهقي، كتاب الضحايا، باب اجتهاد الحاكم فيما يسوغ فيه الاجتهاد، رقم ١٨٧٥٤.

(٤٨) ونحن نقيم صرح الروح، ص:١٤.

(٤٩) القدر في ضوء الكتاب والسنَّة، ص:٦٤-٦٥.

(٥٠) ونحن نقيم صرح الروح، ص:١٣.

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) ونحن نقيم صرح الروح، مقال "مهندسو الروح الربانيون"، ص:٨٥.

(٥٤) صيقل الإسلام، بديع الزمان سعيد النورسي، ص:٥٣٠.

(٥٥) شروط النهضة، ص:٣١-٣٢.

(٥٦) وجهة العالم الإسلامي، ج١/ص:٥٤.

(٥٧) وجهة العالم الإسلامي، ج١/ص:١٦٥.

(٥٨) مثال ذلك قول الإمام القشيري في لطائف الإشارات: "أكرم الله الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره؛ لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفيِّ رموزه، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحقُّ ﷻ يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويذرون".

مقارنة بين
حكمة فتح الله كولن وحقيقة باركر بالمر
التعليم المستنير مفتاحًا للتحول العالمي

باربرا س. بويد

أ.د. باربرا س. بويد، مديرة التوعية للدراسات الدينية، وعضو هيئة التدريس بجامعة أوكلاهوما. متخصصة في تدريس المسيحية والدراسات الدينية. تقوم بتقديم برنامج الدراسات الدينية في العديد من المحاضرات والندوات، وفي منتديات الحوار بين الأديان، ومؤتمرات ذات بعد دولي. تلقت مؤخرًا جائزة المربي والتي يمنحها معهد حوار الأديان بمشاركة حركة إسلامية ملتزمة من أجل السلام العالمي عبر التعليم الأخلاقي.

ثمة اثنان من التربويين على وجه التحديد يمدَّاننا بنموذجين معاصرَين مثيرَين بوسعهما حفز التغيير الذي يصب في صالح مستقبلنا بالغ الغموض، وهما الأستاذ فتح الله كولن؛ المفكر والمعلم الروحي التركي الذي يُعَدُّ رائد أحد الحركات التعليمية الأكثر إبداعية في عالم اليوم، وباركر بالمر التربوي والمُحفِّز الروحي الأمريكي الذي يُقدِّم واحدًا من أكثر النماذج التعليمية المُلهِمة في الولايات المتحدة. وستعقد هذه الدراسة مقارنةً بين نموذجي الأستاذ كولن وبالمر، موضحةً ما بينهما من أوجه التلاقي والاختلاف، وستُختتم بمناقشة النبع المشترك الذي ينهل منه كلاهما، مع اقتراح معيارٍ لتجارب مستقبلية في حقل التعليم، فضلاً عن تقديم رؤيةٍ تتسم بالشفافية حول التحول باتجاه تكوين العائلة الإنسانية. كما أنها ستتناول كلا النموذجين بالنقد؛ لأنه ما من جهدٍ يسعى إلى بلوغ نموذجٍ مثاليٍّ للتنوير البشري، إلا كان حتمًا أن يعتوره القصور.

توصلت معظمُ المنظماتِ والمؤسساتِ التي تعمل من أجل تحقيق السلام والاستقرار الاقتصادي، إلى نتيجة عامة مفادها أن التعليم هو الحل للصراعات والفقر؛ إذ لم يعد يُنظر إلى البراعة السياسية أو الصلاح الديني على أنها وسائل تنجح كُليةً في حل المعضلات البشرية الحقيقية التي تحدق بكوكبنا في الوقت الراهن، ولا حتى باعتبارها مُجديةً بالضرورة لحل مثل هذه المعضلات.

وبما أن العمل الاجتماعي لا يخلو من الفائدة، وأنه لا مفر لمساعي وقف إطلاق النار من المفاوضات السياسية، فإن الأمل والعون بعيدي المدى يتمثَّلان في أهمية تهيئة شبابنا بالتعليم، وذلك وصولاً إلى مستقبلٍ لا تكمن حلولُه في ممارسة العنف، حتى إنه يُمكننا القول بحقٍّ إن أفضل البيئات ملاءمة للتغيير تقبع في المجال التعليمي.

وثمة اثنان من التربويين على وجه التحديد يمدَّاننا بنموذجين معاصرَين مثيرَين بوسعهما حفز التغيير الذي يصب في صالح مستقبلنا بالغ الغموض، وهما الأستاذ فتح الله كولن؛ المفكر والمعلم الروحي التركي الذي يُعَدُّ رائد أحد الحركات التعليمية الأكثر إبداعية في عالم اليوم، وباركر بالمر[1]؛ التربوي والمُحفِّز الروحي الأمريكي الذي يُقدِّم واحدًا من أكثر النماذج التعليمية المُلهِمة في الولايات المتحدة. هذان العَلَمان الفكريان والروحيان يُفعمان النقاشَ الدائرَ حول ما يجب فعلُه لخلق عالمٍ تصبح فيه الحياةُ البشرية أكثرَ من مجرد تمرينٍ في البقاء بتحديات قوية وآمال مذهلة.

وستعقد هذه الدراسة مقارنةً بين نموذجي الأستاذ كولن وبالمر، موضحةً ما بينهما من أوجه التلاقي والاختلاف، وستُختتم بمناقشة النبع المشترك الذي

تتوقف استمرارية الأمم على ما تتلقاه شعوبها من التعليم ومن التوجيه صوب الكمال الروحي. وإذا لم يكن بوسعها تنشئة أجيال متطورة يُمكنها أن تعهد إليها بأمر المستقبل، فسيكون مستقبلها مظلمًا آنذاك. (فتح الله كولن)

nesemat.com نسمات nesemat.com

ينهلان منه كلاهما، مع اقتراح معيارٍ لتجارب مستقبلية في حقل التعليم، فضلاً عن تقديم رؤيةٍ تتسم بالشفافية حول التحول باتجاه تكوين العائلة الإنسانية. كما أنها ستتناول كلا النموذجين بالنقد؛ لأنه ما من جهدٍ يسعى إلى بلوغ نموذجٍ مثالي للتنوير البشري، إلا كان حتمًا أن يعتوره القصور.

نموذج كولن التعليمي

ينتشر نموذج الأستاذ فتح الله كولن التعليمي انتشارًا قد نعتبره مهولاً إلى حد كبير، في جميع أنحاء العالم، وبخاصةٍ مع ارتفاع معدل المدارس المفتتحة في تركيا[2] وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وألبانيا وجزر الفيلبين وآسيا الوسطى وغيرها من المناطق. وفي حين أن الدين الإسلامي لا يُدرَّس مباشرةً في هذه المدارس، إلا أنها تقوم على أساس ما يعتبره الأستاذ كولن "مبادئَ عالميةً" يؤمن أنها داخلةٌ في صميم الإسلام. وقد يُمكن للأطفال من كافة الأجناس والعقائد والديانات، أن يفيدوا من التعلم فيها رغم أن "المعلمين هم من المسلمين الأتقياء شديدي التمسك بهويتهم القومية الإسلامية التي تُشكِّل أساسَ تسامحهم" (أغاي، ص:٦٥). (على الرغم من وجود معلمين في هذه المدارس حاليًّا من غير المسلمين، فالميل الغالب على المعلمين ميل إسلامي).

وباعتباري واحدًا ممن حظوا بزيارة كثرةٍ من

مدارس الأستاذ كولن داخل تركيا، فقد اتضح لي أن مسألة وجود معايير أخلاقية رفيعة توضع لكلٍّ من طاقم المعلمين والبيئة الدراسية هي مسألةٌ بالغة الأهمية، فالتعليم المتميز هو الهدف المنشود، وهو -في مدارس الأستاذ كولن- تعليم علمي حديث.

هذا التعليم المتميز للغاية، الذي يؤكد على الأخلاق، تجري صياغته في إطار ما يسميه الأستاذ كولن باسم "القيم العالمية"، بحيث يخرج الطالب من هذه المنظومة وهو إنسان استثنائي نوعًا ما، إنسانٌ يلتزم بقيمٍ من قبيل العمل الجاد والأمانة والتواضع والتسامح والرأفة وخدمة المجتمع البشري.

إن نجاح مدارس الأستاذ كولن رهينٌ بذلك الرجل الذي تُوجِّه رؤيتُه المتعلقة بتحقيق الوِفاق البشري هذا المشروعَ الأكاديمي؛ إذ يعتقد الأستاذ فتح الله كولن، الذي يُمكن وصفه بسهولة بأنه "صوفي ذو وعي اجتماعي"، أن التعليم يُمثِّل -أولاً- نمطًا من أنماط "إصلاح الذات" الذي يؤدي -ثانيًا- إلى إصلاح أو تغيير السياقين الاجتماعي والثقافي للفرد. ولعل ما يجعل من نموذجه نموذجًا فريدًا، ويمنحه القدرةَ على إحداث التغييرات الاجتماعية والعالمية بالفعل، هو التزامه بـ"البناء الداخلي"؛ ففي مقال حول مدارس الأستاذ كولن، ذهب توماس ميشيل -في قراءته لكولن- إلى اعتقاد هذا الأخير بأن "المعلم هو شخص لديه القدرة على المساعدة في انبثاق شخصيات الطلبة، شخصٌ يرعى الفكر والتأمل، شخصٌ يؤسس الشخصية ويُمكِّن الطلاب من [اكتساب] صفات الانضباط الذاتي والتسامح والشعور بالواجب" (ميشيل، ص:٧٥). وهكذا، فحالَ ترجمة ذلك في إطار آراء الأستاذ كولن حول التعليم، يمكن القول إن نموذجه هو نموذجُ بناءٍ داخلي (أو روحاني) يهدف إلى الظهور خارجيًّا (أو أخلاقيًّا) في البيئة المعاصرة. وإنها لَمهمةُ المعلم أن يتعهد الطالب بطريقةٍ تشجِّعه على الارتقاء من هذا النمط التعليمي الداخلي، إلى نمطٍ خارجي يتمثل في خدمة العالم.

مثل هذا التفسير لا يتماشى تماشيًا عميقًا مع القيم الصوفية فحسب بوصفها شكلاً من الأشكال الروحية للإسلام، بل يُمثِّل كذلك الجهود التي بذلها الأستاذ كولن نفسه على مدار حياته لمجابهة الرؤية الإسلامية التقليدية (وربما الصورة المنقوصة) المتعلقة بمتطلبات العيش في عالمٍ حداثي ثم في عالمٍ ما بعد حداثي كما هو الحال الآن.

وكما هو الحال عند أغلب المثقفين، فإن لكلٍّ منهم معجمًا يتغلغل في ثنايا أفكاره وكتاباته وتعابيره اللفظية. ولا يختلف الأستاذ كولن في ذلك عن أيٍّ ممن عداه؛ إذ يغلب على كتاباته وأحاديثه استخدامُ كلمات رئيسية تكشف عما يُوجِّه فكره، وبالتالي عما يُشكِّل ويؤسس للمدارس المستوحاة من تعاليمه. فاللغة الحارة للأستاذ كولن تستعمل كلماتٍ من قبيل الرحمة والتسامح والإيمان والسلام، وكذا كلمة "الحب" التي كثيرًا ما تنضح بها كافةُ تعاليمه.

ومن خلال هذه المصطلحات المهمة، يُمكن للمرء استخلاصُ فكرةٍ مفادها انشغاله بالكيفية التي تكشف بها الحياةُ الداخلية عن نفسها في كلٍّ من المعلم والطالب؛ إذ يجب على المرء -بصورة أساسية- أن يستشعر الرأفة والتسامح تجاه الآخرين، وهما شعوران ينبعان بالأساس من إيمان الفرد، وهو الإيمان الذي يتبدَّى في العالم من خلال قيمة "السلام" التي تنبثق -بطبيعة الحال- من الرأفة والتسامح. تلك هي الكلمات الأربع التي تُشكِّل حجر الزاوية في نظرة الأستاذ كولن التعليمية. (ستتعرض هذه الدراسة

لرؤيته عن الحب في وقت لاحق).

إن فكرة أن يصبح المعلم أكثر من مجرد مُحاضرٍ أو ناقلٍ للمعلومات، هي فكرة مركزية في رؤية الأستاذ كولن التعليمية؛ فالمعلم -بالأحرى- هو مُربٍّ يكشف من خلال حضوره الذاتي عن إمكانيات الطالب. ورغم ما للمادة الدراسية من أهمية بالغة، فإن أهمية "حضور" الشخص الذي يتوفر على أداء هذه المادة، تكون أكبر تأثيرًا في الناتج النهائي، فوفقًا لأحد أعمال الأستاذ كولن: "ينبغي للمعلمين أن يجدوا طريقًا إلى قلوب الطلاب، وأن يتمتعوا بالقدرة على ترك بصمات لا تُمحى على عقولهم، كما ينبغي لهم اختبار المعلومات التي يُعتزم تمريرها إلى الطلبة، وذلك بتهذيب عقولهم وصفحات قلوبهم هم أنفسهم، فالحصة الدراسية الجيدة هي تلك التي تمد التلاميذ بما هو أكثر من المعلومات والمهارات النافعة، إنها تلك التي ترتقي بهم للقاء المجهول" (كولن، ص:٢٠٩).

في تلك الفقرة، تتبدَّى لغة الأستاذ كولن الكلاسيكية التي تظل -رغم كلاسيكيتها- لغةً غير مألوفة في البيئة المعتادة للفصول الدراسية، على الأقل في دول العالم الأول. ففكرة أن يضطلع المعلم بدوره التربوي من خلال تعميق رحلته الشخصية داخل ذاته مستندًا إلى قلبه وعقله معًا، هي فكرةٌ تَضاد تقريبًا غايةَ التعليم المعاصر التي تتمثل في دفع الطالب باتجاه الترقي الوظيفي والاقتصادي، بغض النظر عما يعتور جوانيتَه من اضطراباتٍ أو قناعات. كما أن الاعتقاد بأن التعليم هو مسألة تتوقف على القلب والتلقين المكثف للعلوم، هو اعتقادٌ غريبٌ على البيئة التعليمية التي يألفها غالبيتنا، على الأقل في الولايات المتحدة. غير أن ذلك هو "السر" فيما يبدو، لو صح أن هناك سرًّا وراء

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن الروحانية الإسلامية تعضد من نموذج الأستاذ كولن التعليمي الذي يتبدى عبر تدريس العلوم ومن خلال التربية الأخلاقية الملموسة، وذلك بهدف خدمة الحياة المدنية وإحلال السلام في الوجود.

مدارس الأستاذ كولن، السر الذي ربما يتلخص بالتحديد في عبارة واحدة تُعزى إلى الرجل: فـ"بصفة أساسية تُعتبر المدرسة مكانًا من أماكن العبادة، زعماؤها المقدسون هم المعلمون" (كولن، ص:٢٠٨).

إن الانتقادات الموجهة إلى حركة كولن، تتراوح بين اتهامه بالعمل على جعل الدين الإسلامي بوابة لا بد للتعليم أن يعبر من خلالها ليتسم بالأصالة، واتهامه ذلك الاتهام الخاص عن رغبته في الإطاحة بالحكومة التركية العلمانية وإقامة دولة دينية. ورغم رفض تلاميذه الحاد لهذه الاتهامات الموجهة ضد مربِّيهم الروحي، فلا تزال نسبة الشكوك مرتفعة لا سيما في أوساط المثقفين من السكان العلمانيين"[٣]. ولن تتأتى البيِّنة على الدوافع وما تُضمره النوايا، إلا بمرور الزمن وبِحَثِّ شباب الدارسين ورجال الأعمال والنساء المهنيات، على الانخراط في بيئة الحوار الضروري للحكم على مدى أصالة الحركة. وبما أن حركة كولن ليست حركة مركزية بطبيعتها، فإن المنتوج النهائي لمدارسها -وطلابها أنفسهم- سيلعبون بالضرورة دورَ العامل المحفز في عملية التغيير العالمي واسعة النطاق التي تسعى إليها، ولذا فما زال سابقًا لأوانه أن نبتَّ بالحكم.

بيد أن ما يبدو وكأنه أمر واقع رغم انعدام براهين النجاح في هذه المرحلة، هو ما يُورِده أولئك الذين

احتكوا بهذه المدارس المتميزة من شهادات متشابهة نوعًا ما، مفادها أن تلك المدارس تُخرِّخ طلابًا استثنائيين.

وأنا أتذكر بوضوح تام زيارتي لإحدى مدارس الحركة بمدينة إسطنبول، حين تحلَّق الأطفال -من سن المرحلة الإعدادية- حولي ليمطروني بالأسئلة، وقد أدهشني أن تأتي جميعُها بالإنجليزية. كانوا طلابًا مُفعمين بالحياة وصاخبين ومشرقين وودودين وحريصين على اصطحابي إلى فصولهم الدراسية، واستعراض مهاراتهم في لغتي الخاصة، وإشراكي في رؤية الجوائز التي حازتها مدرستهم. وقد تساوت بينهم أعداد الذكور والإناث، سواء في طاقم الموظفين أو الطلبة. وكانت الفصول مُزدانة بأحدث المعدات، والمدرسة نظيفة بشكل فائق، والجوُّ العام ممتلئًا بالحماسة والصرامة الأكاديمية والامتياز الأخلاقي.

وعندما التقيت مدير إحدى المدارس في وقت لاحق من الأسبوع في حفل عشاء مع المساهمين[٤]، سألته مباشرة "لِمَ الطلاب والمعلمون في هذه المدارس مذهلون على هذا النحو؟ هل تُدرِّسون الأخلاق في الفصول الدراسية؟" ليأتي رده - ابتداء- في صورة ابتسامة عميقة متروية، ثم أجاب بهدوء: "إننا لا نُعلِّم الأخلاق، بيد أن معلمينا هم صورةٌ لما يقومون بتدريسه متواضعون ومتسامحون وعطوفون وأذكياء". ومن رحم هذه الإجابة البسيطة كان مولد هذه الدراسة؛ إذ تنتقي مدارس الأستاذ كولن معلمين يكونون هم أنفسهم أشخاصًا ورعين مخلصين روحانيين أذكياء متواضعين، يُمرِّرون حكمتهم الذاتية إلى طلابهم من خلال الأفعال لا الأقوال. وحيث إن الطلبة يُشمَلون بالرعاية في بيئة الرحمة والتسامح هذه، فإنهم يصبحون مواطنين عالميين واعين قادرين على التأثير في محيطهم ومستقبلهم. ولعل هذه العبارة من الأستاذ كولن تصف ذلك أبلغ وصف، إذ يقول: "تتوقف استمرارية الأمم على ما تتلقاه شعوبها من التعليم ومن التوجيه صوب الكمال الروحي. وإذا لم يكن بوسعها تنشئة أجيال متطورة يُمكنها أن تعهد إليها بأمر المستقبل، فسيكون مستقبلها مظلمًا آنذاك". (كولن، ص:٥٦).

إن ثمة جانبًا من جوانب مدارس الأستاذ كولن سيُعَدُّ موضع انتقاد في الولايات المتحدة في الوقت الذي قد يُعتبر فيه داخل تركيا مكمنَ خطورة، ألا وهو الطبيعة الجماعية للمدارس والحركة، ففي حين أن حركة كولن ذاتها ليست حركة مركزية بشكل صارم كونها تجد أساسها في الدين الإسلامي والتقاليد التركية العثمانية، إلا أنها حركة جماعية بطبيعتها، حتى إن البعض قد يزعم تبنيها للنزعة الجماعاتية. وبعبارة أخرى، يُحمَل الطلاب على التفكير سويًّا أو بصورة جماعية؛ لأنهم يُدفعون -من خلال المبادئ/الإسلامية- صوب تقديم خدماتهم التعاونية للبشرية، حيث يرمي تصوف الأستاذ كولن بطبيعته إلى خدمة الإنسانية بكل ما أوتي المرء من موارد حياتية.

لقد جعلت الحركةُ من الفكرة القائلة بأنك طالما تلقيت الدعم وأنت طالب، فعليك الخروج إلى العالم لدعم الآخرين، جزءًا لا يتجزأ من تركيبتها، وبذا فإنها تعمل على إيجاد شكل من أشكال "الجماعاتية" من خلال التزامها الجوهري بالإسلام، ومن خلال توجهها العالمي.

يقول الأستاذ كولن: "الآن إذ نعيش في قرية عالمية، أصبح التعليم هو أفضل السبل لخدمة البشرية، وللدخول في حوار مع الحضارات الأخرى" (كولن، ص:١٩٨)، أي إن الأستاذ كولن نفسه يعي أن حصيلة التعليم هي خدمة الآخرين لا خدمة المصالح الشخصية فحسب،

وهو ما يترتب عليه أن تكون الفرضية التي يُنتقى المعلِّمون وعلى أساسها يتعلم الطلاب، هي أولوية التوجه الروحي؛ إذ ليتسنَّى للمرء خدمةُ الآخرين لا بد أن تتكوَّن لديه نزعة روحية تربطه بالإنسانية.

إن الروحانية الإسلامية تعضد من نموذج الأستاذ كولن التعليمي، الذي يتبدى عبر تدريس العلوم ومن خلال التربية الأخلاقية الملموسة، وذلك بهدف خدمة الحياة المدنية وإحلال السلام في الوجود؛ إذ من أجل خلق عالم أفضل للجميع، وليس من أجل نفع الطالب وحده، تُقدِّم هذه المدارس خدماتها التعليمية. وهذه الغاية واضحة ومقصود إليها في آن.

نموذج "بالمر" التعليمي

ليس بالأمر اليسير أن نعقد مقارنةً بين نموذج الأستاذ كولن والنموذج التعليمي الذي يقترحه باركر بالمر. وعلى الرغم من وجود اختلافات واضحة تمامًا بين النموذجين، إلا أنه قد يتضح أن ما بينهما من قواسم مشتركة يفوق ما نتوقعه لأول وهلة.

لقد بزغ النموذج التعليمي لـ"بالمر" من الخبرة التي اكتسبها إبان سنوات عمله هو نفسه معلمًا للصف؛ إذ شحذت إخفاقاته ونجاحاته مع الطلاب إدراكَه لطبيعة العلاقة الفريدة الخاصة التي تربط بين المعلم والطالب من جهة، وبين المعرفة المكتسبة والبيئة الدراسية من جهة أخرى. وقد أثَّرت الثقافة الأمريكية أو الغربية تأثيرًا عميقًا في تشكيل نظريته التعليمية، مثلما أثَّرت الثقافة الشرقية والدين الإسلامي في تشكيل نموذج الأستاذ كولن التعليمي. كما أن فكرته عن التعليم متأثرة إلى حدٍّ كبير بأنماط تنمية الفرد وبروح البحث عن الحقيقة التي تُمثِّل نقطة ضعف

يتمثل الفارق بين بالمر وكولن في فضاء التعليم، في حرص مدارس كولن على عدم إبداء الشعائر الدينية داخل الفصول الدراسية، فضلاً عن توظيفها، سواء بشكل صريح أو بشكل ضمني.

الشخصية الأمريكية. وهكذا لا يمكننا فصل سياق كل نموذج من هذين النموذجين التعليميين عن الثقافة والتركيبة الاجتماعية التي نشأ في إطارهما.

وكما تأثرت حركة كولن التعليمية بالتصوف، فقد تشكَّلت نظرية "بالمر" التعليمية في إطار الديانة المسيحية؛ فرغم أنه يفصل فصلاً واضحًا بين المسيحية كدينٍ محددٍ وبين رؤيته التعليمية، إلا أنه لا يُغفِل في أعماله أهميةَ الروحانية المسيحية. ويقترب كتابه "أن نعرف كما نُعرف" من أن يكون "اعترافًا" بالدور الذي تلعبه المسيحية في مجال التعليم، بدءًا بالاستعانة بالنصوص المقدسة، ومرورًا بالصلاة والصمت، حتى الوصول إلى اعتبار التعليم شكلاً من أشكال الترقي الروحي. وعند هذا الحد، فإنه والأستاذَ كولن لا يختلفان كثيرًا على الأرجح في اقتناعهما بأهمية التأثير الروحاني لإيمان الفرد على الطريقة التي يؤمنان أنه لا بد للطلاب أن يتعلموا وفقًا لها، وللمعلمين أن يتلقوا تدريبهم على أساسها، وللفصول الدراسية أن تُدار في إطارها.

أما الفارق بين هذين الرائدين الروحيين فيتمثل فيما يلي:

ينبثق نموذج الأستاذ كولن مما يكمن داخل المعلم، بحيث تتم ترجمته ونقله إلى ذات الطالب الروحية، أي إن المعلم نموذج للذات إذا جاز التعبير. وهكذا فإنه (المعلم) يُشكِّل النقطة المحورية في نموذج الأستاذ كولن، الذي يذهب إلى القول بخروج أشخاصٍ أفضل

من رحم هذه الطريقة، وإلى القول بأن هذا الأسلوب يساعد على خلق عالم أكثر إنسانية.

وعلى نحوٍ مختلف، يُركِّز نموذج بالمر على ما يكمن في البيئة التعليمية ذاتها، أي البيئة الخارجية، مما يدفع الطالب إلى المبادرة بخدمة الإنسانية. ويضيف بالمر بأن للنصوص المقدسة الماضوية وبخاصةٍ النصوص المقدسة المسيحية، أهمية حاسمة في استيعاب ما يُمكن للتقاليد أن تُسهم به في بيئة الدراسة. كما يتضمن نموذجه التأكيد على أهمية معاملة النصوص المدرسية وكأنها "نصوص مقدسة"؛ كونها تطبع في ذهن الطالب تصورات عن الذات والعالم.

وبالمثل، يتضمن نموذج بالمر التعليمي التأكيد على تأثير الصلاة وأهميتها كوسيلةٍ لمساعدة الطلاب على "رؤية ما وراء مظاهر الأشياء، وعلى اختراق السطح وملامسة ما يقبع تحته" (بالمر، ص:١٩). ولذا فإنه لا ينظر إلى الصلاة باعتبارها طقسًا روحيًّا أو دينيًّا فحسب، بل أيضًا كوسيلةٍ عمليةٍ متاحةٍ داخل التعليم العلماني نفسه. وهو لا يُنادي بالطقوس الرسمية للصلاة كما تتجلَّى في المسيحية أو في أي تقليدٍ ديني آخر؛ إذ سيبدو ذلك ضرب من العبث في بيئةٍ تفصل الكنيسة عن الدولة كالبيئة الأمريكية، لكنه يعتقد أن الفصل الدراسي هو مكانٌ يُمكن لمثل هذا السياق الروحاني المُعَدِّ جيدًا من قِبل المعلم أن يُساعد فيه لا على التعلم فحسب، وإنما كذلك على الارتقاء. وبعبارة بالمر: "بتجاوزه لمظاهر الأشياء، يعقد التعليمُ الأملَ على الحقيقة والعقل، وعلى قدرة العلم على تشريح العالم إلى الأجزاء الداخلة في تكوينه. إن الصلاة والتحليل لا ينتهيان إلى نفس النقطة؛ فبينما يقصد التحليل إلى تفتيت العالم إلى عناصره، تهدف الصلاة إلى رؤية ما وراء هذه العناصر من علاقات بينية مُضمرة. غير أن كلاً منهما يسعى إلى إضفاء الشفافية على العالم" (بالمر، ص:١٩).

وبعبارة أخرى، يؤمن بالمر باشتمال التعليم السليم على كافة الوسائل الروحية التي يُتيحها للمعلم إيمانُه الخاص، وهي وسائل مسيحية في حالته، جنبًا إلى جنب ما يُسهم به العلم أو مناهج التحليل. كما يؤمن بضرورة إشراك كلٍّ من القلب والعقل في النظام التعليمي؛ إذ تعمل الممارسة الروحية على خلق البيئة الملائمة للتعلم، فيما يُشكِّل التحليل غاية المغامرة التعليمية.

ويتمثل الفارق بين بالمر وكولن في هذا الصدد، في حرص مدارس الأستاذ كولن على عدم إبداء الشعائر الدينية داخل الفصول الدراسية، فضلاً عن توظيفها، سواء بشكل صريح أو بشكل ضمني. أما بالمر، من الناحية الأخرى، فلا يُواري في تعويله على الأساليب الروحية داخل فصول الدراسة من أجل أن يصبح معلمًا أفضل؛ فهو يدرك، شأنه في ذلك شأن كريس أندرسون مؤلف كتاب "التعليم بوصفه إيمانًا"، أن نشأة النظام الجامعي الغربي، كانت نشأة دينية أو مسيحيةً على وجه التحديد.

وهكذا تبدأ طريقته في التفاعل مع الطالب بتهيئة المؤثرات الخارجية التي تجابه هذا الطالب مجابهةً مباشرة، داعيًا إلى إحداث تغيير في إدراك الطالب لذاته. كما تتطلب منهجيته من المعلم أن يُعيد تشكيل إدراكه الذاتي لما يعنيه أن تكون معلمًا، أي دليلاً ومرشدًا وصديقًا. وبذا يُمثِّل هذا النموذج تحديًا واضحًا لنمط التعليم الموضوعي الذي يجعل من المعلم وجهًا سلطويًّا ومُدرِّبًا حياتيًّا.

شأنه في ذلك شأن الأستاذ كولن، فإن لباركر بالمر معجمًا خاصًّا يبدو جليًّا في كتاباته؛ إذ تتخلل أعمالَه

كلماتٌ من قبيل الحقيقة والطاعة والانفتاح والحفاوة. كما أنه يُشبِه الأستاذ كولن في كَوْن كلمة "الحب" كلمةً بالغة الجوهرية في مؤلفاته، لدرجة استحالة وضع فهرس يُشير إلى مواضعها.

وبالنسبة له، تُعتبر كلمة "الحقيقة" إحدى الكلمات ذات الثقل في نظريته، وحيث إن خلفيته لمفهوم البحث عن "الحقيقة" خلفية مسيحية، فلا ينبغي لنا أن نندهش لاختياره هذه الكلمات الأساسية.

لقد عانت المسيحية طويلاً جرَّاء إصرارها المتواصل على بلوغ الحقيقة النهائية المطلقة، غير أن البحث عن الحقيقة لا يكمن -عند بالمر- فيما يعرفه المعلم فطريًّا، ولا فيما يُمكن للطالب تعلمُه، ولا حتى في الأسرار التي قد تشتمل عليها "النصوص المقدسة" المتاحة للدراسة، بل تكمن الموضوعات التي تستحق البحث بالأحرى -وفقًا لبالمر- في صميم "مجتمع الحقيقة"، وهي التسمية التي يُطلقها على فصول الدراسة.

بيد أن هذه الموضوعات ليست مباحث ملموسةً يُمكن تشريحُها وحفظُها، فبدلاً من ذلك، يلتف مجتمع الحقيقة هذا -مثلما قد تلتف أيُّ طائفة روحية- حول ذاك الذي يحافظ على تماسك المجموعة معًا، أي "الآخر" الذي يوجد في فصول الدراسة، "الآخر" الذي يجعل من الطالب والمعلم كليهما مجرد طالِبَي علم؛ إنه "المجهول".

ويعتمد إدراك الطلاب لأهمية هذا "الآخر" على فعالية المعلم؛ إذ "لا بد للطلاب من معرفة سبب اهتمام المعلم بالموضوع الدراسي [المحدد]، وكيفية تأثير هذا الموضوع في مجرى حياته". (بالمر، ص:١٠٤)، غير أن المعلم في هذا النموذج لا يُمثِّل محورَ الممارسة التعليمية، بل أحد المشاركين في اكتشاف الحقيقة، شأنه في ذلك شأن الطلاب.

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن لكلٍّ من هذين المفكرَين والمُربيَين، أهميته الكبيرة في الحوار الدائر حول التعليم من أجل المستقبل؛ لأنهما يُقدِّمان رؤى تعليمية من شأنها أن تتمخض عن إحداث تحوُّلٍ في الروح البشرية على الصعيد العالمي.

يرى بالمر أنه حينما يتحول الفصل الدراسي إلى مكانٍ لا يتم فيه التركيز لا على الطالب ولا على المعلم، بل على ما يربطهما معًا، أي البحث المشترك عن الحقيقة، حينئذ تتسم العملية التعليمية بالأصالة. ووفقًا له، يُعَدُّ ذلك أسلوبًا روحيًّا من شأنه إصلاح حالة التعليم والإنسانية إصلاحًا حقيقيًّا.

إن أول مكان يستشعر الطالبُ فيه بقيمة التعليم المشترَك والاحترام المتبادل هو الفصل الدراسي، وهي القيمة التي يعتقد بالمر أنها ما تلبث أن تُترجَم في صورة خدمة الآخرين؛ إذ تقع "الحقيقة بيننا، في ثنايا علاقاتنا. ويُمكن العثور عليها في تضاعيف الحوار القائم بين مَن يعرف ومَن يُعرف، أولئك الذين يُنظر إليهم كذواتٍ مسؤولةٍ رغم استقلاليتها". (بالمر، ص:٥٥).

وفي حين تتسم هذه المنهجية بالنجاعة في سياقها الخاص مثلما هو الحال مع نموذج الأستاذ كولن في تركيا، إلا أن نموذج بالمر نموذجٌ مغايرٌ جدًّا؛ إذ يكمن "سر" التعليم -عنده- في الوسائل الروحية التي تهيئ البيئة التعليمية للفصول الدراسية وترعى الذات الفردية، بحيث تُشكِّل العلاقات داخل هذه الفصول الدراسية، قاعدة لتأسيس مناخ من الحفاوة التي تُسفر بدورها عن إطار إنساني تدور العملية التعليمية في فلكه. وبذا يخوض الطلاب والمعلمون مغامرة تنمية ذواتهم معًا وليس بطريقة هرمية؛ لتتأتى النتيجة على

هيئة تغير يُصيب جوانية الفرد الذي يقع في الصميم من الثقافة الغربية.

وهكذا يؤدي النموذج التعليمي لـ"بالمر" إلى النتيجة نفسها التي يؤدي إليها نموذج الأستاذ كولن، وهي الوعي العالمي بضرورة خدمة الإنسانية والتفكير في الآخرين، يقول بالمر: "إن التعليم يعني ما هو أكثر من مجرد تدريس الحقائق وتَعلُّم الدروس من أجل دفع الحياة صوب غاياتنا المرجوة، إنه يعني استمالتنا إلى أن نستجيب لبعضنا البعض، وأن نستشعر المسؤولية تجاه بعضنا البعض، وتجاه العالم الذي نُعتبر جزءًا منه" (بالمر، ص:١٥). وكما هو الأمر في حالة الأستاذ كولن، فإن بالمر لا يؤمن بأن غاية التعليم هي العَوْد بالفائدة على الطلاب وحدهم، بل تتمثَّل رؤيته في أن من شأن التعليم المتحصَّل عليه داخل مجتمعٍ يقوم على [البحث عن] الحقيقة وعلى [ما بين عناصره من] علاقات تدفع متلقيه باتجاه تبنِّي فلسفةٍ حياتيةٍ تنشد التواصلَ والتغير.

وفي عبارته المثيرة التالية، يضع بالمر أمامنا بعض أفكاره الأكثر عمقًا حول فهمه الخاص لطبيعة التعليم: "في هذه اللحظة الحاسمة، لدينا الفرصة لمراجعة التعليم بوصفه مشروعًا جماعيًّا. ففي مثل هذا النمط التعليمي، ينصهر العقل والروح في وحدة واحدة، ويدخل المعلم والطالب والموضوع الدراسي في علاقة حيوية كلٌّ مع الآخر، وينتفع العالَم الذي يحتاج إلى تضميد جراحه بشكل أمثل" (بالمر، ص:١٩).

أوجه التلاقي

من المهم أن نلاحظ أن أوثق ما بين الرجلين من قواسم مشتركة فيما يتعلق بما يُظهرانه من التزام تجاه التعليم، هو ذلك التصور الذي لا بد وأنه لا يبدو ملائمًا للساحة التعليمية التقليدية بكل تأكيد؛ فكلاهما يُروِّج لفكرة ضرورة الحب بالنسبة للوجود البشري، ومن ثَمَّ لأهميته الحاسمة بالنسبة للعملية التعليمية.

ومع أن نقاش فكرة الحب قد يبدو غريبًا في ضوء النماذج التعليمية المبتكَرة، إلا أنه -أي الحب- يُمثِّل القاعدة التي يؤسس عليها كلٌّ منهما نظريته التربوية، رغم عدم توظيف أيهما للكلمة باعتبارها شكلاً من أشكال الشعور الرومانسي أو العاطفي.

ويُوضح بالمر الصلة بين الحب والمعرفة حين يقول: "إن المعرفة التي تنبع من الحب تزجُّ بنا في شِباك الحياة. إنها تحيط العارف والمعروف بشكل من التعاطف، وتدعونا إلى الالتزام والمشاركة والمسؤولية" (بالمر، ص:٩)؛ أي إن بالمر يعتبر المعرفةَ فعلَ حب؛ فكونك تعرف وتُعرف يقودك إلى التعاطف الذي يبذر -بدوره- بذور الترابط المجتمعي والعالمي. وهكذا يبين بالمر -من خلال تقاليده الدينية المسيحية- أن أصولَ المعرفة ترجع إلى المحبة، ولذا يجب علينا أن ندرك أن نموذجه التعليمي لا يُؤتي أُكُله إلا في قلبٍ "تعرف المحبةُ والحقيقةُ اللتان تَشكَّل في أتونهما أول مرةٍ طريقهما إليه" (بالمر، ص:١٠٨). وبعبارة أخرى، فإن إدراكه الروحاني للخليقة ولأصول المعرفة والمحبة، يمهد الطريق للتجربة التربوية.

أما الأستاذ كولن فيتحدث بحرارة شديدة عن الحب في كتابه "نحو حضارة عالمية من المحبة والتسامح"، يقول: "الحب كالإكسير؛ فبه يحيا الإنسان، وبه يَسعد، وبه يُسعِد مَن حوله. وفي قاموس الإنسانية، نجده مرادفًا للحياة. إننا نحس ونستشعر بعضنا بعضًا بالحب. والله ﷻ لم يخلق علاقة أقوى من الحب، تلك السلسلة التي تربط البشر أحدهم بالآخر. لقد أضحينا

شديدي الارتباط بالحب لدرجة أن أصبحت حياتنا تعتمد عليه بشكل كامل وأصبحنا نكرس أرواحنا له؛ فحين نحيا نحيا بالحب، وحين نموت نموت بالحب، وفي كل نَفَسٍ من أنفاسنا نستشعره بكامل وجودنا، إنه دفؤنا في الصقيع، وواحتنا في الهجير" (كولن، ص:٤).

تتجلَّى رؤية الأستاذ كولن حول المحبة في كل درسٍ يُعلمه لتلاميذه وأتباعه. وبعد أن التقيتُه أنا نفسي، صرتُ على وعي بأنه أحد أولئك الأشخاص النادرين الذين يُمثِّل حضورُهم نفسُه شكلاً من أشكال الحب المتجسد. وأثناء محادثة أجريتها معه على مائدة العشاء، سألته بشكل محدد عن الحب، مُوضحًا أنماطَه الأربعة التي روَّج لها معلمُنا المسيح، ليجيبني على نحو بالغ الإيجابية قائلاً: "إن الحب يقع في صميم الوجود البشري، وإن تعاليمه في معتقداتنا المختلفة -الإسلام في حالته، والمسيحية في حالتي- هي المرشد لأفهامنا وأفعالنا". وبعبارة أخرى، فإن الحب -عند الأستاذ كولن- ليس مقولة نفسية، بل مسارًا روحيًّا.

ولعله قد أمكنَ لهذا المؤلف الذي يكتب عن الإيثار الصوفي، أن يوضح منبع شعور الأستاذ كولن الملموس بالحب حين قال: "لِنَعْبُدَ اللهَ مخلصين بتَوَجُّهٍ غيرِ منقوص؛ علينا أن نُفرِغ قلوبَنا من حب كل ما عداه" (هومرين، ص:٨٠). ولذا، فللخروج بأيٍّ من التقييمات التي يُمكن طرحها حول نموذجه التعليمي، سواء بالسلب أو بالإيجاب، علينا أن نعي أنه لا يُمكننا استيعاب حركة كولن ما لم نتفهم عنصر الحب الذي يحافظ على تماسك أجزائها معًا، وكأنه عروة لا تقبل الانفصام.

إن العمق الروحي هو أساس النموذجين التعليميين اللذين يُقدِّمهما هذان المعلمان للعالم، والأمرُ كذلك لأن الحب لا ينبثق إلا من خلال العمق الروحي. ولن

nesemat.com نسمات nesemat.com

يؤمن بالمر بضرورة إشراك كلٍّ من القلب والعقل في النظام التعليمي؛ إذ تعمل الممارسة الروحية على خلق البيئة الملائمة للتعلم، فيما يُشكِّل التحليل غاية المغامرة التعليمية.

يُمكن اعتبار أي معلمٍ مُربيًا ما لم يتوافر لديه الوعي الروحي والعالمي؛ فتغيُّر البشرية -من وجهة نظر هذين العَلَمين التربويين- مرهون بهذه المسألة.

خاتمة

وختامًا، فمن دراستي وقراءتي لهذين المعلمَين، أعتقد أن بوسعي طرح التعقيبات التالية:

- **نموذج كولن التعليمي:**

١- رغم أن النموذج التعليمي للأستاذ كولن هو نموذجٌ استثنائي ولديه القدرة على إحداث تأثيرات عميقة في كلٍّ من الثقافتين الشرقية والغربية، إلا أنني لا أعتقد أنه سيترسخ في الغرب بطريقة معتبرة حتى تُحل إشكالية الفردية؛ إذ يُركِّز هذا النموذج على الجانب الجماعي للتعليم، مُستقيًا أخلاقياته وممارساته من الدين الإسلامي. كما أن حركة كولن هي حركة جماعية للغاية، سواء في تركيبها أو في مقاصدها. وهكذا ففي حين يُوجِّه نموذج الأستاذ كولن انتقادًا بالغ الجوهرية لمنهجية التعليم في الولايات المتحدة باعتباره -أي نموذج كولن- نموذجًا جماعيًّا فائقًا، إلا أنه يُنكر أو يُغفِل -في الوقت نفسه- أهمية الفرد على ما يبدو. وبما أن الروح الغربية تتمحور بصفة أساسية حول حرية الفرد، فلا بد من أخذ ذلك بعين الاعتبار إذا كان الهدف هو تبادل هذا النموذج التعليمي مع الغرب بأي طريقة يكون من شأنها أن تُحدِث تأثيرًا اجتماعيًّا.

٢- من وجهة نظر غربية، يُمكن للمرء كذلك أن

ينتقد نموذج الأستاذ كولن في أن ثمة نية خفية لزرع المُثُل والقيم الإسلامية في الفصول الدراسية لكافة المدارس، بغض النظر عن الدولة التي تقع على أرضها هذه الفصول[٥]. وتتمثَّل حجة الأستاذ كولن في هذا الصدد في أن القيم والأخلاق الإسلامية، هي قيم وأخلاق عالمية؛ بيد أنه لو كان للرجل أن يُجادل يهوديًّا أو مسيحيًّا بخصوص هذه النقطة، فربما اكتشف أنه رغم إمكانية اتفاق هذه الديانات الإبراهيمية حول فكرة القيم العالمية، إلا أنها قد تختلف فيما بينها في تحديد هذه القيم. وعلى سبيل المثال، يوشك تأكيد الأستاذ كولن على التسامح باعتباره قيمة إيجابية بين المسلمين الأتراك أن يتحول إلى مصطلح سلبي داخل الثقافة الغربية، لا سيما في إطار نقاشات المجتمع التعددي؛ فمن وجهة النظر التعددية يعني التسامح أن تُوْلي الآخرين الحد الأدنى من الاهتمام ولا تُبالي بهم تقريبًا.

٣- يتطلب نموذج الأستاذ كولن التعليمي وجود ماكينة ضخمة وسَمْحَة من المساهمين والداعمين وراء الكواليس للإبقاء على استمرارية هذا المشروع التعليمي. ومرة أخرى، فإن الوسائل التي تعمل بها الكيانات الاقتصادية في الغرب اليهودي المسيحي، لا تُناسب نموذج الأستاذ كولن لتمويل المدارس؛ إذ إن نموذجه -كما سبق أن أشرت- نموذج جماعي، بينما يعتمد الغرب على نمط فردي محدد لمنْح المال واستخدامه. ورغم أن الثقافة اليهودية المسيحية تتسم بالسخاء في جوهرها كالثقافة الإسلامية، إلا أن المدارس الخاصة تُموَّل إما من قِبل الشركات أو من قِبل المنظمات الدينية وليس من قِبل الأشخاص المتدينين إجمالاً. وأخيرًا، فحتى يتسنَّى لمدارس الأستاذ كولن أن تنتشر في الولايات المتحدة دون إثارة شكوكٍ لا داعي لها وسط مناخ الانهيار الحاد الذي أعقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فإن ذلك سيتطلب عناية فائقة بوسائل جمع التمويل وإنفاقه على إنشاء وصيانة هذه المدارس.

• نموذج بالمر التعليمي

١- رغم مناقضته للمنظومة التعليمية الأمريكية نفسها بسبب طبيعته التي تصطبغ بالروحانية أكثر من اصطباغها بالعلمانية، إلا أنه لا يُمكن لنموذج بالمر التعليمي أن يزدهر في تركيا على الإطلاق؛ إذ من شأن الالتجاء إلى الممارسات الدينية والروحية -ولو كانت مُقَنَّعَة- أن يُثير الاستنكار الحاد داخل منظومة المدارس العامة في تركيا. كما أن نموذجه لن يَصلح لمدارس الأستاذ كولن التركية على الأرجح، بسبب تركيزه على الفرد أكثر من تركيزه على المجتمع.

(لأنه ما من مدارس تتبع بالمر [على غرار مدارس كولن]؛ كَوْن أفكاره تُمثِّل فلسفة في التعليم وليس حركة؛ فإنه من الصعوبة بمكان أن ندرس بشكل دقيق ما كان يُمكن أن يحدث لو شاد بالمر مدارسَ تستند إلى نموذجه. وهكذا فليس بوسعنا عقد مقارنة معتبرة بين هذين النموذجين التعليميين يُمكنها أن تمدنا بالمعلومات حول مدى فاعلية إحدى مجموعتي المدارس في مقابل الأخرى).

٢- يُمكن لنموذج بالمر أن يتعرض للانتقاد حالَ مقارنته بنموذج الأستاذ كولن، بسبب عدم اهتمامه بالعولمة؛ فرغم تركيزه على المجتمع، إلا أنه لا يمتد ليشمل مدى عالميًّا كالذي يدأب منهج الأستاذ كولن على شموله. ولذا، ففي حين يلتزم بالمر التزامًا صريحًا بالطبيعة الجماعية للتعليم، إلا أنه لا يرى عن قُربٍ ما لنموذجه من أهمية في إحداث تأثيرات عالمية، أو ما يتضمنه من إمكانيات.

٣- وبالمثل، يُمكن لنموذج بالمر التعليمي أن

يُنتقَد بسبب تشديده البالغ على استخدام الوسائل الروحانية المسيحية؛ فهو يقع -بدرجة ما- في الخطأ عينِه الذي يقع فيه نموذج الأستاذ كولن، حين يفترض إمكانية تعميم الأساليب الروحانية المسيحية؛ إذ قد ينظر طالب بوذيٌّ إلى تعويل بالمر على الصلاة أو النصوص المقدسة -ولو بشكلٍ مُقَنَّع- على أنه نوع من التبشير. ولذا فقد يكون من الحكمة أن يعمل بالمر على تعميق إدراكه لما يُمكن استغلاله من الوسائل الروحانية لمختلف الديانات الموجودة في العالم بصورة فعالة داخل الفصول الدراسية، والتي يُنظر إليها في الوقت نفسه على أنها عالميةُ الطابع.

٤- وأخيرًا، فإن نموذج بالمر التعليمي، يُركِّز على استخدامات عدة للفظة "الحقيقة"؛ فهو يؤمن إيمانًا عميقًا بأن التعليم متعلق بالبحث عنها، ولذا فإنه يعتقد بأن بوسع التعليم -على الأقل- أن يُمهِّد طريقًا لبلوغها. غير أن هذه الحقيقة التي يُتوصَّل إليها، عادةً ما تكون حقيقة فردية رغم أن الشخص ما يلبث أن يبادر إلى تطبيقها على السياق الجماعي، ولهذا خطورتُه البادية. وهكذا يُمكن لـ"بالمر" أن يفيد من الطبيعة الأكثر اتسامًا بالجماعية في بلوغ الحقائق الشاملة من نموذج الأستاذ كولن، مثلما يُمكن لنموذج هذا الأخير أن يفيد من الإمكانيات الأكثر اتسامًا بالفردية في بلوغ الحقيقة التي يُتيحها نموذج بالمر.

وفي الأخير، فإن لكلٍّ من هذين المفكرَين والمُربيَين، أهميته الكبيرة في الحوار الدائر حول التعليم من أجل المستقبل؛ لأنهما يُقدِّمان رؤى تعليمية من شأنها أن تتمخض عن إحداث تحوُّلٍ في الروح البشرية على الصعيد العالمي، وأن تدعم هذا التحوُّل مهما كانت محدودية تلك الرؤى. ولعل هذه المهمة ليست باليسيرة، ولذا فإنهما جديران بالثناء؛ نظرًا لمحاولاتهما المتبصرة لإصلاح حال التعليم ومن ثَمَّ حال الأسرة الإنسانية. ■

الهوامش

(١) باركر جي. بالمر (Parker J. Palmer) (ولد في ٢٨ فبراير ١٩٣٩م في شيكاغو، إلينوي بالولايات المتحدة الأمريكية) كاتب وتربوي وناشط يركز على قضايا التعليم والمجتمع والقيادة والقيم الروحية والتغيير الاجتماعي من خلال المناهج التعليمية، وهو المؤسس والشريك الرئيسي لمركز التجديد والشجاعة الذي يشرف على تأهيل المعلمين في المراحل التعليمية قبل الجامعية في كافة أنحاء البلاد.

(٢) للأسف الشديد أغلق الحزب الحاكم مدارس الخدمة في تركيا بعد الانقلاب المزعوم في ١٥ يوليو/تموز ٢٠١٧م دون أيّ مبرر قانوني، وطرد نحو ٢٥ ألف من معلّمي هذه المدارس، ثم تشرَّد الطلاب إلى مدارس أخرى. (المحرر)

(٣) رغم اعتماد هذا الدليل على التقدير الشخصي [أكثر من اعتماده على الحقائق أو البحث]، فقد خضتُ نقاشًا موسعًا نوعًا ما حول حركة كولن مع الكاتب التركي الحائز على جائزة نوبل أورهان باموق الذي أفصح في الواقع عن رأيٍ سلبيٍّ حادٍّ تجاه الحركة. كما تحدثت بالمثل إلى بضعة أتراك يقيمون في الولايات المتحدة ويعارضون الأستاذ كولن وحركته.

(٤) المساهمون هم أولئك الأشخاص الذين يُعاونون في بناء المدارس ويدعمون الحركة بمواردهم المالية وجهودهم المهنية.

(٥) على سبيل المثال، في أثناء حصة موسيقى بأحد الفصول الدراسية في إحدى المدارس التي زرناها داخل تركيا، كان الطلاب يغنون أغنيةً عن النبي "محمد".

المراجع

(١) أندرسون كريس، التعليم بوصفه إيمانًا، مطبعة جامعة بايلور، واكو، تكساس، ٢٠٠٤.

(٢) كولن م. فتح الله، نحو حضارة عالمية من المحبة والتسامح، ذا لايت للنشر، نيو جيرسي، ٢٠٠٤.

(٣) كولن م. فتح الله، الموازين أو أضواء على الطريق، المجلد ١، لندن، تروستار، ص:٣٦.

(٤) نوسنر، يعقوب وشيلتون، بروس، محرران، الغيرية في الديانات العالمية، مطبعة جامعة جورج تاون، واشنطن العاصمة، ٢٠٠٥.

(٥) بالمر باركر، أن نعرف كما نُعرف: التعليم بوصفه رحلة روحية، هاربر/ سان فرانسيسكو، ١٩٩٣.

(٦) بالمر باركر، الشجاعة على التعليم، جوسي-باس، سان فرانسيسكو، ١٩٩٨.

(٧) يافوز م. حقان وإسبوزيتو، جون ل. الإسلام التركي والدولة العلمانية، مطبعة جامعة سيراكيوز، سيراكيوز، نيويورك، ٢٠٠٣.

(٨) دراسة: مقدمة من الدكتورة باربرا س. بويد، برنامج الدراسات الدينية، جامعة أوكلاهوما، خريف ٢٠٠٦.

التعددية، المشاركة والآثار في حركة الخدمة[1]

محمد شتين

أ.د. محمد شتين، عالم اجتماع تركي، درّس في عدد من الجامعات الأمريكية. عمل -متطوعًا- رئيسًا لمعهد حوار الأديان بأمريكا. وكان له عمود أسبوعيّ على يومية زمان الدولية. من مؤلفاته: حركة كولن: خدمة مدنية بلا حدود (٢٠١٠)، وحركة الخدمة: أسئلة وأجوبة حول حركة كولن (٢٠١٢)، وكلاهما نشرا بدار النشر بلودوم بريس ، نيويورك.

تلقي هذه الدراسة أضواء كاشفة حول فكرة "تعددية انتماءات المشاركين في حركة الأستاذ كولن" باعتبارها إحدى السمات البارزة لهذه الحركة، كما تبرز الدراسة طريقة عمل المجموعات الخِدْمية في الحركة، حيث تتخذ الشبكات الخِدْمية أشكالاً راسخة ومستقرة نسبيًّا؛ إذ بينما يلتحق أفرادٌ ويغادر آخرون ويحل بعضهم محل بعض، تستمر المشروعات وتتواصل. ومن ثم فإن آلية عمل هذه المجموعات الخِدْمية تعمل من تلقاء نفسها لا انطلاقًا من مركز أوحد.

كما تتعرض الدراسة للآثار المترتبة على هذه التعددية، وما تتيحه المشاركة من فرص معرفة الذات والترقي واكتشاف المعنى، والثقة والاستقرار والتقدير، والاحتواء واللاعنف، والتدريب المهني والحراك الاجتماعي، وغير ذلك مما تعرضت له الدراسة.

وتحت عنوان "نقاط للمناقشة"، أبرزت الدراسة الانتقادات الموجهة للحركة في إطار تعددية الانتماءات، وختمت الدراسة حديثها ببيان الأثر العام لهذه التعددية والمشاركة في مشرع الأستاذ كولن، حيث يعمل المشاركون في شبكاتها ومؤسساتها بهدف القضاء على الجهل والأعمال العدائية، والفجوات التي توجد داخل المجتمعات وفيما بينها.

تُتيح العلاقاتُ المتغلغلة داخل الحياة الاجتماعية للأفراد، إمكانيةَ إضفائهم المعنى على عالمهم. وبما أن السلوك الإنساني ليس سلوكًا أحاديَّ البُعد، فغالبًا ما يتم السعي للوصول إلى حل المشكلات التي تُصيب -بصورة يومية- علاقاتِ الأفراد بعضهم ببعضٍ (وغيرها من القضايا)، من خلال شبكات أو مجموعات من الأشخاص يتواجدون في محيطٍ تربطه قنوات التواصل، ومن ثمَّ يصبح بوسعهم مقاربة هذه المشكلات وهم داخل حيز الجماعة، فيندمجون طوعًا داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية، أو يتأقلمون تبعًا لمخططات ترمي إلى تحسين الظروف التي يعيشون فيها[٢].

أهمية الشبكات وتعددية الروابط للمجتمع

إن من شأن العلاقات الاجتماعية، أن تجعل من انضمام الأفراد وإسهامهم فيما أسميناه بالشبكات، أمرًا ميسورًا وخاليًا من الصعوبة، حيث تساعد هذه الشبكات في إحداث التفاعلات التي تتم بين العلاقات والروابط والاهتمامات والتطلعات وتعمل على تعزيزها، ومن خلالها يكتسب الأشخاص مزيدًا من القدرة على بلوغ نُظُمٍ وعلاقاتٍ ومفاهيمَ وغاياتٍ ما كان لهم أن يبلغوها بمفردهم[٣].

ولعل الحركات، بحكم كونها تجليًا للشبكات أكثر من كونها منظمات رسمية، أن تكون أكثر جذبًا للداعمين والأنصار وليس للأعضاء، رغم أن هؤلاء الداعمين غالبًا ما يكونون أكثر التزامًا من أولئك الذين يتمتعون بعضويات رسمية في الأحزاب السياسية[٤]، ولذا فإن "ديلا بورتا" و"دياني" يؤيدان الفكرة القائلة بأنه ليس ثمة "أعضاء" في الحركات الاجتماعية، بل

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن إحدى السمات البارزة لحركة كولن هي تعددية انتماءات المشاركين فيها؛ حيث لا ينتمي الأفراد إلى أي تجمُّع أو شبكة واحدة، بل يُسهمون في عدد من مناحي الحياة الاجتماعية، والأنشطة المتنوعة.

"مشاركون". وفي السياق نفسه، يستعمل "ميلوتشي" مفهوم "الانتماءات المتعددة"، للدلالة على تعددية الانتماءات أو المساهمات[٥].

وتُظهر الدراسات التي أجريت على الحركات الاجتماعية، أو منظمات الحركة الاجتماعية (SMO)، أن التفاعلات بين الأشخاص، والروابط الوجدانية، وإحداث التأثيرات الاجتماعية، من خلال العلاقات المباشرة، هي الخلفيات أو القنوات الرئيسية التي يتم من خلالها المساهمة في الشبكات أو الحركات الاجتماعية[٦]. وقد أطلق عالم الاجتماع "ماك آدم" وزملاؤه على هذه التفاعلات أو التأثيرات التي تحدو بالأشخاص إلى المساهمة، اسم "سياقات التعبئة الصغرى"، مؤكدين على أن "الاحتكاك الشخصي المسبق هو أكثر مصادر الحركات قدرة على حشد الأتباع"[٧].

ثم ما إن ينخرط الأشخاص في خيوط الشبكة، حتى يبدؤوا بالتفاعل والاستغراق في مشاورات يضعون من خلالها مخططات معرفية وتحفيزية، ويُفعِّلون عن طريقها الموارد المادية، ورأس المال الثقافي، والعمالة اللازمة لبدء العمل[٨]. وفي مثل هذه السياقات، تساعد العمليات الاجتماعية والمعرفية في وضع الأساس المنطقي الذي يُسوِّغ تكوين منظمات الحركة الاجتماعية والمشاريع التابعة لها، فضلاً عن توصل الأشخاص إلى قناعة مفادها أن منظمات الحركة الاجتماعية وخدماتها بالغةُ الضرورة، وجديرة بكل

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن المشاركة في حركة كولن لا تعني الانعزال أو التجزئة، إذ الأشخاص لا ينضمُّون إلى الشبكات الخدمية على أساس فردي فحسب، ولا يعملون تحقيقًا لمصالحهم الشخصية، بل إنهم يؤدون أدوارهم من خلال شبكات من العلاقات الاجتماعية.

أشكال الدعم والمساهمة[٩].

ومن خلال عملية المشاركة هذه، يشعر الأشخاص بالقيمة المعزوة إلى الرؤى الفردية داخل الشبكة، ويتحمسون -من ثم- للمساهمة في التفكير الجماعي والمشروعات الخيرية[١٠]. وهكذا، فإنهم يحظون بعلاقات أصيلة مع أنفسهم والآخرين، فيهيب الواحد منهم بصاحبه وبالمجتمع بأكمله أن يتحمل المسؤولية.

كما يُدرك الأشخاص المنخرطون في مثل هذه الشبكات الخدمية ومنظمات الحركة الاجتماعية، أن القدرة على إحداث تغييرات في حياة الآخرين أكبر بكثير من قدرة أيٍّ منهم على الإنجاز بمفرده، فيتفتح وعيهم لاستيعاب محدوديتهم كأفراد وإن سنحت لهم الفرصة لتعويض هذه المحدودية في قدرتهم على خدمة المجتمع من خلال إمكانات الجماعة ككل[١١].

وحتى يتسنَّى لهذه الأشكال التنظيمية والمؤسسات أن تكتسب مزيدًا من الثراء مع مرور الوقت، وأن تدخل في علاقات جديدة وتتأقلم مع البيئة المحيطة بها؛ فإنها تحتاج إلى وسط اجتماعيٍّ يتسم بالتعددية الثقافية والتنوع، وقدر معين من المساواة ومتانة الممارسات والمؤسسات الديمقراطية[١٢].

الأواصر والشبكات داخل حركة كولن

إن إحدى السمات البارزة لحركة الأستاذ كولن، والتي تجعلها بالأساس موضوعًا لهذه الدراسة، هي سمة تعددية انتماءات المشاركين فيها[١٣]؛ إذ ليس ثمة عضوية رسمية في الحركة، حيث لا ينتمي الأفراد إلى أي تجمُّع أو شبكة واحدة بعينها[١٤]، بل يُسهمون في عدد من مناحي الحياة الاجتماعية، وفي عدد من الأنشطة المتنوعة في الوقت نفسه. علمًا بأنه في كل منحىً من هذه المناحي لا ينشط سوى جانب واحد من جوانب الذات، أو لِنقُلْ لا تنشط سوى جوانب بعينها من جوانب شخصية المشاركين وخبراتهم[١٥].

ولعل التجربة الشخصية للصحفي "عبد الله أَيْماز"، تُزودنا بمثال واضح على هذا الملمح، يقول: "أنا معلِّم وكاتب، ولدي التزامات مثل الوظيفة والمساهمات التطوعية الإضافية في الجهاز الإعلامي الذي أعمل فيه ككاتب عمود. وكذلك فإنني أشارك في أعمال خدمة الحي والمجتمع الذي تقطن أسرتي في إطاره. إضافة إلى ذلك، لدي اهتمامات بالموضوعات العلمية، ولذا أشارك في هيئة تحرير مطبوعة علمية شهرية واسعة الانتشار، وفي لجنة الاختيار التابعة لها. أبنائي في المدرسة الثانوية، وأنا أُسهم في مجلس أولياء الأمور بغيةَ تحسين المستوى التعليمي للمدرسة. كما أعمل في مجال الحوار بين الأديان، وأقوم بزيارة واستضافة أشخاص ينتمون إلى مجموعات دينية مختلفة. وكذلك فإنني أحضر لقاءات واجتماعات بشبكات من الأفراد ينتمون إلى بلدتي وإلى أماكن أخرى عشتُ فيها من قبل. وباختصار، فأنا أُسهم في كثير من الشبكات، تبعًا لمحل إقامتي وعملي واهتماماتي ومسقط رأسي وتعليم أبنائي ...إلخ. وبالمثل، فإن هناك آلافًا من الأشخاص في حركة مشروع كولن، يشاركون في مزيد من الشبكات ويقومون -مقارنة بي- بما هو أكثر من ذلك من الخدمات المجتمعية[١٦].

ويذهب عالم الاجتماع "كلاند يرمانس" إلى تقبُّل الأفراد للقيام بمثل هذه الأدوار بمحض إرادتهم وفقًا لما بينهم من اختلافات وسمات شخصية؛ إذ إنهم ينخرطون في هذه المجموعات الخدمية بعد اتخاذهم قرارًا واعيًا بالتغيُّر، وتوجيه وجودهم الخاص شطرَ هذه الوجهة[١٧].

وفي حركة الخدمة، تتخذ الشبكات الخدمية أشكالاً راسخة ومستقرة نسبيًّا؛ إذ بينما يلتحق أفراد ويغادر آخرون ويحل بعضهم محل بعض، تستمر المشروعات وتتواصل، علمًا بأن الاحتياجات الفردية والأهداف الجماعية لا يستبعد بعضها بعضًا، بل إنها جميعًا تجليات للشيء نفسه، وهي تتواجد في الوقت نفسه، وتتداخل عن كثب مع أنشطة الحركة في الحياة اليومية[١٨].

إن المجموعات الخدمية في حركة الأستاذ كولن تعمل من تلقاء نفسها لا انطلاقًا من مركز أوحد، وذلك على الرغم من احتفاظها بمجموعة من الروابط التي تربطها بالجماعة ككلٍّ، من خلال تداول المعلومات وتبادل الأشخاص المهنيين داخل إطار الحياة اليومية[١٩]. ولعل تبادل الخبرات وتمريرها على هذا النحو، هو ما يحافظ على ما بين هذه الشبكات المتمايزة شبه المستقلة إداريًّا من تواصلٍ بعضها مع بعض، ومع الشرائح الأعرض من الجماهير التي تخدمها؛ إذ تُتداول المعلومات والخبرات وأنماط السلوك، وتُمرَّر من شبكة إلى أخرى، مُضفية -بذلك- قدرًا من التجانس على الحركة ككل[٢٠]. حتى إن الكاتب "إيرجين" يتناول هذه العلاقة بين الفرد من ناحية، وشبكات حركة الأستاذ كولن من ناحية مقابلة فيقول: "إن الأفراد لا يستشعرون خطر فقدان أنفسهم في الشبكات

هناك عدد كبير من الأشخاص المتعاطفين مع العمل الجماعي الذي تضطلع به حركة الخدمة وإن لم يكونوا طرفًا فاعلاً فيه، وهو ما يدل على قدرة الحركة على مد الجسور الوجدانية مع عامة الجماهير وعدم اتسامها بالانعزالية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الخدمية، فهم مدركون أن ما بينهم من اختلافات شخصية، سيُقابل باحترام. وهم لا يفقدون تفردهم كأشخاصٍ بينهم فوارق في الشخصية، بل يُقدِّرون -على النقيض من ذلك- فائدة وقيمة ومركزية العلاقات التي تتيحها الشبكة لأفرادها. وهكذا فإنهم يحتفظون بما بينهم من تفاعلات وأواصر، وهي المتطلبات الأساسية للحياة الاجتماعية، بطريقة أكثر يُسرًا بسبب دور الوسيط الذي تؤديه شبكة العلاقات هذه. ومن ثم فإنهم يُحدِّدون اتجاهًا ومعنىً لوجودهم داخل شبكات تتسم بالعلائقية والمهنية[٢١]، وكذا داخل محيط خدميٍّ يتسم بالسمات نفسها[٢٢].

ومع احترامها للعلاقات التي تتخلل الشبكات الخدمية، فإن حركة الأستاذ كولن -بوصفها فاعلاً جمعيًّا- لا تتقوقع على نفسها، أو تفصم عرى العلاقات التي تربطها بالشركاء المجتمعيين المنتمين إلى الجمهور العام؛ إذ تعتمد إستراتيجية الحركة أو علاقاتها مع المجتمع، على التكامل معه والارتباط التام به، من خلال المؤسسات التعليمية والثقافية والعمل المجتمعي، وليس على العزلة والاغتراب والانسحاب منه[٢٣].

إن البناء الجمعي الواعي للهوية والسلوك في إطار محيط من العلاقات الاجتماعية، متسعٍ وعابر للحدود الوطنية، يجعل من هذا المحيط بيئة متزايدة النحو باتجاه العالمية والتكاملية والاحتواء، وكذلك متزايدة

إن المجموعات في الخدمة تعمل من تلقاء نفسها لا انطلاقًا من مركز أوحد، وذلك على الرغم من احتفاظها بمجموعة من الروابط التي تربطها بالجماعة ككلٍّ، من خلال تداول المعلومات وتبادل الأشخاص المهنيين داخل إطار الحياة اليومية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

القدرة على تأمل الذات. ولذا فبطبيعة الحال لا يُمكن للمشاركين في تقديم الخدمات في منطقة ما أن يظلوا بمعزل عن التطورات التي تطرأ على الخبرات والاحتياجات ومواطن المعاناة البشرية في المناطق الأخرى[٢٤]. ووفقًا لـ"أَيْماز"، ففي القرية المعولمة "لا تسعى الحركة -بوصفها فاعلاً جمعيًّا- إلى استبعاد أو محاولة القضاء على الخلافات بين الأفراد، بل تحاول تجميعهم حول أوجه التشابه والمعايير التي يقرها الجميع، وذلك بهدف خدمة المجتمع والإنسانية، بدلاً من التركيز على الاختلافات الثانوية التي تتسم بالتناقض والتضارب، والتي لا تُشكِّل -في الوقت نفسه- أهمية كبرى بالنسبة للمشاريع التي تحظى بالقبول العالمي كالتعليم. وهو ما يُحمِّل رسالة الحركة بمجموعة معقدة من المفاهيم والعلاقات والقيم، التي تهدف إلى إحلال التعايش السلمي والتعاون بين الحضارات"[٢٥].

ومع اتساع نطاق التكامل/الشراكة، تزداد -بالمثل- احتمالية إنشاء كيانات جديدة من منظمات الحركة الاجتماعية[٢٦]. ثم إن الشبكات الخدمية لحركة الأستاذ كولن، تتعاون مع غيرها من المنظمات الشرعية المؤسسية المعنية بنفس القضايا والحريصة على مبادرات مشتركة تقوم على أسس توافقية. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك، أنشطة المؤسسات التعليمية من قبيل المشاركة في أولمبياد العلم والمعرفة وبرامج تبادل الطلبة، وأنشطة مؤسسة الصحفيين والكُتَّاب في جميع أنحاء العالم، ومراكز الثقافة والحوار المحلية والإقليمية[٢٧].

الآثار

أ- فرص معرفة الذات والترقي واكتشاف المعنى:

ينظر علماء الاجتماع إلى الانتماءات البديلة باعتبارها رحلة صوب الترقي الشخصي والاجتماعي والثقافي والروحي والمهني، وكذلك بوصفها رحلة تهدف إلى بلوغ المعنى[٢٨]. وما قاله "أيماز" آنفًا عن تعددية الانتماءات، معناه أنَّ كَوْنَك طرفًا فاعلاً داخل الحركة إنما يتضمن مجموعة متشعبة من الانتماءات والاهتمامات. وبالتالي، فإن الأشخاص يُقْدِمون -وفقًا لظروفهم- على الاستجابة لهذه الكثرة من الاهتمامات وفرص المشاركة وخيارات الانتماء. وكَوْنُك أحد المشاركين في إحدى الشبكات، إنما يعني الإبقاء على مجموعة من الفرص المتاحة التي يُمكنك من خلالها أن تعرف ذاتك، وأن تكون ذا فائدة ونفع للآخرين، وكذلك أن تتجنب الصراعات.

كما أن كَوْنَك جزءًا من إحدى شبكات حركة الأستاذ كولن لا يعني غياب عنصر الاختيار، بل يعني وجوده؛ إذ إن الأفراد يصبحون جزءًا من الحركة بعد اتخاذهم قرارًا واعيًا بذلك، ومن ثم يخوضون من خلال الحركة تجربة تحقيق الذات. ولذا، فإن العمل الجماعي الذي تضطلع به الحركة يُمثِّل -من وجهة نظر كثيرين- دعوة ونداء. وهم غالبًا ما يجدون -من خلال تعدد الانتماءات- مزيدًا من الإلهام والتحفيز في تلك الأفكار والمناهج التي يتبناها ويمارسها غيرهم من المشاركين[٢٩].

وهكذا تُمكِّن الاستجابةُ لنداء المشاركة هؤلاء الأشخاصَ -من خلال قنوات متنوعة- من تجربة الإحساس بالتفاؤل المتقد[٣٠]؛ إذ يشعرون بالرغبة في أن يقوموا الآن بتجربة ما يُمكن تحقيقه، أو ما يجب عليهم فعله للآخرين وللأجيال القادمة من أشياء قيِّمة في ذاتها. علمًا بأن ما يتم على نطاق ضيق في أحد السياقات، يكون له مردوده وتداعياته على السياقات الأكثر اتساعًا[٣١]. وربما يبدو على ما يشارك فيه الأشخاص وكأنه غير ذي أثر مباشر عليهم، إلا أنه يعمل على تغذية وتعزيز بعض الأشياء الأساسية بالنسبة إلى الفاعل الجمعي -أو لِنَقُلْ بالنسبة إلى الجماعة ككل؛ حتى يتسنَّى لقدرتها على التعبئة أن تتسم بالفاعلية، أو لقدرتها على الانتشار أن تتسم بالسرعة واتساع النطاق؛ وذلك تحقيقًا لأحد المشروعات الخِدْمية من خلال الانتماءات المتعددة[٣٢].

ب- التدريب المهني والحراك الاجتماعي:

تعمل حركة الأستاذ كولن على نشر القيم والمبادئ وبثها في المجتمع، بهدف مباشرة نمو المهارات الشخصية. ويشترك المساهمون في الحركة في شبكات خدمية غير رسمية، أو خيرية، أو شبكات تسعى إلى مد يد العون للآخرين[٣٣]، وهو ما يستتبع وجود تدريب ثقافيٍّ موَّسع وإن لم يكن ملموسًا بأكمله، على المهارات والابتكارات الجديدة (المهنية في أغلب الأحوال). كما تلتزم الحركة التزامًا قويًّا بتقديم الخدمات المهنية، بما في ذلك عمليات إعادة التدريب التي تستهدف تطوير العاملين في الأسواق وفي منظمات الحركة الاجتماعية.

وبهذه الطريقة تساعد حركة الأستاذ كولن في عملية تحديث المجتمع من خلال التوسع في القطاعات المهنية المتطورة، لا سيما مع الارتفاع الملحوظ في معدلات تدوير أطقم الموظفين في مجالات الاتصالات والتعليم والرعاية الاجتماعية. هذا التدوير الذي يعني أن التركيبة العقلية الحاكمة لقواعد تقديم الخدمات، والتي ترتبط بالقيم الأخلاقية العالمية، إلى جانب التدريب الثقافي والمهني المكتسب من خلال عمليتي تلقي وتقديم التعليم، قد تمخضا عن حراك اجتماعي ملحوظ على المستويين الأفقي والرأسي داخل تركيا.

جـ- الاتصالية: إن طبيعة المساهمات التي يقوم بها أفراد حركة الأستاذ كولن، وكذلك طبيعة ما يُظهرونه من التزام، وما يبلغونه من درجات التحقق الذاتي من خلال الانتماءات المتعددة، تكشف جميعُها عن سمة أخرى مميزة من سمات الحركة وهي "الاتصالية"، وأعني بذلك عدم انفصال الفردي عن الجمعي، والخاص عن العام، والمحلي/الإقليمي عن الدولي/العالمي؛ ففي ثنايا علاقات الانتماء إلى المشاريع الخدمية، والتي تتسم بكونها علاقات تعددية ومتغيرة ومتداخلة، تُراعى كلٌّ من الاحتياجات والاهتمامات الفردية، والأهداف والمصالح الجماعية بصورة مستمرة ويتم تلبيتها، بحيث لا يَحدُث تعارض بين الفردي والجمعي ولا يستبعد أيُّهما صاحبه؛ ففي حين تعمل المساهمات الفردية المتنوعة على إثراء المجتمع، يعود ما يتم إنجازه لصالح المجتمع ككلٍّ بالفائدة على الأفراد في نهاية المطاف[٣٤].

يعمل تركيز حركة الخدمة، على زيادة الوعي بما هو شرعي وقانوني وبحقوق الإنسان وحقوق الفرد المقررة دستوريًّا، على إرساء الديمقراطية التشاركية التعددية، وعلى تعزيز المساواة في الحقوق.

nesemat.com نسمات nesemat.com

تساعد الحركة على إيجاد سُبُلٍ يُمكن للأشخاص من خلالها أن يتعايشوا معًا ويضعوا أهدافًا مشتركةً ويحترمون ما بينهم من اختلافاتٍ متأصلة. ما يعني قدرتها على أداء دور التوفيق والوساطة بين مجتمعات أو جماعات منفصلة عن بعض.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ويُعلق "أَيْماز" على هذه السمة قائلاً: "قد تكون مساهمة الأفراد في مشروع معين مساهمةً قصيرة الأمد، بيد أن التزامهم بالقيم والتصورات التي يشتمل عليها السلوك الجمعي للحركة، ليس التزامًا قصير الأمد. إن الأفراد لا يبارحون الحركة بشكل نهائي، بل يتركون أحد المشروعات -لو فعلوا- بُغيةَ الانخراط في سواه؛ حيث تُسهِّل تعددية المشاريع والشبكات الأخرى المتاحة، من إمكانية استبدال الأفراد استبدالاً مباشرًا لصالح شبكات أو مشاريعَ خدمية أخرى[٣٥].

وهكذا تتيح تعددية الأهداف والموارد للأشخاص، إمكانية تغيير الشبكة التي يعملون من خلالها، وذلك بهدف تحسين وزيادة فعالية مساهماتهم، أو تحسين وزيادة فعالية الشبكة نفسها، لا سيما أن العواقب المترتبة على هذا الانتقال عواقب بسيطة.

وعلاوة على ذلك، فإن ترك الفرد لإحدى المجموعات، لا يعدُّ حدثًا بالغ الدراماتيكية مع اتساع مدى البدائل المتاحة أمامه من الشبكات الخدمية التي يزداد عددها بزيادة التمايز المجتمعي.

د- التماسك والتلاحم الاجتماعي وتخطي الحدود: إن المشاركة في حركة الأستاذ كولن لا تعني الانعزال أو التجزئة؛ إذ إن الأشخاص لا ينضمُّون إلى الشبكات الخدمية على أساس فردي فحسب، ولا يتصرفون أو يعملون من خلالها تحقيقًا لمصالحهم الشخصية، بل إنهم يؤدون أدوارهم من خلال شبكات من العلاقات، كالأصدقاء والجيران والجمعيات المهنية. وهكذا فإنهم يحظون -في إطار هذه الشبكات- بفرصة أن يقترب بعضهم من بعض، ويعرف بعضهم بعضًا على المستوى الإنساني. وتؤدي هذه الزمالة غير الرسمية إلى نشوء نوع من التعاطف المشترك فيما بينهم، يُسهم بدوره في إحداث الألفة والتماسك أو التضامن الاجتماعي.

وفي حين يُبقي الوافدون الجدد، على علاقاتهم السابقة الموجودة خارج نطاق الحركة، فإن الاشتراك في الحركة يرتكز على مشاركة المعلومات والتبادلية والتفاعل والاضطلاع بدور فعَّال في أنشطتها الجماعية، وهو ما يجعلها تتخذ شكل دوائر تقوم على علاقات الصداقة، لأنها مقترنةٌ بالسياق: بمعنى أن لدى المشاركين فيها اهتمامات وصداقات متعددة ومتزامنة، وكذلك التزامات مهنية وإيثارية غيرية، وبالتالي فإن الخسارة التي قد تحدث لأي سبب كان، لا يتحملها الفرد وحده في عزلته[٣٦]. وثمة درجة معينة من الاستثمار أو البناء الاجتماعي والثقافي والمعرفي والوجداني داخل الشبكات ما بين العلائقية، أو لِنَقُلْ داخل شبكات العلاقات، في حركة الأستاذ كولن. هذا البناء التفاعلي التواصلي، يتخذ إطاره الاجتماعي والمعرفي من خلال العلاقات الفعالة الموجودة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية، والتي تحافظ على الهوية والسلوك الجمعيَّين لحركة الأستاذ كولن مع مرور الوقت.

ولعله من الخليق بعلاقات تقوم على هذا النحو، أن تكون أكثر عمقًا وإلزامًا واستمرارية من المساهمات قصيرة الأجل (وذلك على النقيض تمامًا من المشاركة في الأنشطة والمنظمات ذات الطابع الشمولي).

وحدوثُ التماسك يتأتى من القدرة على تأمل الذات، ومن مزية إمكان المساهمة أو المشاركة المباشرة في العمل الجماعي. ثم إن هذا النموذج الثقافي الرمزي التعددي يحترم الاختلافات والاحتياجات الفردية، ولا مكان فيه للحلول الطائفية أو الطموحات المهمشة أو تحقيق المصالح التي تتشكل ويُسعى إليها من خلال أساليب تتعارض مع النظام المستقر.

ولو طُرح السؤال عما إذا كان مثل هذا الانضمام أو المساهمة، يُحفز المشاركين في حركة الأستاذ كولن بأي شكل من الأشكال على انتهاك قواعد النظام، فستكون الإجابة أنه ليس مطلوبًا من الأفراد، ولا مسموحًا لهم أن يتَحدَّوا القيود التي ينص عليها القانون أو عامة الناس، وأن تاريخ الحركة إلى الآن، لم يُبرهن على وجود وقائع تدلل على حدوث ما يخالف الشرعية[٣٧].

لقد ازدادت أعداد الشبكات الخدمية ونمت، حتى كـوَّنت حركة ديناميكية متسعة وعابرة للحدود الوطنية. وتُشكِّل هذه الشبكات نموذجًا لصنع واتخاذ القرار، وكذلك للقيادة، ووسائل وقنوات الاتصال مع الأحزاب الصغيرة وعامة الجماهير. كما أنها تُقدِّم وتُواصل نشر خطاب خدميٍّ، وأخلاقيات وأنشطة خاصة بها، يشترك في إرفادها كافة المشاركين في الحركة.

وكذا فإن مجموعة الممارسات والمنتوجات المعرفية والثقافية والناتج الإجمالي للأعمال الجماعية، يتم تقديمها إلى المجتمع بأكمله وإدماجها في لغته[٣٨]. ولهذه الأسباب تُعتبر حركة الأستاذ كولن حركة متميزة ومركزية في مجالاتٍ من قبيل التعليم، والنشر والإعلام، والثقافة والصحة، والحوار بين الأديان والتماسك المجتمعي.

وقد تم تنظيم حركة الأستاذ كولن بالأساس، من خلال تقاطع الحياة اليومية غير الرسمية مع العلاقات

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن حركة الخدمة لا تتقوقع على نفسها، إذ تعتمد إستراتيجية الحركة أو علاقاتها مع المجتمع، على التكامل معه والارتباط التام به، من خلال المؤسسات التعليمية والثقافية والعمل المجتمعي.

الشخصية، الشيء الذي أدى إلى ترابط المشاركين المنتمين إلى المجتمعات المحلية بعضهم مع بعض. وتقوم العلاقات داخل هذه الشبكات، على أساس الصداقة والتجاور والمهنة والاهتمامات الشخصية، وتمتد لتشمل الأنشطة الاجتماعية والثقافية والدينية والمجتمعية والإنسانية. هذه الأنشطة تتجاوز إلى حدٍّ بعيد، نطاقَ السياسة الصريحة، وتتواصل عبر الحدود بين المناطق المحلية والأجيال. وكذلك فإنها قد أثبتت قدرتها على عبور الحواجز الأيديولوجية والاجتماعية، من خلال تعددية المشاركات وتعزيز الثقة المتبادلة[٣٩].

كما تركز الحركة، على زيادة الوعي بما هو شرعي وقانوني، وبحقوق الإنسان وحقوق الفرد المقررة دستوريًّا على إرساء الديمقراطية التشاركية التعددية وعلى تعزيز المساواة في الحقوق[٤٠].

هـ- الاحتواء واللاعنف: على الرغم من بساطتها النسبية، تضطلع الشبكات بدور إرشادي مهم في ربط الأفراد بمنظمات الحركة الاجتماعية المتنوعة، والحراك الاجتماعي الخارج عن نطاق الحركة. وبهذه الطريقة تتحول الطاقات الجديدة في المجتمع، والتي كان يُمكن لها أن تنزلق إلى هوة الصراع والعنف، إلى مشاريع بناءة وأنشطة مثمرة وجماعية ونافعة[٤١].

ويكون من شأن الانتماءات المتعددة وثيقة العرى، التي يُضفيها الأفراد أو يكتسبونها من خلال الشبكات

البناء التفاعلي التواصلي، يتخذ إطاره الاجتماعي والمعرفي من خلال العلاقات الفعالة الموجودة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية، والتي تحافظ على الهوية والسلوك الجمعيَّين لحركة كولن مع مرور الوقت.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الخدمية، أن تُمثِّل بالنسبة لهم مصدر إلهام وتحفيز، وأن تضع في أعناقهم مسؤولية الاضطلاع بالخدمات التي تُسفر عنها المشروعات المختلفة. وفوق ذلك، فإن المشاركين لا يُقيمون جدارًا عازلاً بين حياتهم الشخصية وبين هذه المشروعات، بل يربطون بين حياتهم الخاصة من جانب، وأنشطتهم العامة وبيئاتهم المجتمعية من جانب آخر، وهو ما يؤدي إلى حدوث اتصال متناغم وسلمي بين الجانبين، بدلاً من حدوث القطيعة والاغتراب والإحباط والعداء.

كما أن هناك عددًا كبيرًا من الأشخاص المتعاطفين مع العمل الجماعي الذي تضطلع به الحركة وإن لم يكونوا طرفًا فاعلاً فيه،[٤٢] وهو ما يدل على قدرة الحركة على مد الجسور الوجدانية مع عامة الجماهير وعدم اتسامها بالانعزالية. وفي الواقع، فإن الحركة لا تتوقع من المشاركين فيها أن يقوموا بقطع روابطهم الاجتماعية السابقة أو ألا يكون لديهم علاقات أخرى، بمعنى ألا ينخرطوا في علاقات جديدة، بينما يشاركون "من داخل" الحركة.

وهو ما يسمح بوجود مستويات متعددة -عادة ما تتسم بالتكامل- من المشاركة في حركة الأستاذ كولن. ومن المؤكد أن ثمة هوية مشتركة تُميز الحركة ككل، بيد أن تنوع مستويات الانتماء إلى المشاريع الخدمية ومنظمات الحركة الاجتماعية لدى المشاركين وغير المشاركين، هو ما يجعل هذه الهوية هوية منفتحة واحتوائية. كما أن هذا الطابع الاحتوائي لا يُحدث أثرًا سلبيًّا على ما تتمتع به الحركة من تجانس، ولا على مشاريعها الخدمية؛ فالانفتاح على العالم الخارجي، وعدم هيكلة الحركة بطريقة تنظيمية شمولية، بل بالأحرى نراها تنخرط في علاقات توافقية، أو تسعى إلى إقامتها مع غيرها من الجهات الجماعية الفاعلة وكيانات المجتمع المدني، وعدم اقتصارها على زمان ومكان (أو إقليم) محدَّدين. كل ذلك يدل على أن النظام الشبكي والمشاركة والانتماء داخل حركة الأستاذ كولن، لا تقوم جميعها -بأي شكل من الأشكال- على مبدأ الاستبعاد أو الغربة أو الطائفية[٤٣].

و- الثقة والاستقرار والتقدير: يشعر المشاركون في الحركة، أن ثمة رابطة تربطهم بغيرهم من المشاركين في الشبكات الخدمية؛ كونهم يتشاركون نفس الاهتمامات، وهو ما يُمكِّنهم من إضفاء المعنى على ما يقومون به، ومن تأكيد أنفسهم بوصفهم قائمين على ما يؤدونه، ومن الصمود في وجه تصدع العلاقات الاجتماعية في أوقات النزاع. وفي هذا دلالة على قدرة الحركة -باعتبارها فاعلاً جمعيًّا- على تعريف ذاتها ودورها في الحياة، تعريفًا راسخًا ومتينًا على مدى سنوات عديدة. والحقيقة أن الحركة قد حسَّنت من قدرتها على حل المشكلات التي يطرحها الوسط الذي تتواجد فيه، وازدادت حريتها واستقلاليتها في الاضطلاع بما تقوم به من أعمال داخل حدود شبكة العلاقات التي تتموقع في إطارها[٤٤].

وقد أثبتت عملية الثامن والعشرين من فبراير[٤٥] قدرة الحركة على توليد تعريفات وتصورات جديدة، من خلال إدماج الماضي من جهة، والعوامل والنتائج

المتولدة عن المواقف الراهنة من جهة مقابلة، في نسيج الهوية المستقرة للحركة، وهو ما عزز -بدوره- من تماسكها الداخلي، ووسَّع من أرضيتها المشتركة مع ما يقع خارجها.

وخلال حملة التشهير ضد الأستاذ كولن أثناء عملية الثامن والعشرين من فبراير، أثبت الدعم القوي الذي حظي به الرجلُ وأنشطةُ حركته من مجموعة واسعة ومتنوعة من السياسيين ورجال الدولة ومنظمات المجتمع المدني والمفكرين والصحفيين، صحةَ الفكرة القائلة بأن هوية حركة الأستاذ كولن إنما تقوم على التكامل، لا على الانعزال[٤٦].

ز- الانتشار: كذلك فإن تعددية الانتماءات في حركة الأستاذ كولن، تُسهِّل من عملية انتشارها. و"الانتشار قد يكون مباشرًا أو غير مباشر، تبعًا لكونه ناجمًا عن التواصل بين المشاركين بلا وساطة أو حدوث ذلك بوساطة وسائل الإعلام"[٤٧]. ويذهب عالم الاجتماع "ويتير" إلى أنَّ لأشكال التمثيل الثقافي والتغطيات الإخبارية دورَها في تشكيل ممارسات الناشطين الآخرين من خلال عمليات النشر والترويج، وإلى أن الناشطين -ولو لم يكن بينهم علاقات شبكية مشتركة- يُمكنهم معرفة جديد الحركات وجديد أنشطتها ونجاحاتها من خلال وسائل الإعلام[٤٨].

وفي حين تتسم الشبكات في حركة الأستاذ كولن -من الناحية الرسمية- باستقلال بعضها عن بعض، إلا إنها تكون على دراية بأنشطة بعضها بعض، من خلال الشبكات المتعددة التعليمية والثقافية والمهنية للمتطوعين، الذين يُمثِّل كلٌّ منهم نموذجًا جيدًا لصاحبه، والذين يُزوِّدون بعضهم بعضًا بوجهات نظر بديلة ومنتديات يُمكن محاكاتها أو تحسينها على يد الآخرين[٤٩].

nesemat.com نسمات nesemat.com

ليس مطلوبًا من أفراد الخدمة، ولا مسموحًا لهم أن يتَحدَّوا القيود التي ينص عليها القانون أو عامة الناس، وإن تاريخ الحركة إلى الآن، لم يُبرهن على وجود وقائع تدلل على حدوث ما يخالف الشرعية.

وبواسطة هذه الانتشارية، أمكن لحركة الأستاذ كولن أن تمتد إلى ما وراء الحدود الوطنية التركية؛ حتى استطاعت أن تخلق وتُقدِّم -على نحو متزامن- مجموعة بارزة من أوجه التشابه في مختلف البلدان. وقد جاء انتشار الحركة كأقوى ما يكون في الدول المجاورة القريبة من الناحيتين الجغرافية والثقافية، وإن كان الانتشار بالغ القوة كذلك في بعض الدول الأخرى التي لا تربطها بتركيا علاقات تاريخية أو أوجه تشابه في التركيبة الاجتماعية والسياسية[٥٠].

إن من شأن الموقف السلمي الثقافي/التعليمي والتعاوني الذي تتبناه الحركة، أن يجمع الكيانات الاجتماعية المتباينة حول المشترك، من التصورات والقيم[٥١].

وقد جاء انتشار الحركة من خلال التوجهات الشخصية، والمؤتمرات ووسائل الإعلام، ووكالات المساعدة والإغاثة، ومنظمات الحركة الاجتماعية التعليمية والثقافية، ومنظمات الحوار بين الأديان والأسفار والزيارات[٥٢]. ثم إن التدريب المهني والوظيفي، والحراك الاجتماعي داخل الحركة، قد تمخضا عن أعضاء مؤهلين ومثقفين بشكل جيد يؤدون أعمالاً متقنة، وهو ما ساعد أيضًا على تعزيز صورة الحركة داخل المجال الاجتماعي العام، وما شكَّل عاملاً إضافيًّا أسهم في انتشارها[٥٣].

حـ- المجال العام: تُجسد الشبكات والمشروعات

إن الاشتراك في الحركة يرتكز على مشاركة المعلومات والتبادلية والتفاعل والاضطلاع بدور فعَّال في أنشطتها الجماعية، وهو ما يجعلها تتخذ شكل دوائر تقوم على علاقات الصداقة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الخدمية لحركة الأستاذ كولن مبادئ الالتزام بالحرية والمبادرة الفردية، وتدفع الأفراد وتُمكِّنهم من الاستفادة الكاملة من حقهم القانوني -كمواطنين- في العمل على مسؤوليتهم الشخصية، بغيةَ تحسين نوعية حياتهم وحياة الآخرين بشكل عام[٥٤]. ثم إنها تعمل على فتح قنوات جديدة للتمثيل، والولوج إلى باحة موضوعات ومشاريع وخدمات ما زالت لا تحظى بالاهتمام حتى هذه اللحظة. ومن أجل الوصول إلى مجتمع مدني مفتوح، ينبغي للمبادرات من هذا القبيل أن تؤدي إلى إصلاح وتطوير عمليات صنع القرار على المستويين المحلي والقومي.

وهكذا، فقد أسهمت حركة الأستاذ كولن في خلق إمكانية التعايش المشترك والإدراك السليم لقيمة المواطنة، فيما يحدوها أمل التوصل إلى الاحترام والتفاهم المتبادَلَين دون الحاجة إلى الصدام[٥٥].

وتدأب شبكات الحركة والمشاركون فيها، على معالجة القضايا بطريقة ثقافية صارمة، وعلى طرحها للنقاش في المجال العام. كما تنتقي الأرضيات المشتركة التي يُمكن لعديد من الأشخاص أن يعملوا معًا على أساسها. وبعد تحديد القضايا، يُسمَح بمعالجتها من خلال الوسائل السياسية والفاعلين السياسيين، الشيء الذي يُحوِّل مبادرات المجتمع المدني إلى احتمالات للتغيير الاجتماعي، دون الاضطرار إلى مجابهة -ناهيك عن السعي إلى إبطال- الشرعية والسلطة المخوَّلتين بأجهزة صنع القرار. ثم إن هذه المبادرات تُتيح إمكانية قول أشياء جديدة والاستماع إلى أشياء جديدة غير تلك التي تسعى جماعات القوة المهيمنة على المشهد التركي إلى فرضها. تلك الأشياء الجديدة التي تَصْدر عن منطق مغاير لمنطق هذه الجماعات.

نقاط للمناقشة

لقد اتجهت الانتقادات حول حركة الأستاذ كولن إلى التركيز على واحدة أو أكثر، من هذه السمات التالية التي تمخضت عنها تعددية الانتماءات:

١- اللامركزية: بما أنه ليس ثمة كيان مركزي موحد، أو مقر أو مسؤول تنفيذي، وبالتالي لا وجود لمنظومة تضطلع بمهام "المراقبة" أو "السيطرة"[٥٦]، فإن لجميع المشاركين، سواء كانوا أفرادًا أو مجموعات، الحرية في تفسير رسالة الحركة أو رسالة الأستاذ كولن قدر طاقتهم، وهو ما يعتبره بعض المعلقين إحدى نقاط الضعف المحتملة.

٢- الموارد المالية: ليس ثمة ميزانية أو دفاتر حسابات مركزية، وهو ما يترتب عليه -في كثير من الأحيان- أن يجد الغرباء والباحثون الخارجيون غير المعتادين على هذا النوع من الشبكات الموزعة، صعوبةً في فهم كيفية أداء المشاركين في الحركة من كافة أرجاء المعمورة مثل هذا الكم من الأعمال. وغالبًا ما ينشأ سوء الفهم فيما يتعلق بهذه السمة من الفشل في إدراك الطبيعة اللامركزية لاتخاذ القرار داخل الحركة، كما ورد في البند (١)، ويُمكن لهاتين السمتين معًا، أن تؤديا إلى بعض الاتهامات الشعواء ضد الأستاذ كولن والحركة ككلٍّ في ما يخص مصادر تمويلها.

جـ- التترك (Turkishness): هناك من يرى أن الحركة "بالغة التترك"، بيد أن الحقيقة أنه -حتى هذه اللحظة- ليس ثمة أي بحث يكون قد اضطلع بمهمة قياس التنوع داخل الحركة ككلٍّ أو في مناطق بعينها، من حيث الجنسية أو العِرق أو المعتقدات الدينية وغيرها من الانتماءات أو الأجناس أو الأعمار وهلم جرًّا، ولذا فإن كافة التعليقات -إلى الآن- لم تخرج عن كونها تعليقات انطباعية؛ إذ بلا شكٍّ هناك اختلافات فيما يتعلق بهذه النقاط، وهناك عدد متزايد من المؤسسات في جميع أنحاء العالم لا توجد بها كثرة من الموظفين حاملي الجنسية التركية. وعلاوة على ذلك، فبما أنه ليس ثمة "عضوية" في حركات المجتمع المدني، فمن الصعب أن نصل إلى أي استنتاجات، أو أن نفهم كيف يُمكن للأبحاث في هذا المضمار أن تُضبط بطريقة ملائمة.

د- المرأة: علَّق بعض الأكاديميين على عدم "وضوح" دور المرأة داخل الحركة، وعلى ممارسات التمييز على أساس الجنس. ومع ذلك، انتهت (باحثات) أخريات إلى أن غالبية النساء المشاركات، قد عبَّرن عن موافقتهن على هذه الممارسات التمييزية، مفضلات العملَ "من وراء الكواليس"، وغير راغبات في أن تتغير هذه العوامل[٥٧].

الخاتمة

تُزوِّد الانتماءاتُ المتعددة التي تُميز المشاركين في حركة الأستاذ كولن، هذه الحركةَ بالقدرة على الاستماع إلى صوت المجتمع في شتى المستويات، وبالمقدرة على المساهمة في خلق الظروف اللازمة لتحقيق الديمقراطية التعددية الفاعلة، وذلك من خلال شبكات رسمية وغير رسمية، من قبيل المؤتمرات

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن نموذج الخدمة الثقافي الرمزي التعددي، يحترم الاختلافات والاحتياجات الفردية، ولا مكان فيه للحلول الطائفية أو الطموحات المهمشة أو تحقيق المصالح التي تتشكل ويُسعى إليها من خلال أساليب تتعارض مع النظام المستقر.

والمنابر ووسائل الإعلام والاجتماعات العلائقية الترابطية التي يحضرها السكان من نفس الجوار[٥٨].

وتساعد الحركة على إيجاد السُبُل التي يُمكن للأشخاص من خلالها أن يتعايشوا معًا، ويضعوا أهدافًا مشتركة، في نفس الوقت يحترمون فيه ما بينهم من اختلافات متأصلة. وهو ما يعني -بدوره- قدرتها على أداء دور التوفيق والوساطة بين المجتمعات أو الجماعات المنفصلة بقوةٍ بعضها عن بعض؛ إذ إن من شأن الانقسامات والتصدعات الداخلية، أن تنمحي بالسعي -من خلال الحِلم والتسامح والحوار- إلى الوحدة.

وقد شكَّل المشاركون في الحركة عددًا كبيرًا من المنظمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعمل عبر الحدود، وكان من شأن هذا الحراك أن تمخض عن إشاعة ونشر الأفكار والمعلومات والثقافات والأنماط الجديدة في العمل. وبهذه الطريقة، أمكنها تحويل البذور الكامنة إلى ثمار ملموسة، من خلال الأنشطة والخدمات الجماعية التي ما تلبث أن تتخذ طابعًا مؤسسيًّا. ومن خلال الشبكات الخدمية العلائقية الترابطية ووسائل الإعلام، يتآلف المشاركون في وئام ويمدون الجسور مع الطبقات المتعددة للحركة -بصفة رسمية وغير رسمية- كلما دعت الحاجة إلى ذلك[٥٩].

إن من شأن تعددية الانتماءات، أن تُعزِّز من مرونة الحركة وقدرتها على تشجيع وتوجيه المبادرات

الخاصة، وذلك بغرض دعم الأهداف التعليمية والخدمات الخيرية العامة. وتماشيًا مع فرضيات ما يبدو وكأنها نظرية في التعددية، يعمل المشاركون على تعهُّد هذه الاهتمامات والاحتياجات المحددة مع بقائهم جزءًا من النظام (أو مع الإبقاء على تبعيتهم له)، ومن ثم يتماشون مع "المصالح العامة" للمجتمع. وبهذا المعنى تُعتبر حركة الأستاذ كولن عنصرًا أساسيًّا من عناصر تجديد المجتمع المدني، والوعي الديمقراطي، وتوطيد دعائم التماسك الاجتماعي.

ومن خلال النقاشات المباشرة، وإتاحة قنوات الاتصال والتزويد بالمعلومات، والقيادات المحنكة في منظمات الحركة الاجتماعية، وردود الفعل التي توفرها وسائل الإعلام والجماهير، يتسنَّى للشبكات الخدمية والمشاركين معرفة ما يحدهم من قيود، الشيء الذي يحثهم -بدوره- على التفكير والتأمل. ومن خلال تجميع نتائج ممارساتهم واستقرائها، يُمكن للشبكات الخدمية ومنظمات الحركة الاجتماعية، أن تضطلع بدور الوساطة المؤسسية؛ بمعنى إحالة النزاعات والمشكلات والقضايا إلى مؤسسة من الوسطاء، تتوفر على تسيير إيجاد الحلول، وهو ما يؤدي إلى حدوث التواصل بين الهوية الفردية والهوية الجمعية، وبين تحقيق الذات والمشاركة، وبين الخاص والعام.

ويعمل المشاركون في حركة الأستاذ كولن في شبكاتها ومؤسساتها، بهدف القضاء على الجهل والغطرسة، والأعمال العدائية، والفجوات التي توجد داخل المجتمعات وفيما بينها. كما تعمل الشبكات والمشاريع الخدمية على تعزيز شتى الأنماط التطوعية للأعمال الغيرية الإيثارية التي تتمخض -بدورها- عن نماذج ومشروعات ثقافية وتنظيمية وعلائقية جديدة من أجل الصالح العام[٦٠]. وتَحُول الاستعانة بآليات من قبيل التشاور والتفكير الجماعي والإجماع، دون ظهور عقلية القطيع، أو السقوط في هوة "أحادية التفكير الجماعي"[٦١].

وهكذا توقظ الحركة في نفوس أفرادها، القابلية لاستيعاب التنوع والتعددية، ولتعزيز التضامن والتعاون الإنساني بين شتى المجتمعات، ولتوفير سُبُل العلاج للنزاعات والصراعات والعنف المجتمعي.

إن المرونة التي تتمتع بها حركة الأستاذ كولن، وقدرتها على التكيف، وسرعتها في معالجة الأمور، قد جعلت منها قناة متيسرة للتعبير المباشر عن الاحتياجات التي لا يُمكن لمؤسسات الدولة أو الأحزاب السياسية، أو غيرها من المنظمات الأكثر تنظيمًا، أن تتعامل معها.

وتكمن قوة الحركة في قدرة المشاركين فيها على السعي وراء تحقيق مجموعة من الأهداف العامة على المدى الطويل، وفي عدم استعدادهم للهروب أو التطرف أو العنف، وفي بساطتهم في صنع القرار والقيام بدور الوساطة، وفي كفاءتهم وفاعليتهم، وفي أخلاقياتهم المهنية وإسهامهم في مجموعة متنوعة من الاهتمامات. ■

الهوامش

(١) أينما وردت كلمة "الحركة" (بـ"ألـ" التعريف)، في طيات هذه الدراسة، يكون مقصودًا بها الإشارة إلى "حركة الأستاذ كولن"؛ باستثناء وقوعها في اصطلاح "منظمات الحركة الاجتماعية SMO".

(٢) سزريتر ١٩٩٩: ٢-٣؛ كولن في أونال ووليامز ٢٠٠٠: ٣١٨ شتين، ٢٠٠٦: ١-٢١؛ كولن، ٢٠٠٠ب: ٢١؛ ٢٠٠٤أ: ٢١٠-١٤.

(٣) كولمان ١٩٩٤: ٣٠٢؛ ديلا بورتا وديباني، ١٩٩٩: ١٤؛ بوتنام، ٢٠٠٠: ٢٢.

(٤) بيرن: ١٩٩٧: ١٥.

(٥) ديلا بورتا وديباني، ١٩٩٩: ١٧؛ ميلوتشي، ١٩٩٩: ٣٠٨.

(٦) للاطلاع على أحد البحوث التي تدعم هذا الرأي، انظر لوفلاند، ١٩٩٦:

٢٣٤-٦؛ كيتس، ٢٠٠٠: ٢٤١-٢.

[٧] ماك آدم وآخرون، ١٩٨٨: ٧٠٨؛ لوفلاند، ١٩٩٦: ٢٣٤-٦؛ بوتنام، ٢٠٠٠: ٢٨٨-٩٠.

[٨] هانت وبنفورد، ٢٠٠٤: ٤٣٨؛ ديلا بورتا وديماني، ١٩٩٩: ١٤.

[٩] لوفلاند، ١٩٩٦: ١٩٥-٧؛ بوتنام، ٢٠٠٠: ٢٨٨-٩٠.

[١٠] انظر شتين، ٢٠٠٩: ٢،٥. ٣ و٢،٥. ٥.

[١١] كونوك، ١٩٩٩: ١٨؛ بوتنام، ٢٠٠٠: ٢٨٨-٩٠، ١٩٩٥: ٦٧.

[١٢] ميلوتشي، ١٩٩٩: ٧٤؛ وانظر أيضًا شتين، ٢٠٠٩: ٣،٢،٦ حول القبول، وصيرورتك جزءًا من التنوع السياسي والثقافي، والمعاملة بالمثل.

[١٣] ديماني (٢٠٠٤: ٣٤٨-٩) يستخدم "الانتماءات المتداخلة" للتعبير عن هذا المعنى.

[١٤] ديلا بورتا وديماني، ١٩٩٩: ١١٩.

[١٥] ميلوتشي، ١٩٩٩: ١٢٤، ٣٠٨.

[١٦] مقابلة مع أيماز في يناير ٢٠٠٥ في شتين، ٢٠٠٩: ١٨٢.

[١٧] كلانديرمانس، ٢٠٠٤: ٣٦١.

[١٨] للمزيد عن اتصالية الخدمات ومنظمات الحركة الاجتماعية داخل وخارج تركيا، انظر شتين، ٢٠٠٩: ٣،٢،٦، ٣،٢،١١، ٤،١،١.

[١٩] كولن، ٢٠٠٤أ: ٨٢؛ وانظر أيضًا شتين، ٢٠٠٩: ٣،٢،٣، ٣،٢،٤، ٣،٢،٥، ٣،٢،٤، ٤،٢،٤.

[٢٠] انظر أيضًا شتين، ٢٠٠٩: ٤،٢،٤.

[٢١] مكارثي، وزالد، ١٩٨٧أ: ٣٧١، ٣٧٥؛ ديلا بورتا وديماني، ١٩٩٩: ١٤٥، ١٦٢.

[٢٢] مقابلة مع إيرجين في يناير ٢٠٠٥ في شتين، ٢٠٠٩: ١٧٨.

[٢٣] انظر أيضًا شتين، ٢٠٠٩: ٤،٢،٣ حول المأسسة حتى بعد عملية ٢٨ فبراير.

[٢٤] كولن، ٢٠٠٤أ: ٤٢، ٥٠، ٢٣٠.

[٢٥] مقابلة مع أيماز في يناير ٢٠٠٥ في شتين، ٢٠٠٩: ١٧٧.

[٢٦] لوفلاند، ١٩٩٦: ١٩٥.

[٢٧] ستيفنسون، ٢٠٠٧: ١٥٩؛ بينارد، ٢٠٠٣: ٣٨؛ أصلان دوغان وشتين، ٢٠٠٧: ٥٣-٤؛ إيرفين، ٢٠٠٧: ٨٢-٤؛ هندريك، ٢٠٠٧: ١٣، ٢٩-٣١؛ وانظر أيضًا شتين، ٢٠٠٩: ٣،٢،٦، ٣،٢،١١، ٣،٢،٤، ٥،٢،٤.

[٢٨] سنو وماتشاليك، ١٩٨٤: ١٨٠؛ وكيلبورن وريتشاردسون، ١٩٨٨: ٢؛ مقتبس في لوفلاند، ١٩٩٦: ٢٢٢، ٢٢٣.

[٢٩] ماك آدم ورشت، ١٩٩٣: ٥٨.

[٣٠] انظر شتين، ٢٠٠٩: ٤،٢،٣.

[٣١] ميشال، ٢٠٠٣: ٧٠؛ أصلان دوغان وشتين، ٢٠٠٧: ٥٦-٨؛ وانظر أيضًا محمد كاليونجو (٢٠٠٨) الاستجابة المدنية للنزاع العرقي الديني: حركة كولن في جنوب شرق تركيا. لايت: نيو جيرسي.

[٣٢] انظر شتين، ٢٠٠٩: ٣،٢،٦، ٤،٢،٤.

[٣٣] أصلان دوغان وشتين، ٢٠٠٧: ٤٠-٦١؛ هندريك، ٢٠٠٧: ١٣، ٢٨، ٣١؛ شتين: ٢٠٠٩: ١٥٣-٦٢، ٢٠٠٦: ١-٢١.

[٣٤] شتين، ٢٠٠٩: ١٨٤-١٨٥.

[٣٥] مقابلة مع أيماز في يناير ٢٠٠٥ في شتين، ٢٠٠٩: ١٨٥.

[٣٦] المرجع نفسه، ١٨٥.

[٣٧] أصلان دوغان وشتين، ٢٠٠٧: ٥٩. وانظر أيضًا شتين، ٢٠٠٩: ١١٤-٢٤ حول الطبيعة غير المثيرة للجدل وغير المتناقضة للحركة.

[٣٨] ويليامز، ٢٠٠٤: ١٠٢.

[٣٩] كيرك، ٢٠٠٨: ٤٠٧-٣٤؛ كاليونجو، ٢٠٠٨: ٣٥٠-٧٣.

[٤٠] كولن، ١٩٩٨ب: ٤؛ أونال ووليامز، ٢٠٠٢: ٢٢-٣؛ ودهال وشتين، ٢٠٠٥: كولن، ٢٠٠٤أ: ١١٩.

[٤١] كيرك، ٢٠٠٨: ٤٠٧-٨؛ ٤١٩، ٤٢٣-٢٥.

[٤٢] آتش وآخرون، ٢٠٠٥.

[٤٣] شتين، ٢٠٠٩: ٢٢٧.

[٤٤] انظر أيضًا شتين، ٢٠٠٩: ٨٩-٩٥، ١٠٣-٠٤.

[٤٥] تشير عملية ٢٨ فبراير إلى سلسلة التدابير والأحداث التي أعقبت الانقلاب الناعم الذي جرى في عام ١٩٩٧. للمزيد، انظر أوزيل، ٢٠٠٣: ٨٧.

[٤٦] بيراند، ٢٠٠٠؛ موريس ٢٠٠٠.

[٤٧] ديلا بورتا وديماني، ١٩٩٩: ٢٤٦.

[٤٨] ويتير، ٢٠٠٤: ٥٤٧.

[٤٩] ميرفي، ٢٠٠٥: ب ١.

[٥٠] بروكماير، ٢٠٠٧: ٣٤٧-٦١.

[٥١] كوروستيلينا، ٢٠٠٨: ٤٥٦-٦٠، ٤٦٦-٧١.

[٥٢] إيرفين، ٢٠٠٦: ٥٧-٩، ٦٦-٧، ٧٣.

[٥٣] كراوس، ٢٠٠٧: ١٧٤-٧٥.

[٥٤] إيرفين، ٢٠٠٧: ٥٩، ٦٧-٧٢؛ تيكالان، ٢٠٠٥: ٣؛ أصلان دوغان وشتين، ٢٠٠٧: ٥٩؛ ميشيل، ٢٠٠٥ب: ٣٥١.

[٥٥] للمزيد، انظر www.gyv.org.tr

[٥٦] إيرفين، ٢٠٠٧: ٦٦-٦٧.

[٥٧] تورام، ٢٠٠٧: ١١٨؛ راوش: ٢٠٠٨: ٦١٠-٣٤.

[٥٨] ميلوتشي، ١٩٩٩: ٢١٩-٢١.

[٥٩] أوزدالجا، ٢٠٠٥: ٤٤٣.

[٦٠] ميشيل، ٢٠٠٥ب: ٣٥٤.

[٦١] كولن، ٢٠٠٥أ: ٤٣-٨.

المراجع

[٣١] أصلان دوغان، ي. أ.، شتين، م. (٢٠٠٧) "نموذج كولن التربوي في الفكر والممارسة". في: هانت، ر. أ. وأصلان دوغان، ي. أ. (٢٠٠٧)، ٣٥-٦١.

[٣١] آتش، ت، أورتايلي، إ، كاراكاش، إ. (٢٠٠٥) "جسور السلام: مدارس تركية منفتحة على العالم بأكمله". إسطنبول: أفق كيتابلاري.

[٣١] بينارد، ش. (٢٠٠٣) "الإسلام الديمقراطي المدني، الشركاء والموارد والاستراتيجيات". فيرجينيا: مؤسسة راند، ص ٨٨.متاح على:

www.rand.org/content/dam/rand/pubs/monograph_reports/2005/MR1716.pdf

[٣١] بيراند، م. أ. (٢٠٠٠) "ألم يكن من المفترض بكولن أن يكون مُخلِّصًا؟" عمود رأي. تيركش ديلي نيوز، ٢ سبتمبر.

[٣١] بروكماير، ب. (٢٠٠٧) "مدرسة فتح الله كولن في بنوم بنه كبديل متاح للأقلية المسلمة في كمبوديا عوضًا عن النماذج التعليمية السائدة"، في العالم الإسلامي في مرحلة التحول: إسهامات حركة كولن، تحرير إ. يلماز وآخرون، لندن: مطبعة جامعة ليدز ميتروبوليتان، ٢٠٠٧. ص ٣٤٧-٦١.

[٣١] بيرن، ب. (١٩٩٧) "الحركات الاجتماعية في بريطانيا". لندن: روتليدج.

[٣١] شتين، م. (٢٠٠٦) "العمل الإيثاري التطوعي: تحديه الرمزي للمتبطلين من أصحاب المصالح". قُدمت هذه الدراسة في ثاني انعقادات المؤتمر السنوي عن الإسلام في العالم المعاصر: حركة فتح الله كولن في الفكر والممارسة، والذي نظمه قسم الدراسات الدينية بجامعة أوكلاهوما، نورمان، أوكلاهوما، ومعهد الحوار بين الأديان، تكساس، وكلية بيتري للفنون والعلوم بجامعة أوكلاهوما سيتي، ٣-٥ نوفمبر، ٢٠٠٦، في جامعة أوكلاهوما، نورمان، أوكلاهوما. الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٢١.

[٣١] شتين، م. (٢٠٠٩) "حركة كولن: خدمة مدنية بلا حدود". بلو دوم، نيويورك.

[٣١] ديلا بورتا، د.، دياني، م. (١٩٩٩) "الحركات الاجتماعية: مقدمة". أكسفورد، بلاكويل.

[٣١] دياني، م. (٢٠٠٤) "الشبكات والمشاركة". في: سنو، د. أ.، سولي، س. أ. وكريسي، هـ. محررون (٢٠٠٤)، ٣٣٩-٥٩.

[٣١] كولن، ف. (١٩٩٨) "الموازين أو أضواء على الطريق". إزمير، تركيا: كاياناك.

[٣١] كولن، ف. (٢٠٠٠) "الموازين أو أضواء على الطريق". لندن، المملكة المتحدة، تروستار.

[٣١] كولن، ف. (٢٠٠٤) "نحو حضارة عالمية من المحبة والتسامح". سومرست، نيو جيرسي، شركة ذا لايت.

[٣١] كولن، ف. (٢٠٠٥) "ونحن نقيم صرح الروح". سومرست، نيو جيرسي، شركة ذا لايت.

[٣١] هندريك، ج. د. (٢٠٠٧) "الإمكانات المنظَّمة للإسلام الحركي": أطروحة مضادة في النشاط الإسلامي العالمي. في: هانت، أ. ر. وأصلان دوغان، ي. أ. محرران (٢٠٠٧)، ١١-٣٣.

[٣١] هانت، ر. أ.، أصلان دوغان، ي. أ. محرران (٢٠٠٧) "المواطنون المسلمون في العالم المعولم: إسهامات حركة كولن". سومرست، نيو جيرسي، مطبعةآي آي دي وشركة ذا لايت.

[٣١] هانت، س. أ.، بنفورد، ر. د. (٢٠٠٤) "الهوية الجمعية والتضامن والالتزام" في: سنو، د. أ.، سولي، س. أ.، كريسي،هـ. محررون (٢٠٠٤)، ٤٣٣-٥٨.

[٣١] إيرفين، ج. (٢٠٠٦) "حركة كولن والاندماج التركي في ألمانيا". قُدمت هذه الدراسة في ثاني انعقادات المؤتمر السنوي عن الإسلام في العالم المعاصر: حركة فتح الله كولن في الفكر والممارسة، والذي نظمه قسم الدراسات الدينية بجامعة أوكلاهوما، نورمان، أوكلاهوما، ومعهد الحوار بين الأديان، تكساس، وكلية بيتري للفنون والعلوم بجامعة أوكلاهوما سيتي، ٣-٥ نوفمبر، ٢٠٠٦، في جامعة أوكلاهوما، نورمان، أوكلاهوما. الولايات المتحدة الأمريكية، ص٥١-٦٩.

[٣١] إيرفين، ج. (٢٠٠٧) "حركة كولن والاندماج التركي في ألمانيا". في: هانت، ر. أ. وأصلان دوغان، ي. أ. محرران المواطنون المسلمون في العالم المعولم: إسهامات حركة كولن، ٦٢-٨٤.

[٣١] كاليونجو، م. (٢٠٠٨) "مدارس شرق أفريقيا المستوحاة من فكر فتح الله كولن: البديل العلماني في كينيا والنهج البراجماتي للتنمية في أوغندا". مَحاضر جلسات مؤتمر: الإسلام في عصر التحديات العالمية، ١٤-١٥ نوفمبر، ٢٠٠٨، جامعة جورج تاون، واشنطن العاصمة، ص ٣٥٠-٧٣.

[٣١] كاليونجو، م. (٢٠٠٨) "الاستجابة المدنية للنزاع العرقي الديني: حركة كولن في جنوب شرق تركيا"، نيو جيرسي: لايت.

[٣١] كيلبورن، ب. ك.، ريتشاردسون، ج. ت. (١٩٨٨) "صراع النماذج الفكرية وأنماط التحويل ونظرياته. تحليل سوسيولوجي"، ٥٠(١)، ١-٢١.

[٣١] كيرك، م. أ. (٢٠٠٨) "بذور السلام: إسهامات حركة كولن في التضامن والإغاثة والتعليم في جنوب شرق تركيا"، مَحاضر جلسات مؤتمر: الإسلام في عصر التحديات العالمية، ١٤-١٥ نوفمبر، ٢٠٠٨، جامعة جورجتاون، واشنطن العاصمة، ص٤٠٧-٣٤

[٣١] كيتس، ج. أ. (٢٠٠٠) "الحشد في صناديق سوداء: الشبكات الاجتماعية والمشاركة في منظمات الحركة الاجتماعية"، مجلة موبيلايزيشن الدولية، ٢٠٠٠، ٥(٢): ٢٤١-٢٥٧.

[٣١] كلاند يرمانس، ب. (٢٠٠٤) "المشاركة وقانون العرض والطلب: الارتباطات الاجتماعية والنفسية للمشاركة في الحركات الاجتماعية". في: سنو، د. أ.، سولي س. أ. وكريسي، هـ. محررون (٢٠٠٤)، ٣٦٠-٧٩.

[٣١] كنوك، د. (١٩٩٩) "الشبكات التنظيمية ورأس المال الاجتماعي المشترك". ص ١٧-٤٢ في رأس المال الاجتماعي المشترك والمسؤولية، تحرير س. م. جاباي. بوسطن: كلوير.

[٣١] كوروستيلينا، ك. (٢٠٠٨) "إعادة تعريف"نحن" و"هم": منهجية كولن في تغيير التصورات بين المسلمين وغير المسلمين"، مَحاضر جلسات مؤتمر: الإسلام في عصر التحديات العالمية، ١٤-١٥ نوفمبر، ٢٠٠٨،جامعة جورج تاون واشنطن العاصمة،ص٤٥٥-٧٣.

[٣١] كراوس، و. (٢٠٠٧) "الدماثة في النشاط الإسلامي: نحو فهم أفضل للقيم المشتركة من أجل تنمية المجتمع المدني"، في العالم الإسلامي في مرحلة التحول: إسهامات حركة كولن، تحرير إ. يلماز وآخرون، لندن: مطبعة جامعة ليدز ميتروبوليتان، ٢٠٠٧. ص١٦٣-٧٥.

[٣١] لوفلاند، ج. (١٩٩٦) "منظمات الحركة الاجتماعية: دليل لدراسة الحقائق الثورية". نيويورك: ألدين دي جرويتر.

ماك آدم، د.، رشت، د. (١٩٩٣) انتشار أفكار الحركات عبر الحدود الوطنية. حوليات الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية ٥٢٨، ٥٦-٧٤.

[٣١] ماك آدم، د.، مكارثي، ج. د.، زالد، م. ن. (١٩٨٨)، "الحركات الاجتماعية" في: سميلسير، ن. ج. محرر (١٩٨٨)، ٦٩٥-٧٣٩.

[٣١] مكارثي، ج. د.، زالد، م. ن. (١٩٨٧) اتجاه الحركات الاجتماعية في أمريكا: الاحتراف وتعبئة الموارد. في: مكارثي، ج. د.، زالد، م. ن. محرران ([١٩٨٧] ٢٠٠٣)، ٣٣٧-٩١. [المقال نُشر في الأصل بواسطة مطبعة جينيرال ليرنينج، ١٩٧٣].

[٣١] ميلوتشي، أ. (١٩٩٩) "رموز التحدي: العمل الجماعي في عصر المعلومات". كامبريدج، مطبعة جامعة كامبريدج. (أعيد طبعه في عام ١٩٩٩؛ الطبعة الأولى ١٩٩٦).

[٣١] ميشيل، ت. (٢٠٠٣) "فتح الله كولن بوصفه مربيًا"، في: يافوز، هـ. وإسبوزيتو، ج. (٢٠٠٣) ٦٩-٨٤.

[٣١] ميشيل، ت. (٢٠٠٥) "التصوف والحداثة في فكر فتح الله كولن. العالم الإسلامي"، عدد خاص، الإسلام في تركيا المعاصرة: إسهامات كولن، ٩٥(٣)، ٣٤١-٥٨.

[٣١] موريس، ك.(٢٠٠٠) "تركيا تتهم إسلاميًّا شهيرًا بالتآمر ضد الدولة". الجارديان، ١ سبتمبر. متاح على

http://www.theguardian.com/world/2000/sep/01/1

[٣١] ميرفي، ك. (٢٠٠٥) "رمضان صوفي معاصر". واشنطن بوست، ٤ أكتوبر، ب٠١. متاح على http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2005/10/03/AR2005100301661.html

[٣١] أوزدالجا، إ. (٢٠٠٥) "مُخلِّص أم دخيل؟ دور جماعة كولن في عملية التمدين. العالم الإسلامي"، عدد خاص، الإسلام في تركيا المعاصرة: إسهامات كولن، (٩٥)٣. دار بلاكويل للنشر، ٤٢٩-٧٦.

[٣١] أوزيل، س. (٢٠٠٣) "ما بعد موجات تسونامي". جورنال أوف ديموكراسي١٤(٢)، ٨٠-٩٤.

[٣١] بوتنام، ر. د. (١٩٩٥) "أن تلعب البولينج وحدك: تراجع رأس المال الاجتماعي الأمريكي". جورنال أوف ديموكراسي ٦: ٦٥-٧٨.

[٣١] بوتنام، ر. د. (٢٠٠٠) "أن تلعب البولينج وحدك. انهيار وانبعاث المجتمع الأمريكي". نيويورك، سيمون وشوستر.

[٣١] راوش، م. ج. (٢٠٠٨) "التقدم من خلال التقوى: التجمعات الروحية للنساء المشاركات في حركة كولن"، مَحاضر جلسات مؤتمر: الإسلام في عصر التحديات العالمية، ١٤-١٥ نوفمبر، ٢٠٠٨، جامعة جورجتاون، واشنطن العاصمة، ص٤٥٥-٧٣.

[٣١] سنو، د.، ماتشاليك، ر. (١٩٨٤) "سوسيولوجيا التحويل. التقرير السنوي لعلم الاجتماع، ١٠، ١٦٧-٩٠.

[٣١] سنو، د. أ.، سولي، س. أ.، كريسي، هـ. محررون (٢٠٠٤) "دليل بلاكويل للحركات الاجتماعية". مالدن، ماساتشوستس، بلاكويل.

[٣١] ستيفنسون، آ. ج. (٢٠٠٧) "أن تترك بصمتك على هيوستن: بعض النساء في حركة كولن". في: هانت، ر. أ. وأصلان دوغان، ي. أ. (٢٠٠٧)، ١٤٥-٦٠.

[٣١] سزريتر، س. (١٩٩٩) "رأس المال الاجتماعي والاقتصاد والطريق الثالث". (مسودة) متاح على

http://www.netnexus.org/debates/3wayecon/library/docs/soccap.doc

[٣١] تيكالان، س. (٢٠٠٥) "حركة من المتطوعين". قُدمت هذه الدراسة في مؤتمر الإسلام في العالم المعاصر: حركة فتح الله كولن في الفكر والممارسة، والذي نظمه مركز بونيوك لدراسة وتعزيز التسامح الديني التابع لجامعة رايس، هيوستن، ومركز أ. د. بروس الديني التابع لجامعة هيوستن، ومعهد الحوار بين الأديان، تكساس، والمنعقد بجامعة رايس، هيوستن، تكساس، ١٢-١٣ نوفمبر، ٢٠٠٥، ص ٩.

[٣١] تورام، ب. (٢٠٠٧) بين الإسلام والدولة: سياسة المشاركة، ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد.

أونال، أ.، ويليامز، أ. (٢٠٠٠) فتح الله كولن: نصير الحوار. فيرفاكس، فيرجينيا، ذا فاونتن.

[٣١] ويتير، ن. (٢٠٠٤) "آثار الحركات الاجتماعية بعضها على بعض" في :سنو،د. أ.،سولي،س. أ.،كريسي،هـ. محررون (٢٠٠٤)، ٥٣١-٥٢.

[٣١] ويليامز، ر. هـ. (٢٠٠٤) "السياقات الثقافية للعمل الجماعي: القيود والفرص والحياة الرمزية للحركات الاجتماعية". في: سنو،د. أ.،سولي،س. أ.،كريسي،هـ. محررون (٢٠٠٤)،٩١-١١٥.

[٣١] ودهال، ر.، شتين، م. (٢٠٠٥) "مقدمة. في: كولن"، م. ف. (٢٠٠٥) "ونحن نقيم صرح الروح". سومرست، نيو جيرسي، شركة ذا لايت، xiii–xviii.

[٣١] يافوز، م. هـ.، إسبوزيتو، ج. ل. محرران (٢٠٠٣) "الإسلام التركي والدولة العلمانية: حركة كولن". سيراكيوز، مطبعة جامعة سيراكيوز.

الرحلة الثرية للحاق بالمقامات السنية
بلابل الخدمة (٢)

محمد جكيب

أ.د. محمد جكيب، أستاذ بجامعة شعيب الدكالي بالمغرب، حصل على دكتوراه الدولة في الآداب سنة ٢٠٠٢م. عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ سنة ١٩٩٤م. عضو مؤسس لمنتدى الحوار الأدبي.
مؤلف كتاب "أشواق النهضة والانبعاث.. قراءة في مشروع الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحي".
شارك في عديد من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية داخل المغرب وخارجه.

"وِجدان "فتح الله" العالي الحساسية التقط نداء الاستغاثة، فوجَّه بعض محبيه إلى أمريكا منذ ثمانينيات القرن الماضي. لا أحد يجزم بأن هذه المجموعة السبَّاقة كانت واعية بأمر المهمة التي تحمَّلوا مسؤوليتها، لكن الأكيد في قصصهم هو أن "فتح الله" كان يرى في الأفق حاجة هذا البلد. ولو سألتهم: هل يَعُون عمق المسؤولية التي حُمِّلُوها؟ لأجابوا بالنفي، ولأخبروك بأن الأمر لم يكن إلا مجرد تلبية لتوجيه مرشدهم.

قصة هذه الهجرة قصة تناغم بين أستاذٍ وتلاميذه، وقصة فكرة وُلِدَتْ في الطرف الآخر البعيد عن أمريكا مسيرة شهور، لكن قدرها هو تصديق بُشرَى قديمة بأن نور شمس سيبزغ من الغرب ليغسل أدران هذا الزمن المسكين".

هذا هو الجزء الثاني من رحلة الكاتب إلى أمريكا، يتحدث فيه عن أبناء الخدمة الذين يسهمون في البناء الحضاري في هذه الربوع من العالم، وقد أطلق عليهم "بلابل الخدمة"، وقال عنهم: تقرأ في عيونهم محبة جمَّة لما يقومون به، ومحبة جمَّة لهجرتهم.

الأمل وآفاقه في عالم الخدمة

لا تكون الخدمة خدمة إلا عندما تضع مقدراتها المعنوية كلها في يد المجتمع، ولا تستحق الخدمة هذه الصفة وهذا الوسام إلا عندما تجعل سعادة المجتمع ورقيِّه حيثما كانت غايتَها الساميةَ وهدفَها المركزي. فلا مبالغة إذا قيل بأنها صارت عملة ذهبية متداولة في كل جهات العالم، عملة تقوم على احتضان كل من هم في حاجة إلى الاحتضان، بل احتضان الجميع بحب ورحمة ومودة، والعناية بكل من يحتاجون إلى العناية بصدر رحب يضم الجميع، تزرع الأمل في قلب الإنسان وتحوله من طاقة مهدورة إلى طاقة إيجابية فعالة. الخدمة لا تكون خدمة إلا عندما تطلع الإنسان على رحابة أفقه واتساعه بربط وجوده برحابة الوجود واتساعه. الخدمة لا تكون خدمة إلا عندما تعرِّف الإنسان على حقيقة كونه إنسانًا.

الخدمة لا تكون خدمة إلا عندما تغرس الأمل في قلب من أُطفِئتْ شعلة هذه الطاقة في دواخلهم واختفى لهيبها في حياتهم. الخدمة لا تكون خدمة إلا عندما تمحو اليأس من قلبِ مَن صار اليأس قوت وجدانه وروحه، حتى أصبح من شدة خوفه على مصيره، منزويًا على هامش المجتمع، لا يشارك في حيويته وحركيته لا بالقليل ولا بالكثير، لأنه ظل حياته كلها لا يسمع إلا ما يشعره بتفاهة وجوده، وكونه عنصرًا يعرقل حركة مجتمعه ويعيق سيره. لكن الخدمة تدرك بأن قدرها هو احتضان الجميع وخاصة هؤلاء المساكين، ووظيفتها هي مسح دموع من يبكي ألمًا على حاله.

الهمُّ الأول لدى بلابل الخدمة، هو تغيير الصورة السلبية التي تشكلت لدى شرائح واسعة من أبناء المجتمع الأمريكي، والتي تظن أن الإسلام دين عنف والمسلمين عدوانيين وإرهابيين.

nesemat.com نسمات nesemat.com

قدر الخدمة في أمريكا زرع الأمل

لم تُضيِّع الخدمة الوقت في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تعمل على الاستفادة من الفرص التي يتيحها الواقع الأمريكي. المبادرة والأفكار الفعالة والمبتكرة مكِّون إيجابي يبحث عنه هذا المجتمع العصري والحداثي. وتيرة الحياة المتسارعة وطبيعتها المركبة والمتشابكة لا تترك للإنسان الوقت ليقف وقفة للتأمل، ولا تتيح له فرصة للتفكر في حاله، بله أن يتفكر في أحوال غيره. لكن بلابل الخدمة، التي تطير بألوانها الزاهية في كل مكان من أجل أحوال الآخرين بل وتنسى حالها، قَدَرُها هو زرع الأمل. قال دليلنا: "يكبر الأولاد ولا نشعر بذلك من كثرة التزامنا بالتزامات الخدمة وشؤونها".

سبحان الله، عجيب أمر "بلابل الخدمة"، تراهم يُدخلون الفرحة إلى قلوب شرائح واسعة ممن هم في حاجة إلى الابتسامة، وإلى ما يبث فيهم الأمل، ويشعرهم بإنسانيتهم، وينسون شؤونهم الخاصة. لقد فوضوا أمرهم طواعيةً لله تعالى، فلذلك تولى عنهم سبحانه هذه المهمة، يرعون أسرتهم الكبيرة المتمثلة في المجتمع بتوفيق من الله، ويرعى الله شؤون أسرتهم الصغيرة. تحفهم البركة أينما حلوا وارتحلوا. هذا ما يلمسه من يرافق هذه البلابل. لقد بارك الله عملهم عندما أخلصوا لله المهمة التي اختاروها عن اقتناع، يُذَكِّرك مسلكهم بخطاب ذلك المعتكف الصابر

المحتسب الزاهد في الدنيا، الذي ظل طيلة حياته يحفر في القلب مدلول أن يكون العمل خالصًا لله، مجردًا عن كل غاية مادية أو دنيوية.

قد يُظَنُّ بأن بلابل الخدمة هؤلاء يستهدفون المسلمين فحسب، كَلَّا، بل إن المجتمع كله بكل أطيافه وفئاته هدفٌ لبلابل الخدمة. لا فرق عندهم بين أبيض وأسود، ولا فرق بين مسلم وغير مسلم، ولا بين تركي أو عربي. العملة المتداولة هي الإنسان، وإنسانية الإنسان، الإنسان فحسب، الإنسان باعتباره مخلوقًا من مخلوقاته تعالى، والشعار توقير الخلق من أجل الخالق.

الأبعاد المتجددة للخدمة في أمريكا

انتابني شعور غريب، بأن ما عرفتُه عن الخدمة وما قرأتُه من فكر الأستاذ، له طعم آخر في هذه الرقعة من العالم؛ هنا تلمس كيف يتكيف عمق الدين والخطاب الوسطي النابع من عين القرآن الصافية مع كل الفضاءات، وكيف يسري مسرى الدم من الجسد، وكيف يترك متركًا جميلاً أينما هبت نسائمه وفاح أريجه. هنا يلمس المرء طعمًا آخر للخطاب القرآني، ويلمس حقيقة ما كان الصحابة الكرام يحملونه معهم أينما حلوا وارتحلوا، وتفهم سر استمرار غرس تلك البذرة التي غُرست منذ أربعة عشر قرنًا خلت وإلى ما شاء الله. وهنا تفهم كذلك سر إلحاح "فتح الله" الدائم على اتخاذ الصحابة قدوة، وتدرك دلالة أن يقول الأستاذ لتلامذته وأحبته: "كونوا مثل هؤلاء -يقصد الصحابة رضوان الله عليهم- أو موتوا". فلا شك أنه يقصد أن يتخذ الإنسانُ الحياةَ المعنوية، والأفق الذي تربع عليه الصحابة الكرام نبراسًا ينير الطريق. لقد ضحوا بالغالي والنفيس، وتركوا الأوطان وشدوا الآفاق من أجل احتضان الإنسانية، وإنقاذها من التيه، وأخذها إلى طريق النجاة. والحق يقال "فطيور الخدمة" هؤلاء، يعملون من خلال هذا الأفق ومن خلال إدراك

هذه الحقيقة. هكذا ينبض وجدان مَن يصاحبهم ولو لمدة قصيرة. همستُ لصاحبي كأني بهذه الطيور التي تطير في هذه الأجواء جاءت لتلبي نداء استغاثة.

في أمريكا تشعر فعلاً أن لخطاب "فتح الله كولن" بعدًا آخر، وتلمس كيف تكون القيم فوق الزمان والمكان. الذين هاجروا إلى أمريكا قبل عقدين من الزمن أو أكثر، حالهم كحال من لبَّى نداء قديمًا قادمًا من هذه الأرض منذ وقت بعيد جدًّا، ظل يتجول في الآفاق يبحث عمَّن يلتقطه، وربما التقطه "فتح الله كولن"، ونقل شفرته منذ عقدين إلى الرعيل الأول الذي هاجر إلى أمريكا.

وجدان "فتح الله" العالي الحساسية التقط نداء الاستغاثة، فوجه بعض محبيه إلى أمريكا منذ ثمانينيات القرن الماضي. لا أحد يستطيع أن يؤكد بأن هذه المجموعة السبَّاقة كانت واعية بأمر المهمة التي حمَّلهم الأستاذ مسؤوليتها، لكن الأكيد في قصص كل واحد من هؤلاء، هو أن "فتح الله" كان يرى في الأفق حاجة هذا البلد. ولو سألت هؤلاء عمَّا إن كانوا يعون عمق المسؤولية التي حملوها، لكان جوابهم بالنفي، ولأخبر السائل بأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تلبية لتوجيه مرشدهم.

قصة هذه الهجرة قصة تناغم بين أستاذٍ وتلاميذه، وقصة فكرة وُلِدَتْ في الطرف الآخر البعيد عن أمريكا مسيرة شهور، لكن قدرها هو تصديق بُشرَى قديمة بأن نور شمس سيبزغ من الغرب ليغسل أدران هذا الزمن المسكين. قد يكون هؤلاء الذين هاجروا واستقروا تلبية لنداء هذا الهاتف، الذي يرمز إلى أن شمس الإيمان ستشرق من الغرب وفي الغرب، ولعل جهد هذه البلابل هو تمهيد الطريق لتحقق البشرى. الذين يسهمون في البناء الحضاري في هذه الربوع، تقرأ في عيونهم محبة جمة لما يقومون به، ومحبة جمة لهجرتهم.

nesemat.com نسمات nesemat.com

لا شيء مما أوجدته الحياة المعاصرة والحداثة في أمريكا يستطيع الإجابة عن أسئلة الروح والوجدان والمصير، وأظن أن ما عند بلابل الخدمة من قيم وما يعتلج في أرواحهم، كفيل بالإجابة عن مثل هذه الأسئلة.

الرجال الأوائل الذين هاجروا إلى أمريكا لا يعرفون المستحيل، هذا ما أخبرني به أحد العارفين بشؤون الخدمة في هذه الزاوية من الكرة الأرضية. المال بالنسبة لهم مسألة ثانوية، ولذلك فقد حرصوا على أن تكون ثروتهم الحقيقية، هي الصدق والإخلاص والإيمان بمشروعية الفكرة التي حملتهم إلى هذا البلد. السيد سعيد رجل من الأوائل الذين وجههم الأستاذ إلى أمريكا، همَّة عالية جدًّا، وطاقة الشحن لديه هائلة لا تكاد تتوقف، لذلك فهو لا يعرف المستحيل.

تساءلتُ دائمًا، ما سر اهتمام الأمريكيين بالخدمة؟ وما سر اهتمامهم بالأستاذ؟ عدد مهم من المثقفين والمفكرين والعلماء والأكاديميين درسوا الخدمة وتوقفوا عند شخصية الأستاذ فتح الله كولن. لم يكن ما كتبه هؤلاء نابعًا من فراغ، فما كانوا ليكتبوا عن الخدمة لو لم يكن إشراقها موجودًا في هذا الربع من العالم برجاله وخدمته ومؤسساته. هذا ما ارتسم في وجداني وأنا أكتشف عالم الخدمة في الولايات المتحدة الأمريكية.

قد ينتابك شعور بضآلة نفسك، لأن ادعاء خدمة المجتمع الإنساني، وادعاء قدرة المرء تقديم خدمة ما للمجتمع، باستحضار الإيقاع الذي يحرك بلابل الخدمة في أمريكا وفي أي مكان آخر من العالم، عملاً مستمرًّا

دون توقف، ويعني ترك الأوطان، ويعني أن يهمل المرء خاصة أمره، وأشياء أخرى.

الوظيفة التي يشترك فيها أغلبهم هي التدريس، لكنهم يُشرفون جميعًا على التربية والإرشاد، ويتحركون داخل المجتمع المدني بحيوية ونشاط. تقرأ في عيون بلابل الخدمة هؤلاء، استعدادًا مطلقًا للعمل والحركية. الهجرة قدرهم الذي حملهم إلى هذه الربوع، وقدرهم الذي يحملونه بين جوانحهم، ويسري في عروقهم مسرى الدم من الجسد. يخبرك أحدهم بابتسامة عريضة أن حقيبة سفره جاهزة لأمر مفاجئ بالهجرة إلى أي ربوع أخرى من ربوع العالم.

يعسر على من لم يستنشق نسائم الخدمة تقبُّل فكرة أن يترك الواحد العالم الأمريكي إلى أي مكان آخر في العالم. لكن بلابل الخدمة هؤلاء عالمهم هو الخدمة، ولذلك فإن الهجرة هي قدرهم الذي يسكنهم ويسكنون إليه، بل يسكنون فيه. لا يملكون من متاع الدنيا إلا ما يستر أجسادهم والحقائب التي تحملها. لا وجود في ثقافتهم لمنطق الامتلاك، لا يملكون بيوتهم، لأنهم يدركون أن وجودهم في المكان وجود مؤقت، ويدركون بأن قدرهم يستحيل أن يكون مربوطًا بمكان محدد إلى الأبد، ويدركون أن قدرهم هو التحليق فوق العالم يترصدون عوالم أخرى تحتاج إلى تضحيتهم. لو سألتَهم هل تجدون في أعماقكم استعدادًا للذهاب إلى القمر، لوجدتَ الجواب يَسبق بالإيجاب، وكيف لا وفي خطاب أستاذهم ما يؤكد بأن الروح التي تحرك خدمتهم توجد فوق الزمان والمكان. وينبغي من خلال الوعي بها أن تعم الوجود كله، إحساس تقديم خدمة منزهة عن التطلعات الذاتية وعن شعور التملك يسبغ على ما ينجز من خدمات طابع الاستقلال عن الذوات أفرادًا وجماعات.

الروابط المادية لا تشد بلابل الخدمة حتى وإن كانت في بلد شاسع وواسع مثل الولايات المتحدة الأمريكية، تشعرك ابتسامتهم وحماسهم ونشاطهم الذي لا ينقطع أن لا أهمية للفضاء الذي يؤدون فيه وظيفتهم؛ فالأماكن مجرد أسماء وألقاب، لأنهم يتحركون في الفضاء الواسع، وطنهم هو الوجود. وأما الحدود وأسماء الأماكن فمجرد أشكال، وطنهم هو كل مكان يحتاج إلى أن تُمسح دموعه ويُواسَى الحزانى فيه.

الخدمة تروي عطش الأرواح

عندما يلتقي المرء بلابل الخدمة في أمريكا، ينتابه إحساس بأن هِمَمَهم لا تعرف للاستراحة معنى، ليس

هناك وقت ضائع، بل إن كثرة ما يحتاجه هذا المجتمع الحديث، لا يترك لهم مساحة للتوقف. المجتمع الأمريكي خليط من مجتمعات عدة، وثقافات متنوعة. كل من هاجر إلى هذا العالم، ولو قبل عقود طويلة، حمل معه ثقافة بلده الأصل. ورغم طبيعة الحياة المعاصرة في هذا البلد لم تنمح آثار هذه الثقافات رغم التشوه الذي لحقها. رغم كل هذا تلمس أن بلابل الخدمة على وعي به، ولذلك لم يغب عنّا ملاحظة أن حركيتهم تأخذ بعين الاعتبار هذه الحال وتتحرك في ضوئها، من أسلوب مرن يقبل التكيف حسب السياق الثقافي الذي يحرك كل فئة اجتماعية على حدة.

أكثر ما يحتاج إليه هذا المجتمع هو الغذاء الروحي، إنسانه في حاجة مستمرة إلى ما يشبع نهمه المعنوي. قال أحد الإخوة: "المجتمع الأمريكي يصدق كل شيء ومن السهل عليه تصديق شخص اخترع ديانة أو فكرة ذات أبعاد معنوية ليتبع ما يُدعى إليه". الأرضية خصبة لاستقبال لغة الروح والمعنى، ولغة المحبة، ولغة الصدق والإخلاص، ولعل هذا هو سر المكانة التي شيدتها فكرة الخدمة في هذا المجتمع، فصدق المشاعر التي يقبل بها بلابل الخدمة على هذا المجتمع، تفتح القلوب وتسعدها، ولعل هذا هو سر نجاحهم.

المجتمع الأمريكي مجتمع حديث مزيج من ثقافات عديدة، ويصعب الحديث عن انسجام ثقافي بين كل مكوناته، كما يصعب الحديث عن نموذج ثقافي خاص بالولايات المتحدة الأمريكية، المبادرة الاقتصادية والصناعية واستغلال نتاج العلم الطبيعي هو الثقافة التي توحد الجميع. هناك من يتحدث عن فراغ معنوي كبير يفتقر إليه هذا المجتمع، الواقع

nesemat.com نسمات nesemat.com

عجيب أمر "بلابل الخدمة"، تراهم يُدخلون الفرحة إلى قلوب شرائح واسعة ممن هم في حاجة إلى الابتسامة، وإلى ما يبث فيهم الأمل ويشعرهم بإنسانيتهم، وينسون شؤونهم الخاصة.

المادي والاقتصادي والصناعي والعلمي يكاد يشبع الجانب المادي في الإنسان، لكن لا شيء مما أوجدته الحياة المعاصرة والحداثة في أمريكا يستطيع الإجابة عن أسئلة الروح والوجدان والمصير، وأظن بأن ما عند بلابل الخدمة من قيم وما يعتلج في أرواحهم، كفيل بالإجابة عن مثل هذه الأسئلة، ولذلك يستحق هؤلاء وصف حملة الأجوبة لأسئلة العالم الأمريكي الوجودية.

ليس همُّ بلابل الخدمة هؤلاء نشرَ الإسلام، ولا دعوة الناس إلى الإيمان؛ كل من تلتقيهم لن تجد لديهم هذا الشعور، همُّهم الأول هو تغيير تلك الصورة السلبية التي تشكلت لدى شرائح واسعة من أبناء المجتمع الأمريكي، والتي تظن بأن الإسلام دين عنف والمسلمين عدوانيين وإرهابيين.

كل بلبل من هذه البلابل حريص على الظهور بصورة إيجابية تدفع أغلب الأمريكيين إلى تغيير الصورة السلبية العالقة في لا وعيهم، والمرسومة على جبين كل مسلم حسب اعتقادهم، والجائزة الكبرى كما يطلب منهم أستاذهم هي أن يقول المجتمع: المسلمون طيبون.

كل شيء هنا بالحجم الكبير، الحياة اليومية هي الأخرى تحتاج إلى جهد أكبر، وإلى عمل متواصل، وإلى مال كثير. وضعٌ لا يتيح للإنسان فرصة يتوقف فيها لكي يتدبر مصيره وغاية حياته، الهم الأول هو توفير لقمة

العيش. الجميع يدرك بأن التوقف عن العملِ والركضِ خلف لقمة العيش يؤدي إلى العجز والفشل.الحياة ينبغي ألاّ تتوقف، لأن طبيعتها المعاصرة في أمريكا وُجدت لكي لا تتوقف، كآلة كلما دارت انضبط توازنها وتعاظم عطاؤها. لا أحد يفكر في أحد، ولا أحد يحزن لحزن جاره، ليس لأنه لا يريد بل لأن وتيرة الحياة لا تتيح ذلك، لكن هذا الإنسان المسكين نفسه يشعر بالسعادة إذا وجد من يفكر فيه ومن يطرق بابه ويسأل عنه، ومن يحتضن أبناءه ويحتضنه، عندما يشعر بالغربة، وعندما يشعر بالحزن، تجده في حاجة إلى من ينير له الطريق عندما تكفهر الأجواء، وبلابل الخدمة حاضرون للقيام بهذه المهمة الجليلة، هذا هو قدرهم.

قد تبدو قساوة القلب في مثل هذه المواقف، السمة التي قد يقرأها البعض على جبين هؤلاء الراكضين خلف لقمة العيش، لكن الحقيقة هي أنهم مساكين. فعلى قدر صورة القساوة التي تفوح من مظهر حياة الناس، على قدر ما تشعر بأنهم مجرد مساكين في حاجة إلى ما يُمنَحونه ويُعطَونه من معاني القلب والروح. الناس في حاجة إلى من يذكِّرهم بإنسانيتهم التي حولتها وتيرة الحياة إلى شيء تافه لا أهمية له ولا دور له في نظام الوجود. لكن قدَر الخدمة هو أن تساعدهم على العودة إلى إنسانيتهم بأسلوب مرن فيه الكثير من الحكمة والموعظة الحسنة، لكن بأبعاد أخرى، تراعي قيم الحداثة باعتبارها الشعار المسيطر في هذا البلد.

عالم المعنى لإشباع أرواح بلابل الخدمة

بلابل الخدمة أنفسهم يحتاجون الشحن الدائم، ولذلك فهم على اتصال مستمر مع عالم المعنى المفتوحة أبوابه حيث يقيم الأستاذ، لذلك تجدهم يشدون الرحال إليه للاستشارة وللحصول على الدعم الروحي الذي يعينهم على القيام بمهمتهم على أكمل وجه. بلابل الخدمة في حاجة إلى تلقي شحنات المعنى ليقدروا على مواصلة المسير، قال أحدهم: أنا لم أترك صلاة الجمعة عند الأستاذ منذ أن استقر في أمريكا، إلا مرات قليلة عندما أكون خارج أمريكا.

قال مرشدنا وهو يتحدث عن السيد سعيد الذي وجَّهه الأستاذ للهجرة إلى أمريكا منذ ثمانينيات القرن

الماضي، هو على اتصال دائم بالأستاذ، سعيد رجل لم تفارق الابتسامة شفتيه، لم نره سوى لحظات قصيرة، لكنها كانت كافية للتعرف على عالم الرجل وعلى روحانيته، رجل رغم قصر قامته إلا أنه يفيض حيوية. قال مرشدنا: لا يتوقف هذا الرجل عن الشحن وعن الدفع ببلابل الخدمة إلى إخراج أقصى ما عندهم، أبى إلا أن يرافقنا إلى المطار ويودعنا هناك، حيوية الرجل وحماسه يوحي بأنه لا يجد وقتا لنفسه ولحياته الخاصة، هموم الخدمة لا تترك له مجالا للامتياز، وكيف يحصل على هذا الامتياز وهو على اتصال دائم بصاحب همة أكبر وهو أستاذه؟ حماس الرجل يشعرك بأنه لا يقنع ويريد أن يحقق الكثير لمصلحة الإنسانية، بل تشعر معه بأنه يتطلع إلى مضاعفة الجهد حتى يستطيع اللحاق بتطلعات الأستاذ. الأستاذ حاضر بشكل من الأشكال في كل ما يقوم به السيد سعيد روحًا ومعنى. رغم الوقت الضيق الذي قضيناه برفقة هذا الرجل، فقد أحببته ووددت لو بقيت إلى جانبه أدرس حركيته وهمته في هذا العالم لألمس مدى التأثير الذي يحدثه فكر الخدمة في بلابله الرحالة.

رجال ولا أي رجال كما قال فريد الأنصاري رحمه الله. رجال شعارهم اليومي الخدمة والتضحية براحة الذات والتفاني في خدمة الآخرين، يعملون دون توقف ودون انقطاع، تذكرك تصرفات هؤلاء الرجال بقصة ذلك العابد أظنه يونس أمره، الذي أمضى عقودًا يخدم عند باب شيخه ينقل الحطب كل يوم في وقت محدد ثم يعود لعبادته وذكره دون أن يُؤذن له بتجاوز العتبة ليلقى شيخه ويأخذ منه مباشرة. كان منهج شيخه يقوم على تعليم مريده كيف "يُصَفِّر" نفسه ويخنسها، لكن لما طال عليه الأمد دون أن يؤذن له،

nesemat.com نسمات nesemat.com

خدمة المجتمع كله هدفٌ لـ"بلابل الخدمة"، لا فرق عندهم بين أبيض وأسود، ولا بين مسلم وغير مسلم، ولا بين تركي أو عربي. العملة المتداولة هي الإنسان، وإنسانية الإنسان، والشعار توقير الخلق من أجل الخالق.

مر بذهنه أنه لا أمل في انصلاح حاله؛ فترك باب الشيخ وهام على وجهه يبحث عن مسلك آخر، فحدث أن التقى في الطريق بأشخاص فرافقهم، وفي الطريق وقع معهم حدث منعهم من الحركة وظهر لهم أن مصيرهم هو الهلاك لولا أن يتدخل القدر الإلهي لتخليصهم من ورطتهم، فاتفقوا على أن يتوسلوا إلى الله بما عسى أن يشفع لهم، فبدأ كل واحد يتوسل بما يراه مناسبا لهذا الموقف، وكان يونس أمره يستمع بحرص شديد لما يرددونه، فاتفق الجميع على التوسل إلى الله بأمر واحد أو كادوا، وهو إنا نتوسل إليك بما توسل إليك به عبدك يونس أمره وكانوا يجهلونه، أي يجهلون أن مرافقهم هو يونس أمره، فأدرك يونس أنه ارتكب زلة عندما ترك ما كان يقوم به من عملٍ خالصًا لوجه الله تعالى. لقد تذكرتُ هذه القصة وأنا أصافح هذه الهمم الذين يُخجلون تواضع الناس بطلب الدعاء لهم، لكنهم لا يدركون مقامهم عند الله تعالى، إذ أحسب أنهم لو أقسموا على الله لأبرهم. بلابل الخدمة هؤلاء يتحركون ويعملون دون اهتمام بمقامهم عند ربهم، فهذا تركوه لله تعالى، يصرفه كيف يشاء ولعل هذا هو سر نجاحهم في مهمتهم.

لكل بلبل قصة ولكل بلبل نغمة

لكل واحد من هؤلاء قصة خاصة، ليسوا كلهم أتراك

بل هم من جنسيات مختلفة جمعهم هدف واحد وغاية واحدة هي الخدمة، قد يُظن بأن من يؤثثون عالم الخدمة في أمريكا كلهم أتراك، والحقيقة غير ذلك، بلابل الخدمة هؤلاء من جنسيات مختلفة ودول مختلفة، بل من ثقافات مختلفة، الحدود مكون ثانوي لا قيمة له في ثقافة الخدمة، ما دام الذي يوحد الناس جميعًا هو فكرة تقديم خدمة لمن هم في حاجة إليها، الإيمان بمشروعية الفكرة هي العنصر الموحد، لقد اجتمعوا من كل مكان حول معقولية الفكرة التي غذاها الإخلاص والصدق والإيمان.

شعلة ذكاء متوقدة هو، وشعلة من الحركية والعمل دون انقطاع ودون توقف، هو ابن الخدمة، يمكن القول بأنه من مخرجات الخدمة، من مخرجات عمل "طيور الخدمة" في دول البلقان وفي ألبانيا على وجه التحديد، قصته جديرة بأن تحكى وبأن يتأمل فيها، يَحكي بأنه وُلد في وسط فقير، ومن هذا الوسط احتضنته الخدمة واهتمت به ومسحت دموعه، ولينت طبعه، وجعلته يحترم ذاته، وحولته إلى طاقة فعالة بعد أن كانت المؤشرات تتجه به إلى أن يحتقن قلبه كراهية وغضبًا وعنفًا. يحكي بأن جده أو أحد أجداده كان قاضيًا، وبأن الظروف السياسية التي عاشتها ألبانيا حكمت على أسرته بأن تتحول من حال إلى حال، لكن وضع الفقر مع ذلك لم يغير من طبع الاعتزاز والأنفة التي ورثها عن أجداده، بدا لي أن هذه الأنفة قد طبعت شخصيته بميسم خاص لم تغادر سلوكه، حتى وهو في أمريكا، الصرامة في التدبير مع ليونة في الطبع أهم ما ينطبع في ذهن من يلتقي به أول مرة. شخصيته تُذكر بشخصية البلقانيين الذين ليَّن الإسلام طباعهم في عهد الدولة العثمانية، وحولتهم إلى طاقة فعالة حملت الأمر بدورها إلى مناطق مختلفة.

هذا البلبل حلقة في فسيفساء لوحة بدأها أجداده في مركز العالم الحديث أو العالم المعاصر. لقد غيرت الخدمة من طبعه الثائر الغاضب وسلوكه الذي يميل إلى استفزاز الآخرين كما أخبرنا هذا المهندس الذي يفيض حيوية ونشاطًا. قال: في بداية علاقتي بالخدمة كنت أعتبر التحاقي بمدارس الخدمة والإقامة في مبيتاتهم فرصة لأكمل مشواري الدراسي فحسب، لم أكن أفكر في مصدر المال الذي يُنفق علينا، كنت أعتبر الأمر حقًّا، بل كنت أظن بأن الدولة التركية هي التي تنفق على دراستنا لمصلحةٍ تريدها، كنت أثور في وجه الآبيهات المشرفين علينا وأتهمهم بأشياء غريبة أخجل من ترديدها اليوم، وأخجل مما كنت أقوم به، يردد صديقنا الألباني بحزن شديد، ويضيف: ما كنت أعير اهتمامًا للآبي الذي يرعاني، أتعمد ألا أصلي أمامه حتى

لا يجد نشوة وفرحة نجاحه في تغيير سلوكي، كنت أعتبر ما تقوم به الخدمة حقًّا لنا، لم يمر بخلدي أن ما يُنفق علينا هو مال يأتي من جيوب المتطوعين ومن ضمنهم من هم في حاجة إلى النفقة أكثر منا، ويأتي من جيوب الذين آمنوا بمشروعية ومعقولية الفكرة التي دعا إليها هوجه أفندي، وكان عليّ أن أنتظر حتى أنتقل إلى تركيا لإتمام دراستي حيث اكتشفت بأن ما يُنفق على الطلبة أو بالأحرى ما كان يُنفق علينا كان مما يدفعه أناس بسطاء أكثر فقرًا منا، ليحدث التحولُ في علاقتي بالخدمة، وليحدث التحول الكبير في حياتي.

هذا التحول الذي عرفتْه حياة هذا البلبل القادم من البلقان، ستظهر بعض ثماره في هذا العالم العجيب. مجالات تحرك هذا الشاب المهندس متعددة لم نطلع على أكثرها، لكن أهمها هو جمعية توفر جوًّا أسريًا لعدد واسع من العائلات، من خلال برنامج تربوي ترفيهي يقوم على احتضان الجميع كل حسب استعداده، تقوم الفكرة على توفير جو يجد فيه فئاتٌ كثيرة من المجتمع مبتغاهم من عناية. كل شيء مُفكَّر فيه حسب الخصوصية وحسب الحاجة، فضاء واسع ربما يحتاج إلى بعض العناية وإلى إمكانات مالية لتجديد تجهيزاته، لكنه يُشعر من يدخل إليه بالدفء. صديقنا المهندس لم يتوقف عن خدمتنا، يتقن الخدمة، يتقن إعداد القهوة والشاي والطبخ، يقول: "نحن من يقوم بخدمة أعضاء الجمعية لا نتوفر على المال الكافي لنوظف من يقوم بهذه الخدمة، ولنا في الأمر غاية أخرى وهي أننا عندما نخدم نكون أكثر قربًا من الناس ويسهل إدخالهم إلى فضاء التعاون والاهتمام، الذي نرغب في بنائه معهم". تحرص الجمعية على استغلال المناسبات المختلفة وخاصة المناسبات الدينية من أجل ربط الأجيال الشابة بالأصول الثقافية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الأماكن مجرد أسماء وألقاب، لأن "بلابل الخدمة" يتحركون في الفضاء الواسع، وطنهم هو الوجود، وأما الحدود وأسماء الأماكن فمجرد أشكال، وطنهم هو كل مكان يحتاج إلى أن تُمسح دموعه ويُواسَى الحزانى فيه.

أمام ضغط الواقع ليس في مستطاع الأسر العناية الشخصية بأطفالهم وخاصة الآباء والأمهات الذين فرضت علهم طبيعة الحياة الخروج إلى العمل من أجل توفير متطلبات الحياة المركبة، كما فرضت عليهم عدم الاهتمام بشؤون أسرهم وأولادهم الذين يقضون سواد وقتهم في المدارس، وإذا كانت المدرسة الأمريكية توفر جوًّا تعليميًا لتلقين المعلومات وربما الكفاءات التي تناسب طبيعة الواقع الأمريكي، الذي تغلب عليه الحياة المادية، لكنها بالتأكيد لا تقدم لهم ما يغذي حياتهم الروحية، حتى لكأن هذا الجانب في حياة الإنسان لا قيمة له، لكن الخدمة في شخص العمل الجمعوي مثل جمعية "فيبا" تتطلع إلى توفير هذا الجو؛ ولذلك لا تترك الخدمة -من خلال همةٍ مثل همة هذا الشاب المهندس- الفرصة تمر دون العمل على جمع الأسرة في فضاء واحد، والعمل على خلق أنشطة تخدم ذلك. إنها المبادرة والقدرة على إبداع أساليب من أجل توفير سبلٍ لتقوية العلاقات الإنسانية بين أفراد الأسرة الواحدة، والأسر فيما بينها.

الجمعية مفتوحة أمام الجميع، المسلم وغير المسلم، يقول صاحبنا: قد تكون هناك بعض الأنشطة ذات الطابع الديني من خلال وجود المسجد وربما بعض الأنشطة الأخرى كتحفيظ القرآن الكريم، لكن هذا لا

يغلق الباب في وجه غير المسلمين الذين يبحثون عن جو مفعم بالمودة والرحمة والعطف والحنان واحترام إنسانية الإنسان لإشباع احتياجاتهم الوجدانية.

الأنشطة التي تقوم بها الجمعية لمصلحة براعم المستقبل، ولجيل الشباب من أبناء الجيل الأول، وربما حتى الجيل الثاني متنوعة ومتعددة، ومنها تلك الزيارة التي قام بها صاحبنا المهندس مع ثلة من شباب الجامعة إلى المملكة المغربية في إطار برنامج تكويني وتربوي وسياحي هدفه تعريف هؤلاء الشباب على جزءٍ من الثقافة الإسلامية التي ينتمون إليها. كانت زيارتهم في شهر رمضان وقد حرص صاحبنا المهندس على حضور هؤلاء الطلبة على موائد إفطار بعض العائلات المغربية وكنت ممن حظي ببركة إفطار صائم. كان صاحبنا حريصًا على أن يعانق هؤلاء الطلبة وهم طلبة الجامعة أجواء رمضان، وأن يذوقوا طعم الثقافة الإسلامية وطعم الحياة الإسلامية في وسط عائلي، وفي بلد إسلامي كبلدنا. علاقة القرب التي بناها صاحبنا المهندس مع أحبته من أمريكا مؤشر جميل على أن الروح التي سيحملها هؤلاء الشباب في المستقبل هي نسمات الخدمة. كان بينهم من التحق بأمريكا في سن مبكرة ومن التحق بعد أن وعى ثقافة بلده وتشبع بقدر من روح الدين. والد شابين في الوفد إمام مسجد، لا تتيح له أشغاله فرصة الاقتراب أكثر من ولديه، لكنه بالمقابل سلَّم المهمة لبلابل الخدمة، بعد أن كسبتْ ثقته، هذا حال عدد كبير من الأُسَر هكذا يخبرنا المهندس الشاب.

كان صاحبنا يتصرف وفق منهج يتقنه، ويبدو أنه استعمله من قبل، مع شباب آخرين، كان الزمن

زمن رمضان، وفي بلد كالمغرب حيث لرمضان قدسيته وطابعه الخاص، الذي تظهر ملامحه على الأجواء، والعينُ الملاحِظة والأرواحُ الطيبة تستطيع رصده وترتاح في أجوائه وتجد فيه طمأنينة الروح.

حسبي أن الغاية من هذه الأنشطة التي يتقنها بلابل الخدمة هي إعادة إحياء أرواح مثل هؤلاء الشباب، كنت ألاحظ بتنعم سلوك صاحبنا مع هؤلاء الشباب، الابتسامة لا تفارقه، يخفض لهم جناحه، لم ينهر أحدًا منهم، لم يأمر أحدًا باستعلاء وجفوة، لم يطلب من أي منهم أن يصوم أو أن يصلي، عندما أقيمت الصلاة طلبوا الوضوء على استحياء، توضأوا ثم صلينا، انتظرت من صاحبنا أن يوجههم لكنه لم يفعل، أدركت بأن المنهج واضح في تصرفاته، إنه منهج الخدمة الذي وضع ضوابطه الأستاذ، القدوة والحكمة والموعظة الحسنة، هذا هو منهج الأستاذ فتح الله قبل خمسين سنة يتكرر مرة أخرى مع ثلة من الشباب.

عجيب حال هذه الخدمة، لأن الروح التي تحركها توجد فعلا فوق الزمان والمكان، هذه هي الحقيقة التي ليس في مستطاع أحد إغفالها. الصدق في التفاعل من خلال الخطاب المحرِّك بمستطاعه أن ينشر روحًا جديدة في هذا العالم. يهيأ لي بأن نسائم هذه الروح إذا سرت بين شباب شرائح واسعة من أبناء المجتمع الأمريكي فالأفق يبدو جميلاً مشرقًا غير ملبَّد بالغيوم.

لم أشكَّ لحظة واحدة بأن لكل بلبل من مثل هذه البلابل قصة، لكن القاسم المشترك بينهم جميعًا هو أن قدرًا غيبيًا جمعهم تحت ظل خير واحد وهدف واحد هو مساعدة القلوب والأرواح على إزالة ما علق بها من أدران بحكم الغفلة والعادة، وبحكم الأجواء القاتمة التي تغلف أجواء هذا العالم.

nesemat.com نسمات nesemat.com

بلابل الخدمة من جنسيات مختلفة ودول مختلفة، وثقافات مختلفة، الحدود مكون ثانوي لا قيمة له في ثقافة الخدمة ما دام الذي يوحد الناس جميعًا هو فكرة تقديم خدمة لمن هم في حاجة إليها.

الرحلة إلى أمريكا كانت رحلة ذات غايات كثيرة، فإضافة إلى التعرف على عالم الأستاذ فتح الله كولن وحقيقة إقامته في أمريكا، كان الغرض كذلك هو التواصل مع هذه الطيور والاطلاع على ما يسدونه للمجتمع الإنساني من خدمة. شخصية هؤلاء الرجال ممتزجة بالخدمة، حركتهم قائمة على الخدمة، لا تستطيع التفريق في هذه العلاقة بين جوانيتهم وبرانيتهم. الخدمة هي المعدن الذي مزج كل شيء فيهم، فأكسبه القوة والمتانة والإشراق، هم لا يلحظون مقامهم لكن موقع الملاحِظ يتيح رؤية ذلك وأكثر.

الابتكار والجمال لتقديم الخدمة

روح الخدمة كانت تستقبلنا بطابعها الخاص الجميل ذي الأبعاد الروحانية أينما حللنا وارتحلنا، حتى في المطاعم والمقاهي، طابع الخدمة لا تخطئه العين، في مقهى "إينستور" تكتشف جوًّا آخر من أجواء الخدمة في هذا البلد العجيب، الذي يشجع المبادرة، قيل لنا إنها سلسلة مقاهٍ منتشرة في أماكن عديدة من هذه الولاية أو هكذا خُيِّل لي، مقاهٍ للِّقاء والتواصل حول فنجان القهوة التركية أو كأس شاي تركي، وحول تناول ما لذ وطاب من الطعام التركي، المركز لا يرتاده الأتراك فقط، لاحظت وجوها بيضاء ذات ملامح أوروبية تجلس لاحتساء القهوة أو لقراءة كتاب،

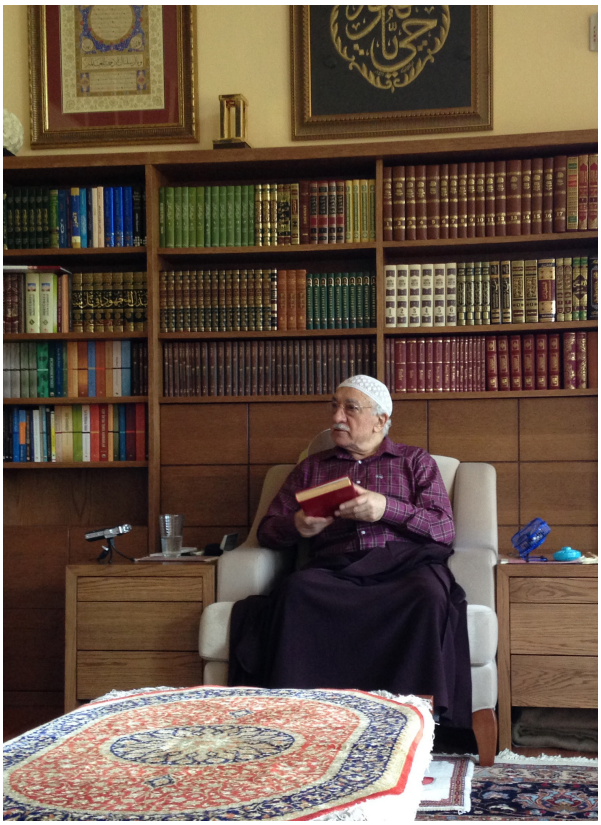

خمَّنْت أنهم أمريكيون مسيحيون أو من ديانة أخرى.

أحببت الإفطار في هذا الفضاء الجامع المنظم المرتب، الدال على حسٍّ ذوقي رفيع، ليس حبًّا فيما قُدِّم لنا هناك من طعام، بل لأن هذا الفضاء يتيح لمثلي رؤية وتيرة حياة الناس، الفضاء مُهيَّأ لتقديم خدمة أو خدمات. في الجانب الآخر من هذا المركز هناك معرض للكتب على الرفوف، كتب الأستاذ باللغة الإنجليزية وكتب أخرى دينية وفكرية، القرآن الكريم موجود كذلك، وترجمته باللغة الإنجليزية، الأطفال لهم جناحهم الخاص، تجد فيه كتبًا للأطفال، وفي ركن آخر اللعب، لكن ليس أي لعب إنها لعب تربوية تنمي الذكاء وتبني شخصية الطفل، لعب جميلة جدا تغري الكبار باللعب؛ أدركت الغاية، إنها إتاحة الفرصة للآباء لتواصل أكثر مع الأبناء، يأتي الأطفال مع آبائهم يشترون الحلوى يأكلون يجلسون في مكان مخصص لهم لمطالعة كتاب، لا أحد يسأل، لا أحد يعاتب، معالم منهج جلي تلوح في الأفق.

وددت لو أقمت بالقرب من هذا الفضاء آتي إليه كل يوم للعمل، المكان يساعد على ذلك، قال لي أحدهم حتى الصحبة تقام في هذا الفضاء، الفضاء فكرة جميلة لنشر صورة إيجابية عن المسلمين في هذا البلد العجيب.

قد يكون هذا الفضاء معدًّا لاستقبال عموم الناس من الطبقة المتوسطة، لكن هناك فضاءات أخرى معدة لاستقبال فئات اجتماعية من مستوى اجتماعي أعلى، الكل يحظى باهتمام بلابل الخدمة، دعانا السيد سعيد أو أحد الأصناف لا أتذكر مرة للإفطار وأخرى للعشاء في مطعم من مستوى راق.

كنا على مائدة العشاء نستمع إلى الحديث الشيق لأخينا الذي يغذي الأرواح عن منهج اشتغال بلابل الخدمة مع من ينتمون إلى المجتمع المثقف ورجال الأعمال الذين يحتاجون خدمة خاصة واهتمامًا خاصًّا، لذلك يُستضافون في مثل هذه الفضاءات، التي -رغم المسحة العصرية والحداثية التي تطلع بها على مرتاديها- لا تفقد تلك الروح الشرقية التي تذكر بالصفاء. والظاهر أن الكثيرين يبحثون عنها ويتشوقون للاستمتاع بها، الخدمة تستجيب لهذه الحاجة، فلكل واحد مفتاح يفتح قلبه ومنفذ إلى وجدانه، الغاية واحدة والهدف واحد هو توحيد القلوب على إيقاع واحد ونغمة واحدة، لكن الأسلوب والمنهج لا يتغير.

في الطرف الآخر من المطعم كان هناك رجل تدل ملامحه على أنه تركي، أو من دول البلقان، في الخمسين أو الستين من عمره، هندامه يدل على أنه

من طبقة اجتماعية راقية، وإلى جانبه آخرون تبدو عليهم ملامح الانتماء إلى طبقة هذا الرجل الأنيق نفسه، كان يحدثهم وهم يستمعون باهتمام، يبتسم فيبتسمون، يضحك فيضحكون بين الحين والآخر. كانت تشرق من وجوههم إشراقات التأثر بكلام مُجَالسهم، خمنت بأن القضية تتعلق بصحبة من نوع خاص، انتهوا من طعامهم ومن حديثهم، وَدَّعهم ثم جاء إلى مائدتنا فسلم وَقُدِّم لنا على أنه من بلابل الخدمة، الذين هاجروا مبكرًا إلى أمريكا، لقد كان تخميني في محله، الرجل بلبل صدَّاح، كان فعلاً في صحبة خاصة مع أصحاب حاجة معنوية ربما وجدوها فيما عنده.

في ولاية "ديترويد" دعانا أحد الأصناف لتناول طعام الفطور، الفضاء عبارة عن متجر لبيع المواد الغذائية وحاجيات الناس اليومية، وفي ركن منه أقام المشرفون عليه مطعمًا صغيرًا يرتاده الناس لتناول الفطور وما لذ وطاب من الأطباق التركية والشامية، أظن أن المشرف عليه سوري أو لبناني، الفضاء متجر لكن فيه مآرب أخرى، بدا أنه يحتضن هو الآخر لقاءات الصحبة والتواصل مع العائلات والأسر، وفيه يدعو بلابل الخدمة من يحتاجون إلى العناية والاهتمام. تناولنا طعام الإفطار مع بعض الأصناف الناجحين في أعمالهم، قال أحدهم: لولا الخدمة لما استطعت العيش في أمريكا، الخدمة توفر لي جوًّا خاصًّا لا تستطيع بلد العم سام توفيرها، تعتني الخدمة بأولادي وتهتم بهم وتساعدني على تربيتهم وتلقنهم مبادئ الدين والقرآن، لا أدري ماذا كنت سأفعل لولا الخدمة.

هنا علمت بأن للنساء نشاطهن الخاص بهن، هن كذلك يمارسن الخدمة مع نساء أخريات ينتمين إلى المجتمع الأمريكي، أمهات وربات بيوت وطالبات،

nesemat.com نسمات nesemat.com

عندما يلتقي المرء بلابل الخدمة، ينتابه إحساس بأن هِمَمَهم لا تعرف للاستراحة معنى، ليس هناك وقت ضائع، بل إن كثرة ما يحتاجه هذا المجتمع الحديث، لا يترك لهم مساحة للتوقف.

عائلات مسلمة وغير مسلمة، الأسر العربية كذلك تجد عناية خاصة وتجد اهتمامًا.

غير بعيد من هذا الفضاء اكتشفنا فضاء آخر، هو مركز ثقافي متكامل يضم العديد من المرافق أبعادها تربوية وتعليمية وثقافية، فضاءٌ أَشْرَفَ على إنجازه الأصناف أنفسهم. في الطرف الآخر منه توجد مدرسة، أظنها روضة للأطفال أو شيئًا من هذا القبيل. أخبرنا أحد الإخوة فيما بعد -هو أحد تلاميذ الأستاذ كان قد طلب منه الأستاذ الهجرة إلى البرازيل، ثم دعاه إلى أمريكا- أخبرنا بأن التربية هي المفتاح، الذي ينبغي الولوج منه إلى المجتمع الأمريكي، لأن هذا المجتمع ضعيف المناعة والحصانة الثقافية والمعنوية أمام قوة الحياة المادية وشدة حضور مغريات العصر. ودور الخدمة هو أن توفر جزءًا من هذه المناعة، ولذلك فالخدمة تفكر في احتضان الأطفال منذ الروضة، بل منذ الشهور الأولى حتى يستطيع العيش في جو خاص كما يقول.

في المركز مسجد ومرافق تربوية عديدة لتحفيظ الأطفال والكبار القرآن، يحتوي كذلك على حجرات دراسية يتعلم فيها من اختار نظام التعليم في البيت (Home School)، وهو نظام تعليمي تتيحه القوانين الأمريكية يقوم على تحصيل الطالب للمعارف الأساسية المطلوبة لاجتياز الامتحانات الرسمية ويتم هذا في البيوت أو في مراكز خاصة، لكن لكل واحد

الحق في إدخال مواد تعليمية خاصة كتعليم لغات أخرى وكتعليم القرآن الكريم.

يعج المركز بحركة نشيطة لكنها حركة هادئة، أخبرنا مرافقنا أن حركة نهاية الأسبوع تكون أكثر نشاطًا نظرًا لتنوع الأنشطة التي يتم تقديمها، الفضاء متنفس للأسر وللشباب والأطفال على حد سواء. تم التفكير في كل شيء، الشباب والأطفال يحبون الألعاب الإلكترونية المختلفة ويحبون الرياضة، المركز يوفر هذا، والفكرة هي احتضان الشباب واليافعين وتحصينهم ضد المؤثرات الخارجية التي تؤثر سلبًا على سلوكهم، وقد تؤدي بهم إلى الانحراف؛ ولهذا تجد الأسر والعائلات وفئات المجتمع المختلفة ترتاح لمثل هذا المركز، وترتاده وتشجع على فتح أمثاله في أماكن مختلفة، كما تحرص على الحفاظ عليه واستمراره. لقد أدركت بلابل الخدمة حاجة الناس، فأنشأت هذه المراكز -ومثلها كثير- استجابةً لهذه الحاجة. قال مرافقنا: "المال يذهب ويرجع لكن الأخلاق والقيم إذا ذهبت فإن استرجاعها قد يستحيل".

علامة ميزتها النجاح

جاليات أخرى كالجالية العربية تقيم مثل هذه المراكز التي تتخذ من المسجد محورًا لها، وتجعل تحفيظ القرآن أحد أهم أولوياتها، وقد زرنا بعضها، لكنها رغم سمو الهدف الذي تتطلع إليه إلا أنها تفتقد للروح والمعنى زيادة على وقوعها بين يدي مديرين لا يعتبرونها سوى مصدر للاسترزاق وهو ما يخرج بها عن غايتها وهدفها. أخبرنا مرافقنا -هذا البلبل الذي درس في مصر وتعلم العربية- أن الجالية العربية تتوفر على رغبة قوية في صنع شيء لأبنائها، لكنها تلقي بنفسها في أحضان أياد غير أمينة.

سامي بلبل من بلابل الخدمة في أمريكا، وهي أشكال وألوان، ولكل بلبل شخصيته، ولكل واحد منهم أسلوبه في التفاعل مع الناس. فسامي هذا طائر ذو شخصية جذابة، ومرحة يقتحم عليك عالمك يخرجك من انعزاليتك، ويبادرك بالحديث وكأنه يعرفك من قديم، معارفه كثيرون يبادلونه الاحترام وهو ما جعله شخصية محبوبة ومقبولة في كل الأوساط، مهمته كما فهمت هي التواصل مع الجاليات العربية في أمريكا، أخذنا إلى الكثير من الأماكن التي يوجد بها عرب، يعمل مدرسًا في إحدى المدارس التي أقامتها الجالية العربية، معهد لا يخلو من طابع ديني كانت تشرف عليه جهة ما، ولصعوبات في تدبيره سُلِّم للبلابل في الخدمة، سامي بلبل صداح يجعلك تحبه وتقبله، لا تفارق الابتسامة محياه، يحمل قلبًا واسعًا يستطيع احتواء الجميع، لا يتوقف عن الحديث وعن العمل، يومه شغل مستمر كما يخبرنا، أسرته تفتقده لكنه يتسلى عن أسرته وعن نفسه بجلال المهمة التي يقوم بها، إنها مهمة تزرع البركة والاستقرار والتوفيق.

أخبرنا بأن مهمته هي تعريف الجالية العربية على ما في جعبة الخدمة من خير، الجالية العربية تحتاج إلى من يكون صادقًا معها في تدبير شؤونها، ليس الغرض استقطابها كما يقول، ولكن أن تنعاون معها لتحسين صورة المسلمين هنا.

للأصناف قصص خاصة بهم كذلك، لكنها لا تخرج عن جو الخدمة وعالمها، منهم من هاجر إلى أمريكا بتوجيه من الأستاذ، ومنهم من درس في أمريكا ودخل عالم الأعمال ونجح فيه، ويعتبر الخدمة السند الذي

أمده بالقوة لينجح، ومنهم من تعرف على الخدمة في أمريكا ووقع معه تحول كبير جعله مدينًا لها كذلك. أحد هؤلاء الأصناف طلب منه الأستاذ قبل أكثر من عقدين نقل أعماله إلى أمريكا، وأمله بأن ينجح في امتلاك آبار للبترول في أمريكا، وأن ينجح في إنشاء شركة كبرى في هذا المجال، وقد نجح في تحقيق هذا الحلم، الرجل ظل منذ سمع البشرى يعتبر ما قاله الأستاذ بشرى ستتحقق. تقاطعت سبلنا قدرا في "إنِستُور" تبادلنا حديثا قصيرًا، قصَّ دليلُنا قصته بسرعة، هو أحد الذين يدعمون الخدمات التي تنجزها الخدمة، أهداني قلمًا جميلًا أحاول الآن أن أكتب بحبره عن هذا الخير في الولايات المتحدة الأمريكية.

الجالية المسلمة التي هاجرت إلى أمريكا أصناف وأنواع، منها من هاجر قبل خمسين أو ستين سنة، حملهم إلى أمريكا الرغبة في الحصول على لقمة العيش، وُلد أولادهم في أمريكا، وفي لحظة اكتشفوا أنهم فقدوا أولادهم وصاروا يبحثون عن شيء ثمين تركوه وراءهم عندما هاجروا، تركوا وراءه هويتهم وثقافتهم. مِن هؤلاء شيخ وقور كان رفيقنا بل سائقنا، يقول عنه سامي: إنه تعرف على الخدمة في سن متقدمة، وهو منذ تَعرُّفه عليها يعرض خدماته تطوعًا. صدقُ هذا الرجل وإيمانه بالخدمة لا يمكن وصفه، يذكر بأنه لم يترك صلاة الجمعة عند الأستاذ منذ عرف الخدمة، ومنذ أن استقر الأستاذ في أمريكا. أخبرني أنه ودَّ لو يرجع الزمن إلى الوراء ويصير شابا لينخرط في الخدمة، سلوك هذا الرجل وصدقه يجعل المرء يفكر بصدق في هذه الروح التي تتحرك بها الخدمة في هذه الرقعة من العالم.

مجالاتُ تَحَرُّكِ هؤلاء الطيور متعددة ومتنوعة، ما يجمع بينها هو تقديم خدمة دون مقابل، والإبداع في سبل الوصول إلى شرائح مختلفة لها حضور فكري وثقافي واجتماعي في عمق المجتمع. هناك مراكز للحوار هذه هي وظيفتها، مراكز تفيض حيوية ونشاطًا. كانت زيارتها مناسبة للوقوف على الوجه الآخر للخدمة، خدمة تتطلب طينة أخرى من الطيور، يحرص من يشرف على مراكز الحوار على أن تكون في الأماكن الحساسة القريبة من مصادر صناعة القرار الفكري والثقافي والاجتماعي، أو في وسط الأحياء الراقية المعروفة بالأعمال وبالأنشطة الثقافية المتنوعة. المستوى المعرفي وإتقان اللغة الإنجليزية هي ميزة تميز بلابل هذا الصنف من الخدمة، والحاجة ماسة لذلك؛ لأنها تستهدف فئة المثقفين الذين يستطيعون التأثير في الأفكار والوعي داخل المجتمع.

حين زيارة أحد مراكز الحوار كانت هناك ندوة أو مائدة مستديرة ذات أهمية كبيرة، أدركت هذا من خلال طبيعة الحضور، يبدو من ملامحهم أنهم مثقفون ومفكرون، علمنا فيما بعد أنهم يناقشون موضوعًا ذا أبعاد فكرية غاية في الأهمية، ويشارك فيه مفكرون مسلمون ومسيحيون ويهود.

أخبرنا القائمون على هذا المركز بأن مهمته الأساسية هي فتح حوار جاد حول قضايا تتعلق بالفكر الإسلامي، بين مفكرين ينتمون إلى الحقل الإسلامي وبين غيرهم من ديانات أخرى، قال مسؤول المركز: "أهمية الندوات التي ندعو إليها تكمن في تصحيح الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين التي علقت بالأذهان لسبب أو لآخر". ■

الأسس الفاعلة في الانبعاث الحضاري

سعاد الناصر

أ.د. سعاد الناصر، أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب بتطوان، جامعة عبد الملك السعدي، ورئيسة تحرير جريدة "ملامح ثقافية". دكتوراه في الأدب العربي في موضوع "الحركة الأدبية: دراسة في المكونات والأجناس. لها مجموعة من الدواوين الشعرية والمجموعات القصصية ومنها: ديوان "سأسميك سنبلة"، وديوان "هل أتاك حديث أندلس"، و"ظلال وارفة" مجموعة قصصية. شاركت في عديد من المؤتمرات والندوات الدولية والوطنية.

يندرج كتاب "ونحن نبني حضارتنا" في سياق مشروع نهضوي إسلامي متكامل، يهدف إلى انبعاث الأمة، وإخراجها من مستنقعات الانحطاط والوهن والتبعية. وقد بدأت بُذُوره تنمو ببطء منذ القرن التاسع عشر، رغم ظروف الاستعمار ومخلفاته في كل الدول الإسلامية، والسياحات المستمرة في مراتع الملل والنحل، وعدد كبير من المعوقات التي تحول دون النهوض المستقيم للأمة. وجهود الأستاذ محمد فتح الله كولن تصب في مجال هذا المشروع، وتقتفي خطوات الذين سبقوه من المصلحين الذين يمتد سند إصلاحهم وتجديدهم ليصل إلى قدوتهم رسول الله ﷺ.

ويصوغ الأستاذ كولن رؤيته للانبعاث من منطلق مقومين أساسيين: الإيمان والهدف، وهما ينطويان على مجموعة من الأسس والمرتكزات نجدها مبثوثة في مجموعة من المقالات التي تضمنها كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، كما قد نجدها في كتبه الأخرى، لأنها تتكامل فيما بينها لتقديم رؤيته المتجانسة حول قضايا البناء، من أجل أن يعيش الإنسان الحقيقة، في توازن مع فطرته ومع الكون من حوله.

سادت البشريةَ حضاراتٌ وأمم مختلفة ومتنوعة، تركت بصماتها على العالم، منها حضارة الإسلام، التي تحمل في ذاتها مقومات انبعاثها من حالات الوهن والانحطاط والتبعية كلما سقطت فيها، مستمَدة من تدبر محكم للقرآن الكريم ولسنة رسول الله ﷺ، ومن تبصر لمبشرات المد الحضاري والتاريخي للأمة، واستعصائها على الإبادة. ومنذ زمن طويل والأمة تعيش أزمات على كل المستويات، وتعاني سقوطًا حضاريًّا مهولاً، على الرغم من بعض مظاهر الرقي والتقدم المادي، في معزل عن منظومة القيم والأخلاق.

ويندرج كتاب "ونحن نبني حضارتنا" في سياق مشروع نهضوي إسلامي متكامل، يهدف إلى انبعاث الأمة، وإخراجها من مستنقعات الانحطاط والوهن والتبعية. وقد بدأت بُذُوره تنمو ببطء منذ القرن التاسع عشر، رغم ظروف الاستعمار ومخلفاته في كل الدول الإسلامية، والسياحات المستمرة في مراتع الملل والنحل، وعدد كبير من المعوقات التي تحول دون النهوض المستقيم للأمة. وجهود الأستاذ محمد فتح الله كولن تصب في مجال هذا المشروع، وتقتفي خطوات الذين سبقوه، كبديع الزمان النورسي ومحمد إقبال ومالك بن نبي وغيرهم من المصلحين الذين يمتد سند إصلاحهم وتجديدهم ليصل إلى قدوتهم رسول الله ﷺ.

وتأسيس الحركة التي كولن على رأسها لمئات المدارس في أنحاء العالم، وإنشاء الصحف والمجلات والتلفزيونات والمراكز الثقافية الخاصة بها، والشركات والأعمال التجارية والمؤسسات الخيرية، وامتداد نشاطها إلى إقامة مراكز ثقافية خاصة بها في عدد كبير من دول العالم، والمؤتمرات السنوية، المتعاونة مع كبريات الجامعات العالمية من أجل دراسة الحركة وتأثيرها وجذورها الثقافية والاجتماعية، كل هذا يصب في إطار المشروع الحضاري المتكامل الذي تُعدّ كتابات كولن جزءًا منه، وتؤسس لكيفية مواجهة تحديات الأمة، وتفرش السبل لانبعاثها وإحيائها، كي تأخذ مكانها الصحيح في التوازن الدولي. فالأمة اليوم "أمام أحد خيارين: إما الكفاح المصيري في الهمة والذي يؤدي بنا إلى الانبعاث، وإما الخلود إلى الراحة والاسترخاء الذي يعني الاستسلام للموت الأيدي"(ص:٧).

ويقين كولن القوي بانتساب الأمة إلى دينها كفيل في اعتقاده بالانتفاع بما تختزنه من مقومات النهوض والرقي، لأنه ما برح "مصدر عز وقوة لأتباعه الذين يؤمنون به ويحبونه بصدق، وقد أسعدهم بقدر صدق انتسابهم، ولم يوقعهم قط في خذلان دائم أو متماد. فمنذ عهد الصحابة وحتى اليوم كمْ عشنا بفضله في فترات مختلفة عصورا ذهبية وأقمنا حضارات زاهية" (ص:١٨٦/١٨٧). لكن هذا كان مشروطًا بالهمة والمجاهدة، وليس "بالقعود والحلم بالكرامات الخارقة، وغض البصر عن العادات والسنن الإلهية" (ص:١٨٧).

ويصوغ الأستاذ كولن رؤيته للانبعاث من منطلق مقومين أساسيين: الإيمان والهدف، وهما ينطويان

المسلم ملزم بالبحث "عن كل فائدة ومصلحة، ويطلبها أنَّى يجدها. وكما اقتبس في الماضي من العلوم، فاليوم أيضًا يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجده، وينمِّيه ويطوِّره ويُودِعه أمانة للوارثين الجدد".

nesemat.com نسمات nesemat.com

في عصورِ تخبط الإنسانية في الظلمات، كان أهم مصادر القوة للمجاهدين الأوائل هو إيمانهم، وغايتهم المأمولة هي تفريغ إلهامات إيمانهم الفوارة في قلوبهم إلى صدور الآخرين.

nesemat.com نسمات nesemat.com

على مجموعة من الأسس والمرتكزات نجدها مبثوثة في مجموعة من المقالات التي تضمنها كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، كما قد نجدها في كتبه الأخرى، لأنها تتكامل فيما بينها لتقديم رؤيته المتجانسة حول قضايا البناء، من أجل أن يعيش الإنسان الحقيقة، في توازن مع فطرته ومع الكون من حوله.

١- الإيمان

إن الإيمان هو المقوم الأول الذي يغرسه كل الأنبياء والمصلحين من أجل البناء الحضاري، لأنه متى استقر في النفس ووقع تجديده كل حين، أحدث قوة دافعة لتحقيق غاية وجود الإنسان في هذا الكون، فهو لا يحدث خفة وتحليقًا في الآفاق فحسب، وإنما ينعكس سلوكًا وممارسة في كل مناحي الحياة، أي يعيد إحياء الإنسان من جديد، ويحرك مداركه وأفعاله نحو الخير والحق والعدل والجمال. وقد ظل رسول الله ﷺ يركز عليه في مكة طيلة الثلاث عشرة الأولى من عمر الدعوة، ويشحن النفوس بأكبر قدر من الطاقات الإيمانية. ولما بدأ البناء العملي في المدينة، كانت الأرواح والنفوس المؤمنة حق الإيمان، مهيأة للقيام به، فتعالى البناء في سنوات معدودة. وقد ظلت هذه الدعوة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال: ٢٤) قائمة من أجل الانبعاث والإحياء كلما ابتعد المسلمون عن هذا المقوم، يكفل الله تعالى لها من يجددها في النفوس، لتحياها الأمة حقيقة في ممارساتها وسلوكياتها. وهذا ما يؤكد عليه الأستاذ كولن حين يجعل الإيمان مقوم كل انبعاث وإحياء، يتفرع عنه مجموعة من الأسس والمرتكزات واللبنات لتفعيل ذلك الإيمان وتنزيله إلى الحياة. من هذه الأسس:

أ- الإنسان: لأنه المحور الذي يدور حوله الكون، وهو سيد الأرض، وعمرانها مرتبط أساسا بمدى أهليته واستعداده. وصلاحها أو فسادها مرتبطان بصلاحه أو فساده. فالشخصية الإنسانية السوية لا تتكون إلا من خلال الإيمان الصحيح، فالإيمان يغطي "سماء أحاسيس الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تستحيل العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرص بحملة وهمة داخلية وشعور وحس داخلي، ليحاصر ذاك الإنسانَ من كل جهة، فيحوله إلى إنسان جديد قائم على محور الوجدان. فتنعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق. فتحمل عبادتُه وطاعته سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك العشقِ والاشتياق، وتصير مناسباتُه البشرية انعكاساتٍ لهذه اللدنيَّة. وتتمحور حملاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها، حول هذه القوة الجاذبة "إلى المركز". فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية، وتتوسع بها، وتبرز بألوان القلب وأدائه الجميل" (ص:٥٢-٥٣). وحين تصبح حياة الإنسان مصبوغة بالإيمان، مهتدية بيقينيات الوحي، تتلقى روحه حقيقة فريدة، هي المحبة. والمحبة هي نُسْغُ الحياة الكريمة التي تسري من خلالها مجموعة من القيم، كالتسامح والعدل والإخلاص.

وتزكية النفوس عند الأستاذ كولن، وشحنها بالطاقات الإيمانية تستوجب تجديدها كل مرة حتى لا تنساق وراء ما يعكر نقاءها وطهرها، لأنه لا يمكن أن "يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الحقد والكره والغيظ، وبالأخص إذا كان القلب يحافظ على جلائه ورونقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه"(ص:٥٩)، فإذا استقر ذلك فاض القلب وتدفق حبًّا واهتمامًا وتسامحًا "إزاء المخلوقات إجلالا للخالق، والمصنوعات إجلالا للصانع" (ص:٥٧). وبقدر تأصيل حقيقة الإيمان في العمق تتنامى بذورها وتترعرع في الحياة، وتكون مصدر الانبعاث والتطور.

ويقترن كل هذا بالحرص على العلم والتحري، والشغف بالبحث واكتساب المهارة في كل مجال (ص:٥٦)، والتحفيز والتشجيع والمكافأة على ذلك، لأن المسلم ملزم بالبحث "عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت في أقصى بقاع الأرض، ويطلبها أنَّى يجدها. وكما اقتبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قوَّمها وطوَّرها وأودعها أمانة للأجيال الآتية، فاليوم أيضًا يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجده، وينميه ويطوره -إن استطاع- ويُودِعه أمانة للوارثين الجدد"(ص:٥٥). ورغم هذه الدعوة إلى الاستفادة والانفتاح، فإن كولن يحذر من الاتكاء على المصادر الأجنبية في الأمور المتعلقة بالنظم العَقَدية والفكرية، والموضوعاتِ المرتبطة بالكتاب والسنة وبكل ما يتعلق بالرسول ﷺ وسيرته، وطرائقِ التحليل والبحث في السيرة وتاريخ الإسلام، والفن والأدب ونحوها. ذلك، لأن الذين أقاموا

الذين أقاموا بنيانهم الفكري على معاداة الإسلام، والناظرون إليه خارج الوحي السماوي، لا يتوقع منهم حسن النية وطلب الخير للمسلمين وتمنِّي التقدم لهم.

بنيانهم الفكري على معاداة الإسلام، والناظرين إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يُرجى منهم التصرف بحسن النية وطلب الخير للمسلمين وتمنِّي التقدم لهم. أما العلم والتكنولوجيا -وهما خارج إطار ما ذكرناه- فقد عهدناهما في أخذ وعطاء بين الأمم في الماضي، وستستمر المبادلة فيهما مستقبلًا، وتنتقل أمانة ووديعة في أيدي حائزيها. فالعلوم والتكنولوجيا ليست حكرًا لدين أو أمة" (ص:٥٥-٥٦). وهذا يؤدي بالباحث إلى الأساس الآخر الذي يراه كولن يتفرع عن الإيمان وهو ما أسماه في "ونحن نبني حضارتنا" بالكينونة الذاتية.

ب- الكينونة الذاتية: ويشرحها بقوله: "إن المعنى الذي نقصده من "الكينونة الذاتية"، هو إبراز هويتنا الداخلية المنسوجة من ميراث حضارتنا الذاتية وثقافتِنا الذاتية، وجعلُها "المحور" الذي ندور حوله" (ص:٢٣). فالإرث الحضاري بكل مكوناته الثقافية والاجتماعية الذي تمتلكه أي أمة يعتبر أساسًا من أسس بنائها، ولا غنى عنه إذا أرادت أن تمضي نحو المستقبل، وخاصة المكون الثقافي، باعتباره "مجموعة نظم وقواعدَ تحكم التصرفات الاجتماعية والأخلاقية التي أنتجتها وأصَّلتها أمة في أثناء تاريخها الطويل، وجعلتها بمرور الزمان بعدًا من أبعاد وجودها أو حولتها إلى مكتسبات في اللاشعور" (ص:٧٨). وهذه الثقافة تُعَدُّ مكتسبات لا

يقين كولن القوي أن انتساب الأمة إلى دينها كفيل بالانتفاع بما تختزنه من مقومات النهوض والرقي، لكن هذا مشروطٌ بالهمة والمجاهدة، وليس بالقعود والحلم بالكرامات الخارقة، وغض البصر عن العادات والسنن الإلهية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

يجب النظر إليها "كشيء قديم تمامًا، بل بإضافة شيء من العمق إليها حسب متطلبات الأحوال والظروف" (ص:٨٠). ويشير كولن بأن ما قامت به بعض الشعوب التي أرادت النهوض بعد كبوة وسقوط مثل اليابان وألمانيا، هو الحفاظ على ثقافتها ومكوناتها الذاتية، وتنميتها من أجل تمكين الانبعاث من النمو في أجواء صحيحة وطبيعية. كما يلفت النظر إلى خطأ وقعنا فيه كما يقول: "وهو أننا بدلاً من جعل القديم أساسًا متينًا ليقام عليه الجديد، وتطوير القديم بمعطيات الجديد، فصلناهما في أكثر الأحوال إلى شريحتين ربطناهما بحقبتين منفصلتين، فأحيانا استعدينا بعضهما على بعض، وأحيانا أخرى عارضنا بينهما، فأدينا إلى حصول معضلات في الأسس" (ص:٨٠). ويعتبر أن المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي التي يجب أخذها بقوة وتأصيل قيمتها ودورها في البناء المعرفي لمختلف الأفكار والمواقف والأحكام، خاصة في مجال المواضيع المتعلقة بالإنسان والكون والله، هي الكتاب والسنة، والتي تفرعت عنهما مختلف العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك. فميراثنا الثقافي المستند إلى مصادره الأساسية يدخل في إطار الكينونة الذاتية الساعِيَة إلى القيام بوظيفة الإشعاع الحضاري، والتمكين للعودة إلى مستوى الخيرية التي وُصِفَتْ بها الأمة، وإحلال هذه المصادر في حياتنا يتم في إطار معرفي، يرقى إلى جعل العقل مناطَ التكليف وعنصر التفكير والتأمل، وهذا هو الأساس الآخر المتفرع عن الإيمان.

جـ- العقل المفضي إلى المعقول: يعتبر كولن العقل مركز حراسةٍ للروح باعتباره موجِّهًا للإنسان إلى التفكر والإدراكِ والفهمِ ومانعًا له عن القبائح وحاثًّا له على المحاسن (ص:٧٢)، وعقيدة التوحيد في القرآن الكريم موافقة للعقل، لذا نجد الله تعالى يحيل كل المسائل التي يتناولها في القرآن الكريم، عدا أوامره التعبدية المتعالية، إلى العقل والمنطق والتفكر والتأمل. كما يرشد القرآن الكريم في كثير من آياته إلى المعقول الذي يربط الخلق بخالقه، ويدعو إلى التعقل والتفكر والتعمق في الإيمان والإثراء في المعرفة. فالعقل المتفكر المتأمل في النفس والكون، يؤدي إلى تفتُّح الحواس وفاعليتها لتؤدي وظيفتها الحقَّة، أما تعطيلها فهو يفضي بانتقال الإنسان من آدميته إلى صورة أخرى يفقد فيها خصوصيته ومعقوليته، وبالتالي لن يستطيع المسلم تحقيق غايته في البلاغ والنهوض بالأمة، في مجتمع موسوم بالجمود العقلي والفكري كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف: ١٧٩).

ويفصل في مفهوم المعقول بمقارنته باللامعقول فيقول: "هو قراءة الوجود والأشياء، والتفكيرُ بها وتقويمها. ومن بَعدِ التقويم ربطُها بوشائج الإيمان والمعرفة والخالق. واللامعقولُ: هو إسناد كل شيء من الأشياء وكلِّ حادثة من الحوادث إلى الأسباب المختلفة

أو الطبيعة أو أمور أخرى. المعقول: هو استغناء الخالق وجودًا وتوحيدًا عن الشريك والنظير والمُعين؛ وغيرُ المعقول: هو فكر الشرك والإلحاد بصوره وأشكاله كافة. المعقول: هو ضرورة الأنبياء والرسل المرسَلين من الله إلى البشر لشرح الأشياء والحوادث وتفسيرِ الوجود وربطِه بالحقيقة المفردة؛ وغير المعقول: هو رد النبوة والرسالات الإلهية." (ص:٧٤-٧٥). ويستند الأستاذ كولن في هذا الأساس على شيخه بديع الزمان النورسي، الذي حثَّ بإصرار على "قراءة كتاب الكون واستشراف آفاقه والتطلع إلى معرض الوجود. وحثُّه هذا تعبير عن المفهوم المتوارث من ممثلي المعقول: الأنبياء والأصفياء والأولياء وعلماء الإسلام. ومع استحضار اختلاف الخط حسب الزمان، كان محتوى الرسالة والطريق المتبعة واحدًا لا يتغير: التحري المستمر في الأرض والسماء. وخَضُّ الأشياء واستبطان مغازي الأشياء والأحداث. وتسليمُ كل الأشياء إلى مالكها الحقيقي. وبعد ذلك، الإحساسُ باطمئنان هذه المعقولية في الوجدان، وتحوُّلُ العلوم المؤدية إلى المعرفة: كل علم إلى نبع يُروي الذوق الروحاني. ومن ثم، تقاسُمُ مَنْ في الأرض ومَنْ في السماء تلك الحالَ الروحية (ص:٧٢-٧٣).

٢- الهدف

إن الانبعاث الحضاري ينبغي أن يكون له جناحان كي يطير نحو آفاق الله: الطاقة الإيمانية وشحن النفوس بها، وتثبيتها بمرتكزاتها الأساسية، ثم وضوح الرؤية والهدف، بحيث يكون للإنسان هدف محدد يريد الوصول إليه، حتى لا تستنزف مجهوداته الأهداف الفرعية أو الهامشية، أو تبعده عن مساره الصحيح. ويوقن فتح الله كولن بأن "المجتمعات التي لا توجد

nesemat.com نسمات nesemat.com

الأمة اليوم "أمام أحد خيارين، إما الكفاح المصيري في الهمة والذي يؤدي بنا إلى الانبعاث، وإما الخلود إلى الراحة والاسترخاء الذي يعني الاستسلام للموت الأيدي.

لها أهداف سامية ومُثُلٌ عليا، أو وُجِدت ولم تمتلك معهما جاهزية ذهنية تناسبهما، تجدها تتحرك باستمرار، لكنها لا تقطع شوطًا، لأن قطع الأشواط يتطلب -منذ البداية- تعيينَ هدف سام يوقره الوجدان ويُرغِّب فيه الانسياق الذاتي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة، ثم توجيه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة" (ص:٤١). وليس هناك هدف أسمى من "إعداد أجيال مثالية مستهدِفة إنشاء أمة عظيمة" (ص:٤٣)، ويستلهم هذا الهدف السامي العام من عصر النبوة فيقول: "ففي عصورِ تخبط الإنسانية في الظلمات، كان أهم مصادر القوة لتلك الثلة من المجاهدين الأوائل المنبثقة من صدر الصحراء هو إيمانهم وغايتهم المأمولة في تفريغ إلهامات إيمانهم الفوارة في قلوبهم أبدًا إلى صدور الآخرين. فبحملة واحدة بدلوا مصير الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوت الأمل ونَفَسه في ثلاث قارات" (ص:٤٥). والمقصود بنوال الهدف هو رضا الله ﷻ. ويتفرع عن هذا الهدف السامي مجموعة من الأسس المهمة التي يرتكز عليها، منها:

أ- العمل: منذ العنوان الرئيس والأستاذ كولن

إن الإيمان هو المقوم الأول الذي يغرسه كل الأنبياء والمصلحين من أجل البناء الحضاري، لأنه متى استقر في النفس ووقع تجديده كل حين، أحدث قوة دافعة لتحقيق غاية وجود الإنسان في هذا الكون،

nesemat.com نسمات nesemat.com

يوحي بضرورة تكثيف الجهد والعمل، فكلمة "نبني" تكشف عن رغبة في جعل العمل أساسيًّا لبلوغ أهدافنا، و"المؤمن المسلم من يجعل الإيمان بهذا الدين إحياء لحياته" (ص:١٧٥) بالعمل لأنه يحتسب كل عمل من ضرورات السبيل لكسب رضا الحق تعالى(ص:١٨٣). والعمل والبناء يجب أن يقام على الإنسان والأخلاق والتعليم والثقافة بكد وجهد، أما استكشاف طرق سهلة ورخيصة للحصول على نعم الحضارة وتقاسمها لا يجدي سوى تراوح الأمة في مكانها لا تبرحه" (ص:٢٠).

ب- البيئة: إن البيئة بالنسبة للإنسان تتحدد في عنصرين رئيسيين هما: العنصر المادي، أي كل ما استطاع الإنسان أن يصنعه كالمسكن والملبس ووسائل النقل والأدوات والأجهزة التي يستخدمها في حياته اليومية، والعنصر المعنوي الذي يشمل عقائد الإنسان وعاداته وتقاليده وأفكاره وثقافته وكل ما تنطوي عليه نفس الإنسان من قيم وآداب وعلوم تلقائية كانت أم مكتسبة، ويقصد بها الأستاذ كولن هذا العنصر المعنوي، من هنا تعد البيئة من أهم أسس البناء الحضاري التي تنتج ثمار الأهداف. وقد أهَّل الإسلام الإنسان لإنشاء البيئة الصالحة من فكر وثقافة ونظم ومؤسسات تعليمية ومدنية لخدمة المصالح البشرية، فإذا لم تكن البيئة صالحة تثير العشق العلمي وتلهب العزائم على السعي والإنجاز، وتشجع على ذلك، وإذا لم تكن منسوجة بتراث الأمة الثري فإنها لن تنتج سوى العجز والفشل والتبعية، ذلك أن "النجاحات الخارقة للعادة، المتحققة أمس واليوم، والتكوينات العالمية الكبرى، مرتبطة -إضافةً إلى عبقرية الأفراد ونبوغهم- بالبناء الاجتماعي المولدِ للعبقرية، والوسطِ المناسب لتنشئة المكتشِفين، والبيئةِ العامة الحاضنة للقابليات" (ص:١٧)، ولن يثمر أي جهد أو عمل أو عبقرية إذا لم تُيسَّر لها البيئة الملائمة المنسجمة مع مقومات الأمة الذاتية والمتوافقة مع رؤيتها ومبادئها الحضارية" (ص:١٦١).

"فإن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من جديد، ونبحثُ عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، والمبرمجةِ على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتَّبع -بالضرورة- سبيلا يُمكّننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي، وفلسفتنا الذاتية في الحياة، على نسيجنا الحضاري الخاص" (ص:١٥).

جـ- الوحدة: إن الإنسان يعيش في وسط اجتماعي يتأثر به ويؤثر فيه، ولا يمكن أن ينسج علاقات مع أفراده إلا إذا كان هناك نوع من التوافق النسبي على التعايش ضمن مجموعة من القيم والمبادئ المشتركة، كما أن أي بناء لن يرتفع ويقوى إلا بتكاثف الأفراد وتضامنهم. وقد نبه الأستاذ كولن إلى هذا الأساس، وذكر أنه "إذا تكاتفت أمة بفئاتها المختلفة وأصبحت كـ"البنيان المرصوص" كما وصَفَها مفخرة الإنسانية ﷺ، وسَخَّرت قوتَها وطاقتها في سبيل تكوين البناء الداخلي وتناغمه، فإن الحَزْن سيصير سهلًا، وسيكون من الطبيعي أن تأخذ تلك الأمة طريقها لتكون عنصرًا فاعلًا في التوازن

الدولي" (ص:٣٤)، وهو أمر منوط بشروط لا غنى عنها لتحقيقه، منها أولاً تحصين المجتمع بثقافة ذاتية مبنية على "قيم أخلاقية تتغذى وتتنفس بها، مستندة بقوة الدين القاهرة، ومتخطية بالاستناد إليها كلَّ أشكال التغريب"(ص:٣٤). وثانيًا ضبط الهدف الذي يدفع الناس نحو الحماس والتحرك بضوابط تحقق الانسجام والتوافق في الأمة، لأن "الهمم والحملات الفردية، إنْ لم تنضبط بالحركة المشتركة ولم تنظم تنظيمًا حسنًا، ستؤدي إلى تصادم بين الأفراد لا محالة. فيختل النظام، وتنهض كل حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتُنقِص كل عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر" (ص:٤٦). ويحذر من خطورة التحرك الفردي مهما كان خالص النية وصالحًا فيقول: "ولا يغترنّ أحد بحيوية الحركات ونشاطها كلاًّ على حدة مهما بلغت، إن لم ترتبط أجزاء التكامل والتوازن بمنظومة أقوى وأمتن؛ فربما لا تسند بعضها بعضًا في خط المقصود العام، فتولد أحيانًا نتائج أشد سوءًا من السكون والجمود" (ص:٤٧). ويُرجع دوافع الميل إلى التحرك الفردي في الإنسان إلى الأنانية المتأصلة فيه وثقته المفرطة بنفسه، وقصور فهمه لحدود قدرته، وقصور إدراكه لمدى تأثير روح التوحد والتجمع والفعاليات المشتركة والوفاق والاتفاق في جلب العناية الإلهية" (ص:٤٧).

إن في الكتاب مجموعةً من المعالم المضيئة، التي تشع بإشارات ودلالات مكتنزة بفيوضات تسري في أعماقنا، وتشحنها بطاقات تجدد خلايا تفكيرنا ومعارفنا، وتحفزها على البحث عن سبل ووسائل تبلغنا غايات التمكين لهذه الأمة. وهي جزء من منظومة فكرية تأملية، لرائد الخدمة الإيمانية في تركيا، تقتفي خطى المصلحين الصالحين، لتجديد الإيمان في نفوسنا ولإحياء هذه الأمة وانبعاثها، بتهيئة وتربية النماذج الإنسانية المجهزة بالقوى الروحية والمعنوية والمادية التي تستطيع اختيار الخير والحق والجميل والصحيح، فيشرفها الله تعالى بوراثة الأرض وبالخلود في الفردوس. واهتمام كولن بالأسئلة المحورية عن مقاصد الوجود الإنساني، واستجابته للتحديات الصعبة، تنطلق من رؤية شمولية موغلة في عمق العبودية لله ﷻ ومطلب رضاه، نَسجَها بشغاف القلب ورحيق الروح، تنطلق من الواقع دون أن تتقيد به إلى آفاق الانبعاث الحضاري وتكوين المجتمعات الصالحة التي لن تتحقق إلا بإعادة صياغة الإنسان صياغة ربانية.

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاك، وأسأل الله أن يبصرنا أمور ديننا ودنيانا، وأن يجعل هذا الكتاب في ميزان حسنات الأستاذ كولن، والحمد لله رب العالمين الذي بحمده تتم الصالحات. ■

المجتمعات التي ليس لها أهداف سامية ومُثُلٌ عليا، أولم تمتلك معهما جاهزية ذهنية تناسبهما، تتحرك باستمرار لكنها لا تقطع شوطًا، لأن قطع الأشواط يتطلب تعيينَ هدف سام يوقره الوجدان ويُرغِّب فيه الانسياق الذاتي في نشوة كنشوة العبادة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

المراجع

(١) كل أرقام الصفحات معزوة إلى كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ محمد فتح الله كولن؛ ترجمة الأستاذ عمر عوني لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر القاهرة، مصر، ط٢، ١٤٣٣هـ-٢٠١١م.

المسار التعليمي لأحد شباب حركة الخدمة
دراسة للمباحث التربوية البارزة

صامويل د. هنري

أ.د. صامويل د. هنري، دكتوراه في التعليم الحضاري من كلية المعلمين بجامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية مع دراسة ميدانية حول الالتقاء الثقافي بالمدارس الثانوية المتعددة الإثنيات. عمل عميدًا بكلية العلوم الاجتماعية في جامعة كولورادو. و هو كذلك عضو في المجلس الاستشاري لمركز بورتلاند التركي الأمريكي. ومنذ عام ١٩٩٩ بدأ نشاطاته الدولية في شكل زيارات ومؤتمرات ومحاضرات في أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا وأوروبا والشرق الأوسط وشرق أفريقيا.

يهدف هذا البحث إلى "سرد" المسار التعليمي لأحد الشباب كما تبدَّى في ثلاثة أسئلةٍ رئيسية:

١- ما قصة المسار التعليمي لهذا الشاب الذي يُقيم ويدرس حاليًا بالولايات المتحدة؟ كيف تلقَّى تعليمًا "نظاميًّا" والتحق بمدارس الأستاذ كولن؟ وهل تُعتبر قصته نموذجًا لشباب آخرين يعيشون أوضاعًا مماثلة؟

٢- كيف تجلَّت العدالة الاجتماعية والمشاركة الديمقراطية والتسامح الديني -كواحدةٍ من أفكار حركة كولن- في تجربة هذا الشاب؟

٣- كيف أثَّر التحاقه بحركة كولن على رؤاه التعليمية؟ وما الوقائع البارزة والفعاليات والأنشطة التربوية التي انعكست على تصوراته للعدالة الاجتماعية والمشاركة الديمقراطية والتسامح الديني؟

وقد نجمت هذه الأسئلة عن بحث يستنطق السردية كوسيلةٍ لفهم كيف يُمكن لتَتابُع أحداث الحياة أن تصوغ منهجًا تعليميًّا له القدرة على إحداث التغيير، وكمحاولةٍ لتعقُّب وإلقاء الضوء على نموذجٍ حياتيٍّ يرتبط بحركةٍ اجتماعيةٍ دينيةٍ وفلسفية.

أصبح التأثير الإيجابي لتجربة حركة فتح الله كولن التربوية باديًا لبعض وسائل الإعلام الكبيرة، تلك التجربة التي تفيد من خبرة الغرب العلمية ومعارفه في مجال العلوم الاجتماعية وتُبقي في الوقت نفسه على أنماط الحياة الدينية الإسلامية. (صحيفة نيويورك تايمز، ٨ من يناير ٢٠٠٨ - مجلة الإيكونوميست، ٦ من مارس ٢٠٠٨).

وفي الولايات المتحدة، لاقى المُتَبَنُّون لهذه الأطروحة نجاحًا متزايدًا داخل أوساط الأكاديميين الأمريكيين والزعماء الدينيين، مُشيرين إلى تجربة تربوية مشابهة جرت في تركيا، الموطن الأصلي للأطروحة. تلك الدولة التعددية الديمقراطية الحديثة التي طالما كانت ملتقى لمختلف الحضارات، فضلاً عما قدمته من نماذج التسامح الديني منذ أمد بعيد.

وقد حظي مجموعةٌ من الزوار الأمريكيين -بمن فيهم كاتب هذا البحث- بفرصة زيارة بعض مؤسسات التعليم ما قبل الجامعي والتعليم العالي التي تعمل في إطار المنظومة التعليمية القومية التركية، والتي تدعم مقاربات عمل قائمة على إشراك المجتمع المحلي، والتي تُعزز ما تُسميه نودينجز (٢٠٠٢) رعاية الآخرين وزرع الثقة (ماركوفا وجيليسبي، ٢٠٠٧)، فضلاً عن تعزيزها احترامَ شتى الأعراق والثقافات واللغات وأنماط الحياة، وهو ما يندرج عادةً ضمن النقاشات التي تتناول التنوع بوصفه فرعًا من العدالة الاجتماعية (نودينجز، ٢٠٠٢ - هنري، ١٩٩٩، ٢٠٠٣).

ويتناول هذا البحث قضية التأهل للريادة المجتمعية، مع الإشارة إلى مسائل العدالة الاجتماعية التي تتبدَّى في نوعية التعليم الذي يتلقاه المشاركون في حركة كولن، ويستعمل بياناتٍ نوعيةً مُجمَّعةً، كاشفًا

إن الآباء يبعثون الأبناء إلى مدارس كولن بسبب تفاني المُعلّمين، وجودة المناهج، والرؤية الشاملة التي يوطدون دعائمها فيما يتعلق بالإنسانية والتسامح التربوي والحوار.

nesemat.com نسمات nesemat.com

عن أنماط مهمةٍ في دراسة موضوع التعليم تقود إليها هذه البيانات.

وقد وُضعت دراسة الحالة -التي أبرزَها تحليلُنا للبحث- بحيث يجري استخدامها كوسيلةٍ تعليمية: ١-توفير المعلومات. ٢-إثارة النقاش. ٣-اقتراح مزيد من القراءات والتجارب المُعاشة لطلاب الدراسات العليا في فصول التعليم الدولي المقارن.

وبينما عكف أصلان دوغان على دراسة النماذج التربوية للأستاذ كولن، رابطًا بينها وبين باندورا وفيجوتسكي وبافيو، فإن هذه الدراسة (نييتو، ١٩٩٦، ٢٠٠٢، ٢٠٠٧ -ميرسيث، ١٩٩٥ -ميريام، ٢٠٠٤) تهدف إلى بسط المسار التعليمي لأحد الشباب كما تجلَّى في مواجهة قضايا العدالة الاجتماعية والتسامح الديني والمشاركة التبادلية في التعليم.

أسئلة البحث

مُتَّبعًا منهجيةً نوعية (نييتو، ١٩٩٢-٢٠٠٢-٢٠٠٦، ميرسيث، ١٩٩٥)، يهدف هذا البحث إلى "سرد" المسار التعليمي لأحد الشباب كما تبدَّى في ثلاثة أسئلةٍ رئيسية:

١- ما قصة المسار التعليمي لهذا الشاب الذي يُقيم ويدرس حاليًا بالولايات المتحدة؟ كيف تلقَّى تعليمًا "نظاميًّا" والتحق بمدارس الأستاذ كولن؟ وهل تُعتبر قصته نموذجًا لشباب آخرين يعيشون أوضاعًا مماثلة؟

بداخلنا -نحن البشر- قدرةٌ على بلوغ الكمال البشري، وحُقَّ لأولئك الذين يستوعبون هذا الكمال داخل نفوسهم ويُحققونه فيها أن يؤثروا في مجتمعاتهم، حكاما كانوا أم مستشارين أم زعماء محليين.

nesemat.com نسمات nesemat.com

٢- كيف تجلَّت العدالة الاجتماعية والمشاركة الديمقراطية والتسامح الديني كواحدةٍ من أفكار حركة كولن في تجربة هذا الشاب؟

٣- كيف أثَّر التحاقه بحركة كولن على رؤاه التعليمية؟ وما الوقائع البارزة والفعاليات والأنشطة التربوية التي انعكست على تصوراته للعدالة الاجتماعية والمشاركة الديمقراطية والتسامح الديني؟

وقد نجمت هذه الأسئلة عن بحث يستنطق السردية كوسيلةٍ لفهم كيف يُمكن لتَتابُع أحداث الحياة أن تصوغ منهجًا تعليميًّا له القدرة على إحداث التغيير، وكمحاولةٍ لتعقُّب وإلقاء الضوء على نموذجٍ حياتيٍّ يرتبط بحركةٍ اجتماعيةٍ دينيةٍ وفلسفية. كما أنها تنبع من الرغبة في معرفة الدور الذي لعبته العدالة الاجتماعية من المنظور القومي/المجتمعي التركي، والرغبة في معرفة رسالة حركة كولن فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية.

المنهجية النوعية (Qualitative)

رغم أن جمع البيانات النوعية قد صار له ما يقرب من خمسين عامًا من البحث في حقل التعليم بوصفه -أي التعليم- موضوعًا للدراسة، ومائة عامٍ في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، إلا أن الاعتماد على جمع البيانات الإثنوغرافية وتحليلها من أجل إجراء "دراسات حالة" في مضمار التعليم لم يُعرف إلا بعد ذلك بوقتٍ طويل.

ومن أجل إتمام هذه الدراسة، وُظِّفت بعض المنهجيات التقليدية لجمع البيانات، مثل:

١- ملاحظة المُشارك. ٢- الاعتماد على مزودي المعلومات الرئيسيين. ٣- إجراء المقابلات: سواءً المُعدَّة سلفًا أو غير المُعدَّة سلفًا. ٤- جمع تواريخ حياة الأشخاص. ٥- فحص آثار الأشخاص. ٦- جمع البيانات المصوَّرة. ٧- تحليل الحدث. ٨- الاستفادة من الإجراءات غير المباشرة.

وخلال هذه الحالة موضوع الدراسة، عمل الكاتب كملاحظٍ مُشارك، وكذلك مهَّد الطريق لإجراء المقابلات مع العيِّنات، وإعداد تقارير الخطة، ومحاضر العمل، وغيرها من الوثائق اللازمة للبحث. علمًا بأن للكاتب خبرةً سابقةً في جمع البيانات النوعية وتحليلها تبلغ زهاء ثلاثين عامًا.

ويُمكن لجمع البيانات النوعية المُفضي إلى دراسة الحالة أن يُساعد في توضيح تفاعلات القوى الاجتماعية في سياقاتها الميدانية، وأن يُسهم في الوقت نفسه في إيضاح ما بينها من علاقات السبب والنتيجة من خلال التحليلات الميدانية الوثيقة.

وتقترح نييتو (٢٠٠٠) إمكانية أن تَحُل المُعطيات الإثنوغرافية محلَّ النظرة النفسية التي ارتأى النقدُ منذ سبعينيات القرن العشرين وما بعدها أنها مُحملةٌ بكثرةٍ من الافتراضات الثقافية الأوربية الغربية، ومن ثَمَّ إمكانية الحصول على بياناتٍ تخلو نسبيًّا من الانحياز الثقافي، شريطة أن تتسم بكونها:

أ- تخصيصية: أي أن تتناول شخصًا واحدًا/مجموعةً اجتماعيةً واحدة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن عُمَر وغيرَه من شباب جيله -بدراستهم للتاريخ- قد كشفوا عن إدراكهم لبعض الأدوار التي لعبها التاريخ التركي في خلق أمةٍ تتسم بالتنوع، كما دل ذلك على استيعابهم لرؤية كولن حول الحوار والانفتاح على وجهات نظر الثقافات الأخرى.

بـ- وصفية: أي أن يكشف الناتج عن أغوار السلوك البشري.

جـ- كشفية: أي أن تُزودنا بفهمٍ أعمق.

د- استقرائية: أي أن تنشأ الفرضيات من البيانات ذاتها.

وهو ما يعني أننا نفيد من جمع البيانات النوعية هاهنا في طرح أسئلة البحث ورسم أبعاد حالةٍ تصلح للدراسة الأكاديمية، وهي حالةٌ تخصيصيةٌ وصفيةٌ كشفيةٌ استقرائية.

وقد كانت لسونيا نييتو من جامعة ماساشوسيتس، أمهرست، (١٩٩٦، ٢٠٠٠، ٢٠٠٧) قصب السبق في استغلال جمع البيانات النوعية بغرض وضع دراسة حالة تبحث مسألة الاحتكاك الثقافي في التعليم، وكانت نييتو قد ارتأت أن من شأن دراسة الحالة أن تُتيح الفرصة لفهم قضايا الاحتكاك الثقافي في المنظمات التعليمية، مع إمكان تحليل هذه القضايا في سياقاتها الثقافية والمجتمعية.

وذلك فيما تذهب ميرسيث إلى التأكيد على جدوى دراسة الحالة في هذا الصدد؛ كَوْن الحالة: "وثيقة بحثية وصفية، غالبًا ما يكون أسلوبها سرديًّا، تستند إلى مواقف أو أحداث حياتيةٍ واقعية، وتسعى إلى تقديم تمثيلٍ متوازنٍ متعدد الأبعاد لبيئة العمل والمشاركين والواقع الفعلي للأوضاع". . وتُضيف ميرسيث قائلة: "إنما تُعيَّن هذه الحالات التي تستحق الدراسة أساسًا بغرض طرحها للنقاش، وهدفها أن تتضمن قدرًا وافيًا من التفاصيل والمعلومات؛ بغرض تحفيز الباحثين ذوي وجهات النظر المتباينة على استخلاص التحليلات والتفسيرات. وهو ما يعيد التأكيد على ثلاث خصائص رئيسيةٍ تتسم بها: أ- أنها واقعية. بـ- أنها تعتمد على دراسة وبحث دقيقين. جـ- أنها تُعزِّز من إمكانية تكوين الباحثين لوجهات نظر متعددة. (ميرسيث، ١٩٩٦).

وكان آخرون قد لجأوا إلى استخدام هذه المنهجية؛ لأنها تُتيح فرصة دراسة التعليم بوصفه شكلاً من أشكال التطور البشري منظورًا إليه في إطار تعقيداته الاجتماعية والثقافية بما تتضمنه من بُنى اجتماعية متعددة. (هنري، ١٩٩٩)

وهكذا يقوم هذا البحث على استغلال المنهج النوعي الذي يُلجأ إليه لمساعدتنا في فهم مجموعة من الأنماط التعليمية داخل سياقاتها.

جمع البيانات

يُوضح الباحث هنا الطرق التي تَوسَّل بها هذا البحث لجمع البيانات، وأهمها: ملاحظة المُشارك، والاعتماد على مُزوِّدي المعلومات، وإجراء المقابلات المُعدَّة سلفًا وغير المُعدَّة سلفًا، وجمع تواريخ حياة الأشخاص، والإثنوغرافيا الفوتوجرافية، وتحليل الحدث، وتحليل آثار الأشخاص. وقد جُمعت البيانات -بما في ذلك الملاحظات المكتوبة والصور- وخضعت للتحليل، ولُوحظت الأنماط المترتبة على هذه البيانات وطوبقت بنتائج الملاحظات واللقاءات اللاحقة.

ولإتمام هذه الدراسة، اتُّبعتْ ثمانية أساليب رئيسية لجمع البيانات النوعية، وجرى استغلال كل واحد من هذه الأساليب خلال التحليل البحثي لوصف النتائج

أصبح التأثير الإيجابي لتجربة حركة كولن التربوية باديًا لبعض وسائل الإعلام الكبيرة، من حيث الإفادة من خبرة الغرب العلمية ومعارفه في مجال العلوم الاجتماعية وحفاظهم في الوقت نفسه على أنماط الحياة الدينية الإسلامية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

وتطوير الدراسة السردية لحالة شابٍّ في طريقه للتحول إلى أحد رواد مجتمعه المحلي (راجع المُلحق أ)، علمًا بأن لكل أسلوبٍ من هذه الأساليب تقنياته الخاصة لجمع البيانات وطرقه المختلفة في التحليل والتفسير. وجميعُها مُدرَجٌ بالأسفل، كلٌّ أسلوبٍ على حده.

النوع، الوصف، البيانات البحثية المُجمَّعة

ملاحظة المُشارك: يشترك الباحث في ملاحظة المجموعة موضوع الدراسة وجمع البيانات عنها والانخراط في أنشطتها، ويحضر فعالياتها كشاهد عيان، ويتابع تفاعلها بعضها مع بعض:

- ١٩٨٢ رحلة إلى تركيا استغرقت ٩ أيام (برنامج دراسة المرأة الإيجيَّه نسبة إلى بحر إيجه).
- ٢٠٠٧ رحلة إلى تركيا استغرقت ١٢ يومًا (حركة كولن/إحدى مراكز المجتمع المحلي).
- زيارات متعددة لمراكز بالمجتمع المحلي.
- زيارات متعددة لمنازل مواطنين أتراك.
- وجبات عَشاء متعددة على شرف أعضاء من حركة كولن.
- لقاءات متعددة مع أعضاء من حركة كولن في سياقات أخرى.
- نقاشات متعددة مع مواطنين أتراك لا يتبعون حركة كولن.

الاعتماد على مُزوِّدي المعلومات

مُزَوِّدو المعلومات هم أعضاء في المجموعة بوسعهم النفاذ إلى حياتها، راغبون في مشاركة خبراتهم ورؤاهم ووجهات نظرهم وما اكتسبوه من خلال احتكاكهم بالآخرين، إلى جانب مشاركة منظومتهم الإدراكية وتفسيراتهم لسلوك المجموعة:

- نحو ٥٠٠ ساعة من الاحتكاك المباشر والنقاش الذي ترتب عليه إجراء مقابلات غير مُعدَّة سلفًا (عفوية) مع أشخاص ينتمون للحركة.

المقابلات المُعدَّة سلفًا والعفوية: فرصة لجمع البيانات من خلال الأسئلة.

- أكثر من ٢٠ ساعة من المقابلات الرسمية.
- أكثر من ١٠٠ ساعة من المقابلات العفوية/غير الرسمية (٧٥ ساعة منها داخل تركيا).

تواريخ حياة الأشخاص: جمع البيانات يُفسر سلوك المجموعة من خلال المشاركين، ويساعد الباحث في التوصل إلى النتائج (التركيبة الاجتماعية) أو وضع البيانات في سياقاتها الاجتماعية وداخل إطارها الزمني

- تم جمعه وتسجيله من شخصٍ اسمه "عُمَر" (وهو اسمٌ تخيليٌّ لأحد المستجيبين لأسلوب جمع البيانات الخاصة بتواريخ حياة الأشخاص).

الإثنوغرافيا الفوتوجرافية: تقنية لتسجيل البيانات تُزوِّدنا بطريقةٍ يُمكننا من خلالها أيضًا أن نفسر سلوك المجموعة.

- أكثر من ٥٠ صورة فوتوجرافية من رحلة إلى تركيا في عام ١٩٨٢.
- أكثر من ٤٠٠ صورة من رحلة إلى تركيا خلال عام ٢٠٠٧.
- أكثر من ٢٥ صورة لبعض فعاليات وتجمعات

المجتمع المحلي.

تحليل الحدث: محاولة للتحقق من الأحداث وأهميتها ومغزاها كما رآها شهود عيان مختلفون.

- أكثر من ٣٠ فعالية جرى تحليلها

تحليل الآثار: تُخلِّف جميع التصرفات البشرية وراءها آثارًا، مثل: الوثائق، والقُصاصات، والنفايات. إلخ التي تخبرنا ببعض الأشياء عن التاريخ السلوكي.

تُجمَع هذه الأشياء وتُشكِّل جزءًا من السردية، أو قد تدفعنا إلى تساؤلات تحتاج بدورها إلى مزيدٍ من جمع البيانات

- كُتُب، كتابات، وثائق، مقالات، استمارات

الإجراءات غير المباشرة: مؤشرات للسلوك تُزوِّدنا هي نفسها بالمعلومات.

- في مواقف متنوعة

وقد أثمر هذا التجميع البياني والجهد التحليلي عن أربعة أنماط تكَشَّفَت بوصفها نتائج للبحث.

النتائج: أنماط المباحث التعليمية والعدالة الاجتماعية.

جرى بحث البيانات المنبثقة عن جمع البيانات النوعية للكشف عن أنماط يكون لها تأثيرٌ على التعليم الرسمي وغير الرسمي، فظهرت أربعةٌ منها: ١- الدعم العائلي الذي يهدف إلى تعزيز سمات القيادة والتحصيل العلمي. ٢- دور حركة كولن في خلق البيئة التربوية وتشجيعها. ٣- شعور الشخص موضوع الدراسة بمقاصد وأهداف واجباته تجاه المجتمع. ٤- الدعم الذي يُقدِّمه السياقان الثقافي والقومي في تركيا للتنوع.

علمًا بأن وجود أحد هذه الأنماط لا يعني بالضرورة غياب بقيتها، بل قد توجد معًا مجتمعة. وفيما يلي، سنناقشها كلًّا على حدة:

تناول هذا البحث بالدراسة أربعة أنماطٍ بارزة تتمثل؛ في الدعم العائلي، ودور حركة كولن، وإحساس عُمَر بمقاصد وأهداف واجباته تجاه المجتمع، ودعم السياق التركي للتنوع.

nesemat.com نسمات nesemat.com

١- الدعم العائلي

"لدينا نحن البشر بداخلنا قدرةٌ على بلوغ الكمال البشري، ولا مفر لأولئك الذين يستوعبون هذا الكمال داخل نفوسهم ويُحققونه فيها من التأثير في مجتمعاتهم، سواءً كانوا من الحُكام أو المستشارين أو الزعماء المحليين. ولحدوث ذلك، لا بدَّ أن يتعلم الأشخاص تعليمًا ملائمًا يشعرون بالرغبة فيه. إنهم يسعون إلى تثقيف شبابهم من كافة شرائح المجتمع؛ حتى يكونوا على قدرٍ عالٍ من التمرس والفضيلة". (كارول، ٢٠٠٧).

يعكس هذا الاقتباس من أدبيات حركة كولن ما للدعم العائلي من أهمية. ولمَّا تتبَّعنا مسيرة حياة "عُمَر"، وجدناه قد نشأ في كنف عائلةٍ يغلب عليها شعور الفخر بانتمائها إلى وطنها. وقد لعبت أمه – على وجه الخصوص– دورًا واضحًا في تقديره للتحصيل العلمي، لدرجة تضحيتها بابنها ذي الأربعة عشر ربيعًا المتمثلة في إرساله بعيدًا عن المنزل؛ ليتسنَّى له تلقي تعليمه الثانوي.

وفيما بعد، حين أُتيحت له فرص تلقي تعليمه الجامعي والدراسات العليا، تحمست أمه لمحاولاته المستمرة للدراسة والحياة وفقًا لما يسمونه "تطبيق الإسلام". فخلال حواراتٍ أُجريت مع الباحث في عام ٢٠٠٧، عاود كلا الوالدين تأكيد دعمهما الكامل لعُمَر

تناوُلُ العدالة الاجتماعية من خلال التعليم، يشتمل على أكثر من مجرد ترديد شعارات؛ فهو يتطلب تهيئةً مدروسةً لمناخٍ غير مُحتقن وغير مُنحازٍ ضد أحد الأعراق، مناخٍ يشتمل على تدابير تُجابه الانتهاكات واسعة النطاق.

nesemat.com نسمات nesemat.com

وثقتهما في قدرته على إحراز النجاح في التعليم، ولو في بلادٍ أخرى بعيدة، ما يعني أن الأم -في حالة عُمَر- قد أبانت عن هذه الصورة من صور الدعم بطريقةٍ لا يُخامرها الشك. هذا الدعم العائلي -وبخاصةٍ من جهة الأم- تُسفر عنه البيانات بصورةٍ متكررةٍ وتؤكده الملاحظات.

إن كثيرين في الغرب، وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص، يفتقرون إلى فهم عُمق هذا الدور الجنساني (Gender Role) أو المكانة الاجتماعية التي تتمتع بها المرأة في المجتمعات الإسلامية؛ إذ غالبًا ما يدلف هؤلاء المتابعون إلى الموضوع مُحمَّلين بتصوراتٍ ثقافيةٍ مُسبَقة ومضللة، وبخاصةٍ فيما يتعلق بقضايا التمييز الجنساني الذي يعزون ممارسته إلى المؤسسات الدينية، بما يتضمنه ذلك من النظرة الشائعة إلى المرأة بوصفها "مهيضة الجناح"، والتي يرجع سببها إلى أوجه القصور التي تعتوِر المشاركة المجتمعية والعائلية للمرأة.

ولعل ما أوردناه من بياناتٍ في هذا الصدد جنبًا إلى جنب دراستنا لحالة عُمَر أن يُمكِّننا من البدء في إجراء تقصيّاتٍ ونقاشاتٍ تكون أكثر عمقًا حول دور المرأة في تركيا والدول الإسلامية، مع طرحها تساؤلاتٍ تتناول الدور الفعلي للمرأة، ومدى دينامية الأسرة المسلمة، ومدى أهمية دعم الأسرة للتحصيل العلمي.

٢- دور حركة كولن في تهيئة البيئة التربوية

"إن الفلسفة التعليمية لفتح الله كولن هي مصدر إلهام حركته، وهي فلسفةٌ -يُمكننا القول- ذاتُ أربعة أبعاد، أولها: أنها مقاربةٌ جديدةٌ للمشروع التعليمي ولمهنة التدريس. وثانيها: ما تتسم به من الغيرية والإيثار، أي إشاعتها لروح الرغبة في خدمة المجتمع داخل الأوساط التعليمية. وثالثها: هو البعد الاجتماعي الذي ينتظم المدرسةَ والأسرةَ ورعاةَ العملية التعليمية في علاقةٍ ثلاثيةٍ تُسدي خدماتها الإيثارية لصالح الإنسانية. وأخيرًا، فإننا نرى توليفةً تضمُّ كلًّا من القلب والعقل، والتراث والمعاصرة، والروحي والعقلاني". (أصلان دوغان وشتين، ٢٠٠٧).

في هذا البحث، نعتقد أن حركة كولن قد لعبت دورًا بارزًا في حياة عُمَر وغيره من الشباب، وفي نوعية تعليمهم منذ المرحلة الثانوية.

فأولاً: أتاحت الحركة لصغار الشباب فرصة التعرف إلى شبان يكبرونهم قليلًا كانت لهم أهميتهم بوصفهم قدوة ساعدوهم على الانخراط في المجتمع وقتَ كانوا يعيشون بعيدًا عن عائلاتهم، وتولوا شؤونهم، ووفروا لهم الرعاية والصحبة، وأبانوا لهم في أثناء فترة دراستهم عن احتضان العقيدة الإسلامية للتنوع.

وثانيًا: ساعدت الجهودُ التي بذلها شبابُ حركة كولن عُمَرَ وغيره من صغار السن على أن يلعبوا دورًا في تعليم رفاقهم (إستراتيجية تعليم الرفاق)، سواءً كانت المادةُ العلميةُ أكاديميةً أو دينيةً، وهو ما ساعدهم بدوره على اتخاذ القرارات التعليمية والمهنية الصعبة، وما حفز عُمَرَ بالأخص على أن يعتاد شيئًا فشيئًا لعبَ أدوارِ القيادة المتماسكة وسط أقرانه والطلبة الأصغر منه سنًّا.

ولا يبدو أن هذه الروابط داخل الحركة قد سعت إلى أن تحل محل العلاقات العائلية، بل ساعدت

بالأحرى على تعزيز تلك العلاقات، مع نسجها في الوقت نفسه شبكةً قويةً من الانتماء جرى استغلالها لإشباع الحاجة العاطفية.

ثم بعد إنهاء تعليمه الجامعي، واصل المنفقون في حركة كولن دعمهم لعُمَر في أثناء سفره إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراساته العليا، بينما كان يُطوِّر من أفكاره وأنشطته الداعمة للحوار بين الأديان وتعرفها على بعضها البعض بوصفه واحدًا من أبناء الحركة.

وقد كتب شُرَّاح حركة كولن قائلين: "إن أنشطة تعليم الرفاق بعضِهم بعضًا، هي واحدةٌ من الاستراتيجيات التي تلجأ إليها المدارس لخلق بيئةٍ تسود فيها ثقافة شراكة الأقران التي تنظر إلى النجاح الأكاديمي بعين الاحترام، وتسود فيها شراكة الآباء في العملية التعليمية". (أصلان دوغان وشتين، ٢٠٠٧).

وكانت عدة منظماتٍ تعليميةٍ قد أفادت من هذه العلاقة بين الأقران في دعم الرسالة التعليمية وتعزيزها.

وخلال الدراسة الأكاديمية لحالة عُمَر، يُمكن تركيز النقاش على اكتشاف كيفية تأثير استعمالات إيجابية أخرى للعلاقة بين الأقران على المنتوج التعليمي، كما ينبغي لهذا النقاش أن يحفز مزيدًا من إعمال الفكر في موضوع علاقات الأقران داخل المدارس، سواءً في تركيا أو في غيرها من المجتمعات.

٣- الشعور بمقاصد الواجبات وأهدافها تجاه المجتمع

تُعدُّ الدراية والتقدير المبكران للمشاركة المدنية، جنبًا إلى جنب استغلال المواهب الناضجة قياديًّا لتطوير الاستجابات المجتمعية للقضايا والمشاكل التي يواجهها أفراد كلٍّ من المجتمع المحلي والإقليمي أحدَ

nesemat.com نسمات nesemat.com

أنْ تكون مُربِّيًا يعني أن تُفتش داخل نفسك تفتيشًا عميقًا، وأن تُخضِع بعض ما تقبلته بوصفه الطريقة التي ينبغي أن تكون عليها الأمور للمساءلة، وأن تسلك سلوكًا مُغايرًا لدعم قيمة العدالة الاجتماعية.

الجوانب المهمة في تعليم الشباب، بمَن فيهم "عُمَر" الذي أوضح هذا الشعور بالواجب تجاه مجتمعه في طلب التحاقه بالدراسات العليا قائلًا: "إن تركيا دولةٌ ناميةٌ تتمتع بإمكاناتٍ هائلةٍ تتمثل في ثروتها من الشباب. وأنا أعتقد أن على كلِّ واحدٍ منا أن يُقدِّم شيئًا لمجتمعه". هذه العبارة التي أدلى بها عُمَر، والتي عاودت الظهور في أثناء إجراء المقابلات مع غيره من المُتطوعين للبحث، تعكس وجهة نظر حركة كولن بصورةٍ واضحة، إذ وفقًا للأستاذ كولن "تتمثل غاية التعليم في تلبية احتياجات الإنسان والمجتمع وحل مشاكل العالم". (أصلان دوغان وشتين، ٢٠٠٧).

ويظهر هذا السلوك من دعم المشاركة والانخراط بوصفهما أداءً للواجب تجاه المجتمع أو الأمة كأحد المبادئ الأساسية للحركة. وإذ يُشار إليه في أدبياتها باسم "الإيثار"، فإنه يتحدث عن خَلْق نماذج قيادةٍ مجتمعية، ويتجلَّى في توقع أن يقوم الشباب بإسداء خدماتهم للمجتمع.

وبتتبع مسيرة حياة عُمَر، وجدناها حافلةً بأمثلةٍ لهذا الشعور بالواجب، وبالأفعال التي تهدف إلى رد الجميل بغرض دعم المجتمع الذي ينتمي إليه.

ويرتبط هذا الإحساس بالواجب بممارسات التعليم والتعلم من خلال مستوياتٍ عدة؛ إذ تكشف قصة

يتطلب تناوُلُ العدالة الاجتماعية اتخاذ إجراءاتٍ مُحدَّدةٍ تعمل على إبراز السلوكيات المُفضية إلى تحقيق العدل ودعم هذه السلوكيات، وبخاصةٍ تلك التي تصب في صالح الجماعات التي حُرمت حقوقها الشرعية على مدار التاريخ.

nesemat.com نسمات nesemat.com

حياة عُمَر عن إحساسه بالواجب تجاه وطنه، وتجاه مجتمعه المحلي، وتجاه الإنسانية كافة، وجميعها تجلياتٌ حقيقيةٌ لتطلعاته. وبسبب هذه التطلعات، يلتزم عُمَر بصورةٍ واضحةٍ بدراسة الثقافات والأعراق واللغات الأخرى، فضلًا عما يُبديه من الالتزام العميق بإطلاق شرارة الحوار بين مختلف الجماعات المتباينة.

كما تبدَّى الشعور بالواجب في تضاعيف المناهج الدراسية للمدارس التي زرناها في تركيا[1]، وخلال لقاءاتٍ ومحادثات أخرى.

وقد نوقشت هذه الطبيعة التبادلية للعلاقة بين الفرد ومجتمعه وكيفية مساهمتها في خلق رأس المال الاجتماعي نقاشًا مستفيضًا في مجموعةٍ متنوعةٍ من المصادر الأخرى، مثلما فعل روبرت بوتنام في "أن تلعب البولينج وحدك". وأيضًا فإنه ينبغي لهذا النمط من النتائج أن يصبح موضوعًا للنقاش، مُستغلًّا حالة عُمَر، وأن يتحول إلى استقصاءٍ للتبادلية يُساعد على تأسيس العدالة الاجتماعية بوصفها مبحثًا للدراسة.

٤- دعم السياق التركي للتنوع

"لديَّ شغفٌ بالسفر وباستيعاب ثقافات العالم المختلفة". (عُمَر، في طلب التحاقه بالدراسات العليا في الولايات المتحدة).

"إنهم -الآباء- يبعثون بهم -الأبناء- إلى المدارس -التابعة للأستاذ كولن- بسبب تفاني المُعلمين، وجودة المناهج، والرؤية الشاملة التي تُوطد المدرسةُ دعائمَها -من خلال مُعلميها- فيما يتعلق بالإنسانية كافة، وبالتسامح التربوي، والحوار". (كارول، ٢٠٠٧).

يزخر التاريخ التركي بنماذج للتواصل الاجتماعي والثقافي، كما ينطوي على أمثلةٍ للسعي وراء المعرفة سعيًا يتجاوز الحدود السياسية ويُوسِّع من إطار التسامح الديني، ولكل ذلك أهميته لهذا البحث ولفهم المجتمع والتعليم التركيين في الوقت الراهن.

إن عُمَر وغيرَه من شباب جيله بدراستهم للتاريخ، ، قد كشفوا عن مواقف تدل بصورةٍ واضحةٍ على إدراكهم لبعض الأدوار التي لعبها التاريخ التركي في خلق أمةٍ تتسم بالتنوع، مثلما تدل على فهمهم واستيعابهم للدور الذي تعزوه رؤية الأستاذ كولن إلى الحوار والانفتاح على وجهات نظر الديانات والشعوب والثقافات الأخرى.

ومن الواضح أن المجتمع التركي اليوم هو مجتمعٌ بالغ التعددية، مجتمعٌ يتقبل الأشخاص ذوي الخلفيات العرقية والإثنية المتشعبة. وهو ما يدفعنا -في حالتنا تلك- إلى النظر إلى تاريخ المنطقة نظرةً مُغايرة، إذ تزخر كثرةٌ من ملاحظات الباحث المُستقاة من واقع خِبرته بالمواطنين الأتراك داخل تركيا وفي غيرها من البلدان الأوربية (كألمانيا وفرنسا والنمسا) والولايات المتحدة بالأدلة على وجود هذه التعددية وذاك التقبل، علمًا بأن الباحث شخصٌ أسود البشرة.

ومع الأسف، يُغفل قدرٌ كبيرٌ من مناهج تدريس التاريخ الأوربي الغربي وتاريخ الولايات المتحدة الإشارةَ إلى تاريخ تركيا والشرق الأوسط باعتباره عاملًا أسهَم في تطور مجتمعاتهم الخاصة. ثم إن مجرد الدراسة العابرة للإمبراطوريتين البيزنطية والعثمانية كفيلٌ

بالكشف عن جذور للتسامح الديني والعرقي كان لها أثرها الواضح على مسيرة التطور الأوربي. كما يشي استكشافنا لتاريخ نصف الكرة الغربية بوجود سوابق لنشوء مجتمعاتٍ تكاد تخلو من الصراع العرقي. ورغم ذلك، فقد وجد الباحث من واقع خبرته في التدريس والاحتكاك بالمدارس الأمريكية على مدى أربعة عقود أن مثل هذه المعلومات نادرًا ما يُشار إليها داخل مدارس الولايات المتحدة.

وكذلك يذهب بحثنا هذا إلى أن وجود إطارٍ أو سياقٍ لفهم قصص شباب حركة كولن إنما يُمثِّل جسرًا بين كون المجتمع التركي مجتمعًا متعدد الأعراق والثقافات وبين صيرورة إطار التعددية والتسامح هذا -بفضل تعاليم الأستاذ كولن- جزءًا من المُعطيات التي تؤدي إلى نشأة العدالة الاجتماعية والحوار الديني وتعزيزهما. وفي دراستنا هذه، يُمثِّل الدعم التركي للتنوع عنصرًا من عناصر كلٍّ من التركيبة النفسية القومية وتَقدُّم مسيرة عُمَر الواثقة في التعلم والقيادة.

تحليل البيانات: أهمية التعليم

يتناول هذا البحث بالدراسة أربعة أنماطٍ بارزة تتمثل في: ١- الدعم العائلي. ٢- دور حركة كولن.
٣- إحساس عُمَر بمقاصد وأهداف واجباته تجاه المجتمع. ٤- دعم السياق التركي للتنوع.

ونحن نفترض أن هذه الأنماط الأربعة تكشف عن وجود ثلاثة اتجاهاتٍ لها أهميتها من الناحية التربوية؛ إذ يُمكن لها أن تُسهم في إفادة الحقل التعليمي من هذا البحث. وأول هذه الاتجاهات هو نسق التعلم التحولي، وثانيها أهمية التعليم في إزالة الحدود والحواجز بين الأشخاص، وثالثها مُتعلقٌ بكيفية إدخال

nesemat.com نسمات nesemat.com

ساعدت الجهودُ التي بذلها شبابُ حركة كولن عُمَرَ وغيره من صغار السن على أن يلعبوا دورًا في تعليم رفاقهم إستراتيجية تعليم الرفاق، سواءً كانت المادةُ العلميةُ أكاديميةً أو دينية.

"التعليم من أجل القيادة" وتطبيقه.

التعلم التحولي

أدَّى واحدٌ من البحوث التعليمية البارزة إلى إكساب بعض أشكال الأنشطة التعليمية اسمَ "الأنشطة ذات الطابع التحولي". ولسنواتٍ عديدة، كرَّس المضمار التعليمي قدرًا وافرًا من الوقت لتشجيع المُعلمين على ممارسة التأمل الذاتي النقدي من خلال الكتابات التأملية، وتدوين اليوميات، وكتابة المذكرات حول تجارب الاحتكاك الثقافي إلخ، وهو ما أملَ خبراء التربية من ورائه إلى اكتشاف الصلة أو العلاقة بين ثقافة المُعلمين الخاصة والسياق الثقافي العالمي.

وكانت نظرية ميزيرو في التعلم التحولي (١٩٩١) قد زوَّدتْ خبراء التربية ببعض التبصُّرات حول تعليم الكبار، فقد ذهب إلى أن الأشخاص البالغين يدلفون من بوابة التفاعل مع العالم وهم مُحمَّلون بتجاربهم السابقة. وخلال سنوات التشكُّل، يُطوِّر الأطفال من طرقهم في رؤية العالم المحيط وفهمه. وهكذا، فبدمج هذه الخبرات السابقة من الرؤية والفهم مع طبيعة العالم المتغيرة بصفةٍ مستمرة، يُكوِّن البالغون وجهات نظرٍ جديدةً تُشكِّل ما يُعرف باسم "التعلم التحولي".

وكما تقترح نظرية ميزيرو، فإن عُمَر وأعضاء حركة كولن يستحضرون جميع تجاربهم السابقة والحالية في أثناء انخراطهم في العملية التعليمية. وبإفادتهم من

أتاحت الخدمة لصغار الشباب فرصة التعرف إلى شبان يكبرونهم ، ساعدوهم على الانخراط في المجتمع، وأبانوا لهم في أثناء فترة دراستهم عن احتضان العقيدة الإسلامية للتنوع.

nesemat.com نسمات nesemat.com

وسائلهم التأملية المُستقاة من دراساتهم الإسلامية، تلك الوسائل التي تُسلط الضوء على الخبرات الثقافية والمجتمعية، أمكن لعُمَر والآخرين تكوين وجهات نظرٍ مستمدةٍ من معرفتهم الثقافية الخاصة، وذلك بهدف إفادة الآخرين من خلال وجهات النظر الثقافية المتنوعة والمختلفة هذه التي تمدهم بالقوة. وفي حالة إذا لم ينظر المرء بعين التقدير إلى وجهات النظر المُغايرة لوجهة نظره الشخصية مثلًا، أو في حالة عدم انفتاحه على المعارف التي تُناقض قيمه الراسخة، فإن فرصه في تطوير معرفته بمختلف الثقافات أو درايته بالأطروحات المناقضة لموقفه من القضايا العالمية أو تَفَحُّصها تفحصًا جادًّا تكاد تكون منعدمة.

التعليم كتجلٍّ للعدالة الاجتماعية

تناوُلُ العدالة الاجتماعية من خلال التعليم يشتمل على أكثر من مجرد ترديد شعارات؛ فهو يتطلب تهيئةً مدروسةً لمناخٍ غير مُحتقن وغير مُنحازٍ ضد أحد الأعراق، مناخٍ يشتمل على تدابير من شأنها أن تضع خططًا وترسم سياساتٍ تُجابه الانتهاكات واسعة النطاق.

كما يتطلب تناوُلُ العدالة الاجتماعية اتخاذ إجراءاتٍ مُحدَّدةٍ تعمل على إبراز السلوكيات المُفضية إلى تحقيق العدل ودعم هذه السلوكيات، وبخاصةٍ تلك التي تصب في صالح الجماعات التي حُرمت حقوقها الشرعية على مدار التاريخ.

وعلاوةً على ذلك، فإن من شأن العمل على بلوغ العدالة الاجتماعية أن يُعزِّز من تطوير منهجيةٍ تشمل جميعَ الأطفال/جميعَ الأسر تتناولُ الممارسة التربوية وعملية رسم السياسات. (فريري، ١٩٧٠).

وهكذا يتطلب العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية داخل العملية التعليمية ما يلي:

- فهم ما تعنيه "الثقافة" وطريقة عملها في المجتمعات والمنظومات التعليمية والحياة السياسية.
- استيعاب كيفية تأثير العنصرية، سواءً في الحاضر أو الماضي، على السياسات والمنتوجات التعليمية.
- الدراية والدربة على التجاوز الثقافي ومعالجة قضايا التمييز المتواجدة منذ أمدٍ بعيد.
- القدرة على تحقيق التواصل بين الثقافات.
- القدرة على وضع استراتيجيات القيادة التي تنتظم جميعَ الأشخاص بطريقةٍ فعالة.

لقد رسمت أطروحات حركة كولن توجهاتٍ مُحددةً تتناول الحاجةَ إلى العدالة الاجتماعية والإفادةَ من التعليم في إزالة الحدود والحواجز بين الجماعات البشرية، فضلًا عن الاستعانة به في استيعاب دروس الماضي. (ميشيل، ٢٠٠٣).

وبعدُ، فإن ثمة عددًا من العوائق الثقافية الفطرية التي تحول بيننا وبين أن نعيش ونعمل ونُعلِّم في الوقت نفسه الذي نُراعي فيه العدالة الاجتماعية؛ فقد تربينا على هذه السلوكيات في المنزل والمجتمع والكنيسة والمسجد والمعبد والمدرسة ومن خلال وسائل الإعلام، وقلَّما نتناولها تناولًا نقديًّا أو نضعها موضع المساءلة أو نتساءل عما لها من تأثيراتٍ على الآخرين. وقد لُقِّن كثيرٌ منا بعض الممارسات التي نَفذت إلينا في

غيبةٍ من الوعي، والتي نعتقد بصحتها اعتقادًا جازمًا، من قبيل: "إن طريقتنا في السلوك طريقةٌ صائبة"، أو "كل الآخرين على خطأ [عدا جماعتي]"، أو "إنهم يتبعون أساليب مختلفة" [وبالتالي خاطئة]، أو "إنهم مُنحطون ومعوزون". لكنْ أن تكون مُربِّيًا يعني أن تُفتش داخل نفسك تفتيشًا عميقًا، وأن تُخضِع بعض ما تقبلته بوصفه الطريقة التي ينبغي أن تكون عليها الأمور للمساءلة، وأن تسلك سلوكًا مُغايرًا لدعم قيمة العدالة الاجتماعية. ولذا فإن أحد الجوانب التربوية المهمة لدراسة الحالة التي نُقدمها هذه هو منهجية حركة كولن في معالجة قضية العدالة الاجتماعية.

التعليم كسبيلٍ إلى القيادة

نادرًا ما تتأتَّى القيادة إن تُرك الأمر للمصادفة، رغم أن بوسع أحداث شتى، وأحيانًا أحداث عشوائية، أن تتجمع سويًّا فتنهض بها.

وثمة جهودٌ مدروسةٌ تقوم بها حركة كولن لاستنهاض وتعهُّد قيمة القيادة التي تُمثِّل -كذلك- في هذه الحالة المحدَّدَة اتجاهًا آثره الشاب عُمَر في أثناء دراسته وعمله المجتمعي. وقد وُثِّقت كثرةٌ من هذه الممارسات القيادية (أغاي، ٢٠٠٣) المستلهمة من فكر الحركة بوصفها ممارساتٍ ناجحة:

- العلاقة بين الأقران وتعليم الرفاق.
- التعاليم التي تُشجع الانفتاح على الأفكار الجديدة.
- المران على التنوع والاحتكاك الثقافي والتبادل الاجتماعي.
- التأثير في المجتمع.
- دعم الأسرة، وبخاصةٍ عند اتخاذ القرارات الجوهرية.
- إنشاء المدارس ضمن منظومةٍ أكبر، مع احتفاظها بقدرتها على تحريك الموارد العمومية.
- أنشطة القيادة التي تخضع لدعم وإشراف وتوجيه عددٍ أكبر من الممارسين ذوي الخبرة.

وكما أبان هذا البحث، فإن حركة كولن قد استعانت -في كلٍّ من هذه النماذج- بالتطبيقات التي تُعزِّزها الأدلة؛ لتطوير فرص القيادة ودعمها، وتطوير التعليم ودعمه بوصفه سبيلاً إليها، وذلك لصالح لفيفٍ من الشباب والفتيات، فضلاً عما ثبت من جدوى الانخراط في المجتمع. (كريتزمان وماكنايت، ١٩٩٣).

محدودية الدراسة

ثمة عديدٌ من القيود المفروضة على هذه الدراسة؛ فبينما تتناول نمطًا من النشاط التعليمي داخل سياقاته، وتستعين بالبيانات النوعية لطرح سؤالٍ بحثيٍّ مُحدَّد، فإنها تتمخض -بالمثل- عن دراسةِ حالةٍ تتسم بكونها سرديةً بغرض استخدامها في الدرس الأكاديمي. ولذا فإن كلًّا من هذه الشروط والإجراءات المُتَّبَعة في هذا البحث قد يُصبح من مُحدِّدَاته.

وليست غايةُ البحث أن يصل إلى تعميماتٍ تُستقَى مما عُوِّل عليه من تفاصيل مُحدَّدَة، وإنما أن

ثمة جهودٌ مدروسةٌ تقوم بها حركة كولن لاستنهاض وتعهُّد قيمة القيادة التي تُمثِّل اتجاهًا آثره الشاب عُمَر في أثناء دراسته وعمله المجتمعي. وقد وُثِّقت كثرةٌ من هذه الممارسات القيادية بوصفها ممارساتٍ ناجحة:

nesemat.com نسمات nesemat.com

يمدنا بالأحرى ببعض التبصُّرات حول أنماط السلوك، وهو ما يحدُّ من الدراسة.

كما أن هناك قيدًا آخر واضحًا يحدق بالإفادة من هذه الدراسة، فهي لم تُعَدَّ لاستخدامها في طرح أسئلةٍ كبرى تتعلق برسم السياسات، بل في الأغلب لمُداعبة حاجتنا إلى طرح مزيدٍ من الأسئلة والبحث عن إجاباتٍ مناسبةٍ لها. وكذلك فإن البيانات وتحليلها يحفزان القيام بمزيدٍ من الاستقصاء؛ إذ لم يُقصد لهذه الدراسة أن تخضع للقياس الكمي.

وككل الدراسات، فإن المدى الذي يُمكن أن تمتد إليه النتائج المُستخلصة لتنطبق على عددٍ أكبر من السكان هو مدىً بالغ الانحصار والضيق.

الأبحاث المستقبلية

ثمة كثرةٌ من مجالات الدراسة المستقبلية واضحةٌ في ذهن الباحث، منها:

• إلى أي مدىً تتضح النتائج الأربع في البحوث المتعاقبة؟

• إلى أي مدىً تتضح الصلة بين العدالة الاجتماعية والنموذج التعليمي القائم على إرشاد الأقران بعضهم بعضًا؟

• ما الدور الذي يلعبه أفراد العائلة في دعم احتواء حركة كولن لأطفالهم؟

• كيف يُسهم التعليم في بناء القيادة داخل حركة كولن وكيف يتم دعم ذلك؟

• ما العلاقة بين التأكيد على التنوع الاجتماعي والثقافي واستجابة المرء لنداء الواجب تجاه رابطته بمجتمعه؟

إن كلًّا من هذه الخطوط المبحثية، وغيرها كثير، بحاجةٍ إلى أن تتناولها الأبحاث المستقبلية. كما أن ثمة مضمارًا آخر يصلح للبحث المستقبلي يتمثَّل في التطرق للإفادة من دراسة حالة عُمَر كمادةٍ للدرس الأكاديمي وكمُحفِّزٍ لإثارة النقاش حول التعليم التركي، ودور الأسرة في التحصيل العلمي، وفهم السياقات التربوية في المجتمعات الإسلامية، وما أشبهها من مجالات البحث.

خاتمة

سعت هذه الدراسة، من خلال الاستناد إلى المنهجية النوعية (qualitative methodology) في دراسة الحالة، إلى بسط قصة الحياة التعليمية لأحد الأشخاص على ضوء ثلاثة أسئلةٍ رئيسية:

• ما قصة المسار التعليمي -سواءً التعليم "النظامي" أو التابع لحركة كولن- لهذا الشاب الذي يُقيم ويدرس حاليًا بالولايات المتحدة؟

• كيف تجلَّت العدالة الاجتماعية والمشاركة الديمقراطية والتسامح الديني كواحدةٍ من أفكار حركة كولن في تجربة هذا الشاب؟

• كيف أثَّر التحاقه بحركة كولن على رؤاه التعليمية؟

قصص الحياة التعليمية

نخلُص إلى أن من شأن الاستعانة بقصص الحياة التعليمية والاستقصاءات والسرديات المستندة إلى بياناتٍ مُستقاةٍ من هذه الاستقصاءات أن يُزودنا بوسيلةٍ لتَبَيُّنِ كيف يُمكن لتتابع أحداث الحياة القائمة على أساسٍ مجتمعيٍّ أن يتمخض عن مناهج دراسيةٍ بوسعها تغيير الحياة، وكيف يُمكننا من خلال هذه الأحداث المجتمعية أن نتتبع نمطًا حياتيًّا يرتبط بحركةٍ اجتماعيةٍ دينيةٍ فلسفية وأن نُلقي الضوء على هذا النمط.

العدالة الاجتماعية مبحثًا

نخلُص إلى أن الدور الذي لعبته العدالة الاجتماعية من المنظور القومي/المجتمعي التركي وكذلك دور حركة كولن في تكريس العدالة الاجتماعية بوسعهما إثراء الممارسة التربوية وتعميق فهم الطلاب لهذه الممارسة من خلال إلقاء الضوء على الأطروحات الواقعية ذات الأساس النظري.

أثر حركة كولن

كما نخلُص إلى أن ثمة وقائع وأحداثًا وأنشطةً تربويةً مختلفةً كان لها أثرها في مفاهيم العدالة الاجتماعية والمشاركة الديمقراطية والتسامح الديني لدى الأشخاص المنخرطين في هذه المسارات وبعض أفراد عائلاتهم وغيرهم من المنتمين إلى دوائر مجتمعاتهم المحلية الأكثر اتساعًا. ■

الهوامش

[١] للأسف الشديد أغلق الحزب الحاكم مدارس الخدمة في تركيا بعد الانقلاب المزعوم في ١٥ يوليو/تموز ٢٠١٧م دون أيّ مبرر قانوني، وطرد نحو ٢٥ ألف من معلّمي هذه المدارس، ثم تشرَّد الطلاب إلى مدارس أخرى. (المحرر)

المراجع

[١] أغاي، بكيم. المنظومة الأخلاقية الإسلامية لحركة كولن في التعليم. في الإسلام التركي والدولة العلمانية: حركة كولن، تحرير يافوز وإسبوزيتو، مطبعة جامعة سيراكيوز، ٢٠٠٣.

[٢] أصلان دوغان، ي. ا. م. سيرتن، "فلسفة كولن التعليمية فكرًا وتطبيقًا" في "المواطنون المسلمون في عالم العولمة: إسهامات حركة كولن". تحرير روبرت ا. هانت، يوكسل ا. أصلان دوغان. سومرست، نيو جيرسي، شركة ذا لايت، ٢٠٠٦.

[٣] كارول، جيل. حوار الحضارات، سومرست، نيو جيرسي، شركة ذا لايت، ٢٠٠٧.

[٤] كولن، م. فتح الله؛ مقالات، نظرات، آراء؛ م. فتح الله كولن. شركة ذا لايت، سومرست، نيو جيرسي، ٢٠٠٦.

[٥] مجلة إيكونوميست، ٦ مارس ٢٠٠٨. استعادة على الإنترنت، ٢٠٠٩/٨/٢٩.

[٦] فريري، باولو. بيداجوجيا المقهورين. نيويورك: مطبعة سيبيري، ١٩٧٠.

[٧] هنري، صامويل د. "استخدام دراسات الحالة في مجال التعليم لتوسيع الاتصال بالبيئات الحضرية والبيئات متعددة الثقافات". ورقة بحثية مقدمة للملتقى السنوي السادس عشر للرابطة العالمية لبحوث وتطبيقات طريقة الحالة، جامعة إكستريمادورا، كاسيراس، إسبانيا، يوليو ١٩٩٩.

[٨] "منهجية لتعليم المُعلِّم تهدف إلى زيادة إيجابيات تفاعلات الاحتكاك الثقافي قبل وأثناء الخدمة"، التعليم والتعلم من أجل التفاهم بين الثقافات، حقوق الإنسان وثقافة السلام، مؤتمر برعاية اليونسكو. منشورة وعلى الإنترنت ضمن محاضر مؤتمر اليونسكو. جامعة جيفاسكيلا، جيفاسكيلا، فنلندا. يونيو ٢٠٠٣.

[٩] كريتزمان، جون؛ ج. ماكنايت، بناء المجتمعات من الداخل إلى الخارج. جامعة نورث وسترن، ١٩٩٣.

[١٠] ماركوفا، إيفانا؛ ا. غيليسبي، (تحرير) الثقة وعدم الثقة. نيويورك: شركة انفورميشن ايدج للنشر، ٢٠٠٧.

[١١] ميريام، شاران. "دور النمو الإدراكي في نظرية ميزيرو للتعلم التحولي" في فصلية "أدالت ايديوكيشن". المجلد ٥٥، العدد ١، صفحة ٦٠-٦٨، ٢٠٠٤.

[١٢] ميرسيث، كاثرين ك. "الحالة، طريقة الحالة، والتطوير المهني للمُعلمين"، ملخصات إيريك: نوفمبر ١٩٩٦. نظام إيريك لتبادل المعلومات حول التدريس وتعليم المُعلمين. واشنطن العاصمة: الرابطة الأمريكية لتعليم المُعلمين، ١٩٩٥.

[١٣] ميزيرو، جاك. الأبعاد التحولية لتعليم الكبار. سان فرانسيسكو: جوسي باس. ١٩٩١.

[١٤] ميشيل، توماس. "فتح الله كولن مُرَبِّيًا" في "الإسلام التركي والدولة العلمانية: حركة كولن"، تحرير يافوز وإسبوزيتو، مطبعة جامعة سيراكيوز، ٢٠٠٣.

[١٥] نييتو، سونيا. تأكيد التنوع: السياق الاجتماعي السياسي للتعليم متعدد الثقافات. نيويورك: لونجمان للنشر، ١٩٩٦؛ أديسون-ويسلي ٢٠٠٠، ٢٠٠٢؛ ألين وبيكون ٢٠٠٢، ٢٠٠٧.

[١٦] نودينجز، نيل. تعليم الأخلاقيين: بديل تربوي لإعداد الشخصية. نيويورك: مطبعة كلية المُعلمين، ٢٠٠٢.

[١٧] البدء من المنزل: السياسات التربوية والاجتماعية. بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٢.

[١٨] صحيفة نيويورك تايمز، ٨ يناير ٢٠٠٨؛ استعادة على الإنترنت ٢٠٠٩/٨/٢٩.

مُلحق أ: حالة عُمَر

ملاحظة: عُمَر هو اسم مستعار لمتطوع حقيقي.

قصة عُمَر

في غربيِّ تركيا، منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، وُلد عُمَر في أسرةٍ تركيةٍ تنتمي لطبقة العمال. أمه ربة منزل عكفت في بيتها على تربية الأطفال الثلاثة، بينما عمل والده بالإصلاحيات الحكومية، وهو العمل الذي تطَلَّب منه ومن أسرته الارتحالَ إلى أماكن مختلفةٍ عدةَ مرات، الشيء الذي تسبب في التحاق عُمَر بمدارس شتى إبان فترة تلقيه تعليمَه النظامي، بما في ذلك التحاقه بإحدى المدارس في إزمير.

يقول عُمَر إن أسرته داعمةٌ لطموحه التعليمي، كما يقول إنها كانت -في ذلك الوقت- "تمتثل للإسلام، لكن ليس إلى حدٍّ كبيرٍ من ناحية التطبيق". ويصف نفسه بأنه كان طالبًا "جيدًا" خلال المرحلة الابتدائية، لكنه لم يكن طالبًا ممتازًا، ولا كان يتمتع بصفات الزعامة "الكاريزمية"، وإن "استهواه أداء الأمور بالشكل الصحيح".

ويُشير عُمَر إلى ما يعتبره اختلافًا ثقافيًّا بخصوص مفاهيم الزعامة، إذ إن النمط الذي يُجسِّد الخصائص الرئيسية للزعيم في منطقة الشرق الأوسط هو النمط الذي ينظر إلى القائد باعتباره شخصًا مُؤثِّرًا يتمتع بالكاريزما.

وعند انتقاله إلى المرحلة الثانوية، كان على عُمَر وأسرته أن يتخذوا قرارًا مهمًّا؛ فبعد اختبارات الالتحاق بالمدارس الثانوية التي أُجريت على مستوى القُطر، قُبِلت أوراقه بمدرسةٍ مهنيةٍ للتجارة البحرية اقتضت إقامته في أحد "البنسيونات"؛ كَوْن المدرسة تبعد عن مقر إقامة عائلته في ذلك الوقت بحوالي ١٢-١٣ ساعة سفر بالأتوبيس.

يتذكر عُمَر النقاشات العائلية المكثفة والدور الفعال الذي لعبته أمه، ثم ما توصلت إليه العائلة من القرار بالتحاقه بالمدرسة.

وحالما التحق عُمَر بالمدرسة الثانوية، شعر بالسعادة لوجود شباب يكبرونه سنًّا يُقيمون معه في البنسيون، والذين كانوا على استعدادٍ لمساعدته في الأعمال المدرسية، وفي تنمية أحاسيس أكثر نضجًا بداخله، كما كانوا له بمثابة القدوة الإسلامية التي ساعدته على فهم الدين والفرائض بصورةٍ أكثر وضوحًا.

كان أولئك الشباب يتلقون كتابات وتعاليم الأستاذ محمد فتح الله كولن (٢٠٠٣)، وكما يقول عُمَر، كان البَوْن شاسعًا بين سلوكياتهم وما رآه من سلوكيات أترابهم الذين من نفس العمر؛ فقد تمسكوا بتعاليم الإسلام باعتبارها طريق الإنسان نحو نُشدان المعرفة بخشوع، ونحو تَقبُّل الاختلافات الاجتماعية والثقافية واللغوية، والأهم من ذلك كله نحو أن يصبح المرء مُتجاوبًا مع الآخرين ومسؤولًا عن إصلاح حياة أفراد مجتمعه.

شعر عُمَر بصدق هذه الأطروحة، ومع مرور سنوات دراسته الثانوية، صار واحدًا منهم، ساعيًا إلى أن يصبح قدوةً إيجابيةً للأولاد الذين يصغرونه، وأن يساعدهم بجد، وأن يعكف على دراسة كلٍّ من الإسلام ومناهج دراسته الثانوية؛ فبدأ في الكشف عن استعدادٍ فطريٍّ لأن يصبح قائدًا "رزينًا"، ومن خلال تعاليم الأستاذ كولن، تبنَّى تطبيقًا مُغايرًا للإسلام، حتى لِمَا عرفته أسرته حين كان طفلًا. (منذئذٍ، وعَبْر ما أحدثه من تأثير، عدَّلت الأسرة من طريقتها في تطبيق الإسلام).

لقد عمَّقت ساعات السفر الممتلئة بالفكر على متن أتوبيس من وإلى إسطنبول من تقدير عُمَر للممارسة الإسلامية المُغايرة التي يطرحها الأستاذ كولن؛ وعلاوةً على ذلك، فبحلول نهاية المرحلة الثانوية، انتهى -كذلك- إلى أنه قد ولَّى وجهه شطر المهنة الخاطئة؛ فتشغيل أنظمة ملاحة إحدى السفن التجارية لا ينبغي أن يكون طريقه كعضوٍ مُنتِجٍ في المجتمع.

خلال المرحلة الثانوية، صار عُمَر بالغَ الاهتمام بالقانون والإدارة العامة، بيد أنه أدرك أن الإعداد الذي توفره له مدرسته الثانوية القائمة على الدراسات الملاحية لن يُهيئه لهذا المسار؛ ولذا غيَّر اتجاهه، وإن احتفظ بأهدافه، مُتخذًا القرار بالتوجه إلى دراسة التاريخ في الجامعة.

وبمساعدة الناصحين من حركة كولن، اجتهد عُمَر في الدراسة، واجتاز الاختبارات العامة، والتحق بإحدى الجامعات الكائنة بمدينة إسطنبول.

ومرةً أخرى، وبصورةٍ أكثر تصميمًا، اتجه إلى العَيش مع شباب آخرين منخرطين في حركة كولن، ووقف على أهمية تناولهم الطعامَ وأدائهم العباداتِ الإسلاميةَ وتحصيلهم العلمَ معًا، مكتشفًا داخل نفسه ميلًا لخدمة مجتمعه -مع غيره من الشباب- من خلال الجهود التي تقوم بها الحركة.

وبعد حين، انتقل إلى أحد المساكن التي أمَّنتها الحركة لصالح الشبان العاكفين على تعلُّم هذا النمط من الممارسات الإسلامية، مُتقاسمًا مساحته المعيشية مع عددٍ آخر من الشباب الأكبر والأصغر منه سنًّا. وقد شكَّل هؤلاء الشباب تشكيلةً من مختلف الأعراق والطبقات الاجتماعية، وتبدَّى كلٌّ منهم كقدوةٍ للآخرين؛ كما سعوا إلى تعزيز السمات الإيجابية لمنهجية الحركة في تطبيق الإسلام.

لقد اتسموا بالخشوع في الصلاة، وبالإخلاص في محاولتهم العملَ على تعميق معرفتهم بالإسلام والعالم. وفيما يتصل بمجتمعهم، تعلَّموا

-بشكلٍ أكثر عمقًا- عن تاريخ تركيا كملتقىً للثقافات والأفكار والتقانات، وعن كيف أثَّر وتأثر موقعها بتاريخ كثرةٍ من البلدان والحركات والمُستحدثات الأخرى. والأهم من ذلك أنهم تعلَّموا بالمِثْل كيف يكونون أكثر تسامحًا مع الآخرين، وكيف يتقبلون الضعف – وحتى الفشل- الإنساني.

ومثلما كانت الحال إبان فترة الدراسة الثانوية، فقد كان لسنوات الجامعة أهميتها وتأثيرها الهائلين في حياة عُمَر. وإذ آزرته أسرته، وأمه على وجه الخصوص، في أثناء سعيه لتَلَقِّي تعليمه العالي، فقد انتهى عُمَر إلى إدراك أهمية تعهُّدِ علاقات الأقران، والاطلاعِ المستمر بدلاً من ادعائه معرفةَ كلِّ شيءٍ سلفًا، وخدمةِ مجتمعه ورد جميله بالمِثْل.

وما إن حصل عُمَر على شهادته في دراسة التاريخ وقَبِل العمل كمُعلِّمٍ في إحدى المدارس الثانوية، حتى كان قد انغمس بكُلِّيته في حركة كولن والأنشطة المجتمعية. وقد كان هذا الانغماس في الحركة، إلى جانب الرغبة في خدمة مجتمعه، هما ما دفعاه إلى طلب الدراسات العليا في الولايات المتحدة.

في أواخر صيف عام ٢٠٠٣، غادر عُمَر من إسطنبول في مغامرةٍ لنيل دراساته العليا في مجال التعليم من إحدى الجامعات العامة متوسطة الحجم التي تقع غربي الولايات المتحدة، وللعمل مع إحدى مجموعات حركة كولن الناشئة بإحدى مدن هذه الناحية.

استغرقت الرحلة أكثر من ست عشرة ساعة؛ لتُمثِّل نقلةً إلى ثقافةٍ مُغايرةٍ وسياقٍ اجتماعيٍّ ودينيٍّ وسياسيٍّ مختلف، نقلةً إلى بلدٍ تلبَّستها -إثرَ هجمات الحادي عشر من سبتمبر-حساسيةٌ شديدةٌ تجاه كلِّ مَن يُعلن اتِّباعَه للإسلام ويكون من أصول شرق أوسطية. وكانت ملامح عُمَر -التي لا تختلف كثيرًا عن ملامح سكان هذه المنطقة- تشي بالكثير عن أصوله.

ولدى وصوله، كانت حكومة الولايات المتحدة قد شنَّت -ابتداءً- الحرب ضد طالبان في أفغانستان، ثم ضد حكومة صدام حسين في العراق؛ ورغم أن كِلا الحربين لم تحظيا بالدعم الشعبي من جمهور الناخبين، فإنهما قد رسمتا حدودًا واضحةً وَجَد الرجالُ والنساء ذَوُو الأصول الإسلامية والشرق أوسطية أنفسَهم خارجها.

وفي نفس هذه المدينة، صرَّح أحد طلبة الدكتوراه الشرق أوسطيين، بعد تعرضه للمضايقة في أحد طوابير السينما، بأنه وخطيبتَه "قد توقفا ببساطةٍ عن الذهاب كثيرًا إلى الأماكن العامة". ويقول عُمَر بأنه قد استشعر هذا القلق، وبأنه "قلَّل من مرات خروجه"، عاقدًا العزم على أن يُطأطيء رأسه "حتى تمر الموجة" في البداية. لكنه سرعان ما انشغل بالعمل مع الأتراك النازحين إلى المنطقة من الاتحاد السوفيتي السابق، ومساعدتهم على الحصول على الخدمات الاجتماعية، وبخاصةٍ اللغوية منها، ثم ما لبث أن ألقى دروسًا في اللغة والثقافة التركية بإحدى المراكز المجتمعية.

شيئًا فشيئًا، وبالمساهمة مع آخرين، بدأ عُمَر في توسعة أنشطة المركز المجتمعي، ودعوة أعضائه من غير الأتراك للمشاركة في تناول العَشاء، وفي النقاشات المرتبطة بحوار الأديان، واللقاءات التعليمية، وحضور الإفطارات الرمضانية. وبالشراكة مع زملاء آخرين في الحركة، نظَّم عُمَر ومجموعة أترابه سلسلةً من الرحلات يُسافر خلالها قادة المجتمع المحلي "غير الأتراك" إلى تركيا؛ لاكتساب خبرة التفاعل والحوار المباشرَين مع القادة المجتمعيين الأتراك. ومن خلال جهوده في عام ٢٠٠٧، وُجِّهت الدعوة إلى رجال أعمالٍ وأكاديميين ورؤساء مصالح عامة وزعماء دينيين ومسؤولين حكوميين مُنتخَبين لخوض تجربة الحوار مع أتراك داخل تركيا، فقبلوا الدعوة. وفي جولةٍ مكوكيةٍ امتدت قرابة الاثني عشر يومًا، زار أفراد المجتمع الأمريكي هؤلاء إسطنبول وإزمير وقونية ونيدة وأدرنة وقبادوقية وغيرها من الأماكن، والتقوا بأفراد وجماعات على الطعام، ورأوا تركيا رأي العين، وحظوا بفرصة الحديث المباشر مع زعماء شتى، وقضوا ليلةً في منزل أحد القادة المحليين.

كانت هذه هي الفرصةَ الأولى بالنسبة لكثيرٍ منهم للاحتكاك بإحدى الدول الإسلامية احتكاكًا مباشرًا، الفرصةَ الأولى لإجراء حوارٍ هاديءٍ مع إحدى النساء حول سبب ارتدائها غطاءً للرأس، والمرور بلحظاتٍ وجيزةٍ من تجربة سماع الأذان ينطلق من مئذنة، أو الدهشة عن قربٍ لمرأى فسيفساء بيزنطيةٍ مسيحيةٍ تعود إلى القرن الرابع.

لقد كان التأثير مذهلًا فيما يتعلق بالتوصل إلى فهم حيثيات حركة كولن، والحاجة إلى الحوار بين الأديان وسُبُلِه، وكلُّ ذلك بتوجيه عُمَر ورفاقه من صغار القادة بالحركة.

وكانت إحدى المواطنات الأمريكيات اللائي وُلدن في الجنوب قد تلقت الدعوة، وخلال مأدبة العَشاء في منزلها على وجبةٍ من أطباق "أريبيتاس" و"بوريكو"، قالت: "لقد تغيرت حياتي. فاقترابي من "بعض" النساء التركيات عَدَّل من آرائي المتعلقة بالإسلام وبِدَور المرأة. لقد شعرتُ بالأواصر التي تربطنا، رغم أن أحدنا لا يتحدث لغة الآخر".

وبعد بضعة أشهر، خلال مأدبة عَشاء في المركز المجتمعي نظَّمها عُمَر وآخرون، عاودت المرأة قولَ ذلك أمام مجموعةٍ محليةٍ تتكون من نحو خمسين شخصًا، معظمهم مِمَّن يُفكرون في الاشتراك في إحدى رحلات حركة كولن إلى تركيا، لكنَّ من بينهم أيضًا تجارًا محليين يدعمون هذه الرحلاتِ ويدعمون الحوارَ بين الثقافات.

نسمات

إصدارة علمية بحثية متخصصة

نسمات إصدارة علمية بحثية متخصصة في دراسة مشروع الخدمة والرؤية الإصلاحية للأستاذ فتح الله كولن في أبعادها الفكرية وتجلياتها التطبيقية. وهي تندرج في إطار الأعمال البحثية الميدانية المتخصصة في ظاهرة اجتماعية ما، تسلط الضوء عليها، وتسبر أغوارها بعمق، وتكشف عن حيثياتها ومآلاتها، وتعقد صلتها بخبرة الماضي، وتدرس فاعليتها في الحاضر، وتستشرف امتدادها في المستقبل، لتخرج بنتائج علمية تشكل إضافة نوعية إلى المعرفة الإنسانية والخبرة البشرية.

يهدف مشروع نسمات إلى سبر أغوار نموذج الخدمة والرؤية الحضارية للأستاذ فتح الله كولن ودراستها من زوايا شتى، سواء من الناحية النظرية الفكرية، أو من الناحية العملية التطبيقية. ومن ثم تحث الباحثين في المجال الفكري الحضاري على السعي معها في هذا المضمار، وترحب بكل عمل جاد يساعدها على تحقيق مبتغاها.

شروط النشر

- أن تكون المشاركة جديدة لم يسبق نشرها.
- أن تكون دراسة متصلة بمشروع الخدمة وفكر الأستاذ فتح الله كولن.
- أن تكون المشاركة إسهاما إيجابيا مثريا، تشكل إضافة نوعية في القراءة والنقد والتحليل وتتوافق مع المعايير العلمية المعروفة.
- ألا تقل عن ١٥٠٠ كلمة وألا تزيد على ٧٠٠٠ كلمة.
- أن يرسل الباحث ملخصا لمشاركته في حدود ٢٥٠ كلمة.
- تخضع المشاركات المعروضة للنشر لموافقة لجنة استشارية علمية، وللجنة العلمية أن تطلب من الباحث إجراء أي تعديل على المشاركة قبل إجازتها للنشر.
- هيئة التحرير تلتزم بإبلاغ أصحاب المشاركات بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ هيئة التحرير بحقها في نشر المشاركات وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- المشاركات التي تنشر في نسمات تعبر عن آراء كتابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- لـ«نسمات" حق إعادة نشر المشاركات منفصلة أو ضمن مجموعة من الأبحاث، بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أي لغة أخرى دون حاجة إلى استئذان صاحبها.
- نسمات لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى من الباحث أن يرفق مع المشاركة نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية مع صورة واضحة مناسبة للنشر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى العنوان الآتي: nesemat@yahoo.com

إن الفتح الحقيقي في عصرنا
لا يتحقق إلا بالوصول إلى قلوب الناس
وإحيائها بقيم الإسلام السامية.

مركز التوزيع: **دار النيل للنشر** | sales.daralnile@gmail.com
مراكز البيع الالكتروني: **www.neelwafurat.com** | **www.jamalon.com**
Tel.: +202 25379391 Mobile: +2 01023201002 - +2 01023201001
www.daralnile.com

nesemat.com

نسمات

دراسات حول مشروع الخدمة

خدمة المجتمع كله هدف لأبناء "الخدمة"، لا فرق عندهم بين أبيض وأسود، ولا بين مسلم وغير مسلم، ولا بين تركي أو عربي.. العملة المتداولة هي الإنسان وإنسانية الإنسان، والشعار هو "توقير الخَلْق من أجل الخالق".

إن إحدى السمات البارزة لـ"تجربة الخدمة" هي تعددية انتماءات المشاركين فيها؛ حيث لا ينتمي الأفراد إلى أي تجمُّع أو شبكة واحدة، بل يُسهمون في عدد من مناحي الحياة الاجتماعية والأنشطة المتنوعة.

إن الآباء يبعثون أبناءهم إلى مدارس "الخدمة" بسبب تفاني المُعلِّمين، وجودة المناهج، والرؤية الشاملة التي يوطدون دعائمها فيما يتعلق بالإنسانية والتسامح التربوي والحوار.

nesemat.com نسمات

ISBN 978-977-801-039-8

9 789778 010398

دار النيل